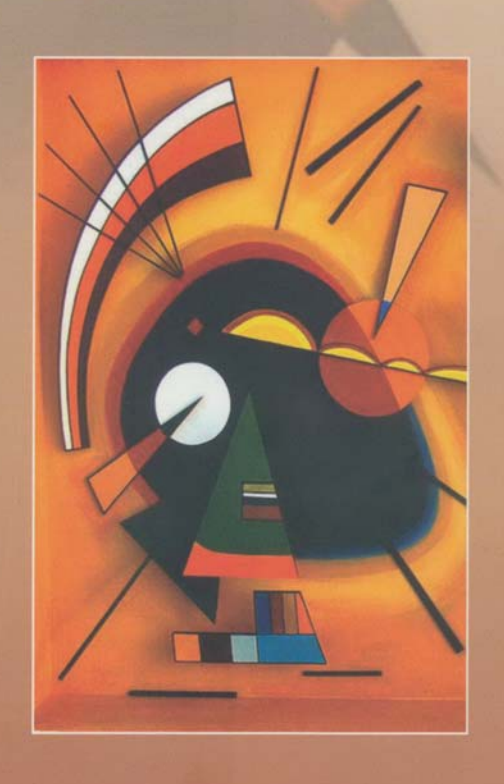
نايجل رودجرز - ميل ثومبثون

جنون الفلاسفة





ترجمة: متيّم الضايع



نايجل رودجرز - ميل ثومبثون

جنون الفلاسفة

ترجمة: متيّم الضايع

دار الحوار

جنون الفلاسفة

الكتاب: جنون الفلاسفة
تأليف: نايجل رودجرز - ميل ثومبثون
ترجمة: متيّم الضايع
الطبعة الأولى: 2015
الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للكتاب الإنكليزي:

Philosophers Behaving Badly

By: **Nigel Rodgersj**

Mel Thompson

ISBN: 978 – 9933 – 523 – 29 -9



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
سورية- اللاذقية - ص. ب 1018
هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

ملاحظة تحذيرية

يريد الكاتبان[1] أن يؤكدا للقارئ أنهما بذلا أفضل مساعيهما ليكونا صارمين وجائرين مع الفلاسفة جميعهم على قدم المساواة، ويتضمن ذلك الانتقائية العالية للمواضيع التي اختاراها للدراسة. لا يجب افتراض أن أي فيلسوف لم يُذكر في هذا الكتاب، يُعتبر ذا شخصية جيدة.

الأهم من ذلك أننا قاومنا إغواء كبيراً للتفريق بعناية ما بين حماقة التصرّف السيىء، والسخافة الاجتماعية العادية. تفريق كهذا يكون ذا صلة فقط في التقييم الأخلاقي للتصرّف، في حين أن

---

[1]نايجل رودجرز: هو مؤرّخ ومؤلف لأحد عشر كتاباً، من ضمنها السيرة الذاتية لهتلر وتشرشل، إضافة إلى كتاب "فهم الوجودية" والذي ألّفه مع ميل ثومبثون. وكتابه الأحدث هو: "الغندور: طاووس أم لغز؟"

ميل ثومبثون: مؤلّف لأكثر من عشرين كتاباً عن الفلسفة والأديان ومن ضمنها العديد من المنشورات الشعبية (سلسلة تعليم الذات). تتضمن المنشورات الأحدث له كتاب (أنا) من سلسلة (فن العيش)، الذي يستكشف قضايا الهوية الشخصية وكتاب "فهم الوجودية" بالاشتراك مع نايجل رودجرز وكتاب (القراءة السهلة للفيلسوف) وهي مجموعة من خمسة وثلاثين سؤالاً تستطيع التفكير بها بينما تعبث أصابع قدميك برمال الشاطئ.

اهتمامنا هو مجرد تقديم حماقات الحكماء، كي لا تُقدّس ذكراهم بشكل محرج.

على أية حال، نحن ندرك أن النزاهة تُقدَّم بشكل مستمر، كسمة أساسية للحياة الأخلاقية الجيدة. وبالتالي كان من الواجب تضمين توضيحٍ لكلا موضوعي الحياة الخاصة لكل فيلسوف درسنا تصرفاته، ومساهمته الأساسية بالفكر، بما أننا نعتبر أن أسوأ أشكال السلوك هو الذي يتناقض مع الأشياء التي يقبلها المرء على أنها عادلة وحقيقية. وبالتالي نعرض في البداية مقدمة لثمانية مفكرين من العصر الحديث، مع أفكارهم الموضوعة في سياق حياتهم. ونقصد بالعصر الحديث، الفترة التي تشير إلى نتاج الفلسفة من بداية عصر (رينيه ديكارت). لقد كان هناك بالطبع، العديد من آثام العصور الوسطى وجنحها، لكن ذلك لا يقع ضمن سياق بحثنا الحالي.

مقدمة المترجم

يتجاوز هذا الكتاب، موضوع بحث الأفكار الفلسفية لمن ورد ذكرهم من فلاسفة، حيث إن مؤلفاتهم متاحة للجميع، ويستطيع القارئ المهتم الوصول إلى المصادر الأصلية من دون اللجوء إلى من يكتب عنهم، كما يتجاوز موضوع السيرة الذاتية، لأن لكل منهم سيرته الذاتية، وهي متاحة أيضا رغم وجود معلومات لا بأس بها في هذا الكتاب، الذي لا يهدف إلى تقديم مدخل سهل يجذب القارئ غير المختص إلى عالم الفلسفة، ويعرّفه بتاريخها وخطوطها العريضة ككتاب "قصة الفلسفة — ويل ديورانت، أو رواية عالم صوفي — جستين غارد"، بل يتجه هذا الكتاب نحو فكرة مختلفة تماما، يمكن طرحها حول أي منحى من مناحي الحياة الفكرية أو الأدبية أو السياسية، ولم تكن الفلسفة هنا سوى خلفية للفكرة، وقد كان مؤلفا الكتاب موفقين من وجهة نظري باختيارهما هذا.

أتذكر الآن سهرة كنت أتابع فيها فيلماً مع مجموعة من الأصدقاء، وكان بعنوان (المنهج الخطير - A Dangerous

Method). ويتحدث بطريقة ما عن عالم النفس كارل غوستاف يونغ وطريقته في التحليل النفسي، إضافة لعلاقته مع فرويد، وإلى حياته الشخصية. وعلى الرغم من أن يونغ شخصية أساسية في مجال علم النفس وأحد المشاركين بوضع الأسس العلمية والأخلاقية لمارسة مهنة التحليل النفسي، فقد أقام علاقة عاطفية مع مريضة له، ومارس الحبّ معها، ومن ثم تخلّى عنها، حفاظاً على صورته الاجتماعية كونه متزوجاً ولديه أطفال، ومع قبولنا حينها بأنه إنسان ومن الممكن أن يُخطئ، إلا أنه، وكما يظهر في الفيلم، لم يشعر بأنه ارتكب خطأ، بل أقدم على علاقة أخرى، مع مريضة أخرى ومن ثم تخلى عنها لأسباب أخرى.

أذكر هذا المثال لأنه أثار مشكلة فيما بيننا نحن الأصدقاء، ما بين متسامح يعتبره إنساناً يحق له أن يُخطئ، وبين متشدد يراه من خلال مهنته فقط، فيجرّمه ويعتبر مؤلفاته غير صالحة للقراءة: هل أخطأ مهنياً أم أخلاقياً؟

حول هذه النقطة تدور فكرة الكتاب. لقد تعمّق مؤلفاه في مؤلفات مجموعة من الفلاسفة، وبحثا في السيرة الذاتية لكل منهم، وبما تم توثيقه من حياتهم الشخصية، سواء في الكتب أو من خلال تلاميذهم أو من البرامج الإذاعية، بغية الوصول لهدف واحد هو الإجابة على هذا السؤال: ما هي نسبة التطابق بين أفكار الفيلسوف المثبوتة في أعماله، وبين ممارسته لحياته الشخصية؟ وبكلمات أخرى: هل كان متصالحاً مع فكرته أم لا؟.

يقول المؤلفان في الملاحظة التحذيرية: (**إننا لسنا بصدد تقييم أخلاقي للتصرّفات، وجلّ اهتمامنا هو عرض حماقات الحكماء، كي لا تُقدّس ذكراهم بشكل محرج**). ومع موافقتي التامة على هذه الفكرة، إلا أنني أدرك تماماً أن ما من أحد سيقرأ هذا الكتاب إلا ويقيم محاكمة بينه وبين نفسه، ويتخّذ موقفاً تجاه هذا

الفيلسوف أو ذاك، بناءً على صلاحية تصرّفاته ومدى أخلاقيتها، أكثر مما يقيّم الأفكار التي يطرحها. وسيبدو في وعيه أو في لاوعيه، مُعجباً حيناً ومشمئزاً أحياناً، وستظهر أحكامه على ملامح وجهه.

كيف يواجه القارئ في مجتمعنا أو في المجتمعات الأخرى فكرة وجود مفكر أو فيلسوف يعمل على تطوير الفكر الإنساني، ويعيش على حساب الأثرياء ليتابع حياته؟ كيف يتقبل فيلسوفاً آخر، يقيم علاقة مثلية مع شخص أو أكثر، أو يكون ثنائي الجنس؟ وآخر يلقي بأطفاله إلى دور الأيتام لأنه غير قادر على تحمل المسؤولية كأب؟ مهما كان مستوى الانفتاح الفكري لدى الإنسان، لا بدّ أن يستند في النهاية إلى ما زُرِع في عقله من قيم المجتمع وأخلاقه الذي عاش فيه، أو من خلال القيم والأخلاق الخاصة به، والتي شكّلها بنفسه عبر انفتاحه على مجتمعات أخرى، كونها ترتقي إلى صفة "المقدّس" في كلتا الحالتين.

ليس المهم من بحث كهذا أن نحاكم، ولا أن نتخذ قراراً بشأن هذا الفيلسوف أو ذاك، بل المهم هو إزالة القدسيّة عن أفكارنا وأخلاقياتنا، وجعلها منفتحة متجددة، قابلة للنقاش والتجديد، قابلة للبحث والأخذ والرد سواء استقرت في النهاية على النقطة التي انطلقت منها أم تحوّلت إلى نقطة أخرى. المهم أن لا ننزع الأفكار من سياقها لدى مناقشتها، أن نبحث عن الدوافع التي أدّت إلى هذا التصرّف أو ذاك، أن نعرف أنه ثمة آخر مختلف عنا، ومجتمع مختلف عن مجتمعنا، وعصر مختلف عن عصرنا.

ليس هناك من شخص معصوم، وليس هناك من "مثل أعلى" لا يشكّل عائقاً أمام الفكر المتحرر، وليس هناك من فكرة تصلح لكل زمان ومكان، وما الأفكار والقيم والأخلاقيات الثابتة إلا مستنقعات آسنة، وليس هناك من شيء ثابت في الحياة سوى حتمية التغيير.

لا قيمة لكتاب كهذا الكتاب إلا بقدر ما يحرّض فينا حبّ الاطلاع والمعرفة، ورغبة التنقيب في أعماق عقولنا، لنتخلّى عما هو عديم الفائدة ونفسح المجال لاحتمالات أخرى قد تكون مفيدة أو لا تكون، لكنها بكل تأكيد تبقيها على قيد الحياة.

أودّ في النهاية أن أتوجّه بجزيل الشكر للروائي والناقد نبيل سليمان، لإتاحته – كمستشار لدار الحوار– الفرصة أمامي لترجمة هذا الكتاب الشيّق، ولسعيه الدائم لنشر كل ما هو مفيد في مجالات الأدب والفكر والفلسفة والرواية. كما أتوجّه بالشكر الجزيل لكل من الدكتورة رنا بشور والدكتور أحمد رمضان لما قدّماه من عون لي في هذا الكتاب، متمنياً أن أكون موفقاً بإيصال أفكاره للقراء الأعزاء.

متيّم الضايع

المقدمة

"كل فلسفة عظيمة باعتراف مؤسسها، هي نوع من الذكريات الشخصية السريّة واللاإرادية".

فريدريك نيتشه

"من يفكر بشكل عظيم، يجب أن يخطئ بشكل عظيم".

مارتن هيدجر.

علٍى مدى ألفين وخمسمئة عام، واجه الفلاسفة سؤالاً مكرراً: ما هي الصلة بين تفكيرهم العقلاني وما يعيشون به خارج قاعة المحاضرة؟ لقد صرّح سقراط، معلم أفلاطون، الذي يُعتَبرٍ تقليدياً، أعظم فيلسوف غربي، أن الحياة غير المختبرة فكرياً لا تستحق أن تُعاش، وأمضى حياته تائهاً في طرقات أثينا محاولاً حث الأثينيين على اختبار حياتهم وتغييرها. لكن مثاله

ليس مثالاً مشجعاً. لقد سئم الأثينيون في النهاية من استفساراته المستمرة، وصوتوا على قتله في العام 399 قبل الميلاد.

تراجع الفلاسفة إلى الأكاديمية بقيادة أفلاطون، خائفين من مصير سقراط. أسس أفلاطون أول أكاديمية، وتعمّد وجودها خارج المدينة، وعزم على عدم التدخل في السياسة المعاصرة. ناقش أفلاطون في كتابه "الجمهورية" – مخططه لبناء المجتمع الفاضل – أن الفلاسفة فقط هم المناسبون للحكم. وبما أنهم وحدهم العقلانيون تماماً في المجتمع، فهم قادرون على قمع شغفهم (المنحطّ) وإدراك ما هو جيد وحقيقي. كانت الجمهورية معدّة لتكون مثالية، لا لتوجد على الأرض، لكن أفلاطون لم يستطع مقاومة العودة إلى السياسة. لقد قام بما لا يقلّ عن ثلاث زيارات إلى بلاط ديونيسوس – طاغية سيراكوس – في صقلّية، آملاً أن يوقظ شرارة الفلسفة لدى ديونيسوس الثاني ابن ديونيسوس، وكانت النتائج كارثية. أصبح ديونيسوس الثاني طاغية لديه ذرائع فلسفية ومن ثم فقد عرشه، وكان أحد أهم أسباب حدوث ذلك، عدم قدرته على السيطرة على شهواته الجنسية، (كان والده قد حذّره ببصيرته الحادّة، من التورّط مع نساء الرجال الآخرين، لكن عبثاً). بالكاد استطاع أفلاطون النجاة بحياته بينما تم اجتياح صقلية ذاتها بحروب أهلية متكررة. بعد ذلك، بقي الفلاسفة بعيدين عن السياسة لزمن طويل، إلا بعض الاستثناءات الهزلية مثل حالة ديميتريوس من فاليروم – دكتاتور أثينا لفترة وجيزة – الذي عزز فكرة عدم إمكانية وجود الفلسفة والسياسة معاً.

ليس الفلاسفة حكماء ولا قديسين يعيشون حياة الفضيلة التي لا تشوبها شائبة. وهم لم يدّعوا ذلك. إن جدالاتهم الفكرية وعيوبهم الفردية لا تُبطِل استنتاجاتهم. لكن، إن لم

يكن الفلاسفة كهنة ولا فنانين من أي نوع كان، فيمكنهم الادعاء بالفصل التام ما بين حياتهم وعملهم، وادعاء كهذا من أي فيلسوف، قد يلقى جدلاً واسعاً. يستطيع الفنانون والموسيقيون والشعراء أن يتصرفوا بشكل سيئ وشنيع ويحافظوا في الوقت نفسه على قبولهم كشعراء وموسيقيين ورسامين عظام. في الواقع، غالباً ما تعزز التصرّفات السيئة سمعتهم بعد الوفاة. لقد كانت شهرة (اللورد بايرون) ستكون أقلّ بكثير لو أنه بقي متزوجاً بسعادة، ويذهب إلى سريره باكراً بكل رصانة، بدلاً من حياة التشرّد التي مارسها. ولو أن بيكاسو، أخلص لزوجته الأولى، لكان سيسيء إلى سمعته وفنّه، والأمر ذاته بالنسبة لفاغنر.... لقد أغوى فاغنر زوجات أصدقائه وزوجات المحسنين إليه، متطفلاً على أي شخص سوف يعيله في حياة الترف والملذات التي يعيشها. ومن ضمن ذلك: المعجبون اليهود، على الرغم من كونه رائداً في معاداة الساميّة المسعورة. ومع ذلك، ألف موسيقى تجعله "ربما من أعظم العباقرة الذين عاشوا" بحسب رأي (دبليو. إتش. أودين)، تلك الموسيقى التي أحبها وعزفها حتى الموسيقيين اليهود من (ماهلر) إلى (دانيال بارن بويم)، رغم كل التاريخ اللاحق.

لكننا نتوقع من الفلاسفة سلوكاً أكثر نبلاً وحكمة، ليس بشكل غير منطقي، بل أن يُظهروا على الأقل، بعض محاولات للعيش وفق مُثُلهم. إن كلمة "فيلسوف" تعني "محب الحكمة"، وهي تدلّ على ثقافة عالية، وسعي راق ونزيه للفضيلة أو الحقيقة مهما كانت. لقد عاش العديد منهم وفق هذه الفكرة، ففي بلاد الإغريق القديمة، ظهر الفيلسوف (زينون من مدينة سيتيوم) الزواقي الأول، كما ظهر الفيلسوف أبيقور مؤسس الأبيقورية، وكانا قطبين متعاكسين فكرياً لكنهما عاشا حياة

تضجّ بالفضيلة على نحو متماثل. وكان سبينوزا في هولندا القرن السابع عشر، وكانط في ألمانيا القرن الثامن عشر، رجلين مستقيمين بشكل واضح. كان سبينوزا ناسكاً نوعاً ما، وأُجبر على نوع من العزلة بسبب وجهات نظره المهرطقة الجريئة التي أغضبت كل أطياف الآراء المعاصرة. وكان كانط، الذي كان يعيش في عصر أخف وطأة، كياناً اجتماعياً ممتازاً، يستقبل بانتظام، مجموعة صغيرة من الأصدقاء والزملاء. لقد تحاشى الرجلان إغواء الدخول في الحياة العامة بحكمة بالغة، وعلى الرغم من أنه قد عُرِضَ عليهما مناصب لائقة في الجامعة، فقد فضّلا الثناء أو الانتقَاد من بعض الأقران والطلاب على الإطراء والمديح من الأقوياء — أو بمصطلحات هذه الأيام (رفضا تملق وسائل الإعلام).

لكن آخرين — وكانوا أحياناً أكثر شهرة — قد استسلموا. لقد جذبهم حبّ السلطة أو الشهرة أو الجنس — والثلاثة معاً أحياناً، على الرغم من أنه نادراً ما تم حساب المال بينهم — من برجهم العادي في محاولة لتوظيف تألّقهم الفكري في عالم لا يحترم أي شيء أكاديمي. لقد أساؤوا التصرّف في بعض الأحيان، وبشكل مؤسف، يكون الفلاسفة كالآلهة في المجال الفكري، ويمكن أن يكونوا أطفالاً يدعون للأسف، في عالم المال والسلطة. ربما تكون الحالة الأسوأ والأكثر مدعاة للحزن، هي حالة مارتن هيدجر، الذي ترك صومعته في بلاد فوريست عام 1933 ليصبح الداعية السيئ السمعة للنظام النازي الجديد. لقد جعلته حماسته المحبّة للاستبداد، بموقف سيئ حتى مع النازيين أنفسهم، الذين كانوا مثل معظم الدكتاتوريات، يرغبون بالوسطيين المذعنين، وليس بالعباقرة المتعالين والغريبي الأطوار. في الواقع، عانى هيدجر مهنياً من موقعه الذي بقي

فيه لفترة وجيزة كرئيس جامعة فريبيرغ في العام 1933، لكنه لم يعترف أبداً بخطئه خلال الإحدى والثلاثين سنة التالية لسقوط الرايخ الثالث. وفي التطرّف السياسي الآخر، أصبح جان بول سارتر، القائد الوجودي للكثيرين في أواسط القرن العشرين، وكان لعدة سنوات، المدافع عن الشيوعية السوفياتية، ودام ذلك لفترة طويلة حتى بعد اكتشاف وجود معسكرات الاعتقال السيئة السمعة.

ليست السياسة هي القطاع الوحيد في الحياة، الذي يتعارض مع الفلسفة. شعر بيرتراند راسل، بعد إكماله مبدأه العظيم في الرياضيات بالمشاركة مع ألفرد نورث وايت هيد في عام 1913، بأنه مخول رسمياً للحديث عن أصغر المشاكل الإنسانية، وخاصة الزواج وإنجاب الأطفال والعلاقات الجنسية. كتب بغزارة – بمعدل 2000 كلمة يومياً – واضعاً القانون كما يفسره الإنسان المتطور في أوائل القرن العشرين. لكن حياته الزوجية الخاصة لم تكن مثالية أبداً: ثلاث حالات طلاق قاسية، تركت خلفها قلوباً منكسرة وعائلات مفككة، وأثرت على بعض أحفاده بشكل كارثي جداً، لدرجة جعلت حياتهم مدمرة بالمعنى الحرفي. لقد أكسبته مغازلاته المبالغ فيها لقب (الخليع الفلسفي، بيرتي القذر). وكانت حتى وجهات نظره السياسية شاذة جداً. إذ عُرِفَ عنه قيادته للحملات المناهضة للقنابل الذرية، وبفترة مبكرَة جداً، كمعارض متحمّس للحرب العالمية الأولى، لكن لم يعرف الكثيرون عنه أنه كان محرّضاً على الحرب النووية الاستباقية ضد الاتحاد السوفياتي في الأربعينات (من القرن العشرين)، في الوقت الذي لم يكن يملك فيه الاتحاد السوفياتي قنابل نووية.

الآخرون، ودون اهتمام بالسياسة والمناصب العامّة، طرحوا معتقدات تبدو مُقنعة بشكل سليم على الورق، وكأنهم يعرضون رؤى جديدة عن العالم. يميل أتباعم نصف المفتونين، إلى تقديسهم كحكماء أو رسل معصومين. لقد هيمن لودفيغ وتغنشتاين على الحياة الفلسفية في كامبريدج في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي (بسلطته الكاريزمية) وتأثر أتباعه به لدرجة قلدوه فيها بطريقة لباسه. كانت حياة وتغنشتاين الخاصة متقشفة عن عمد. تخلّى عن الثروة الهائلة التي ورثها، متحاشياً حتى وسائل الراحة المتواضعة لأكاديمي، من أجل حياة الزهد شبه الرهبانية. ويمكن الدفاع عن موقف كهذا، فقد رفض العديد من الصوفيين والكهنة العلاقات الشخصية والثروة من أجل التركيز على وجهات نظرهم، ويبدو واضحاً بحسب مزاج وتغنشتاين، أنه يصنّف بين أعظم الزاهدين في التاريخ. لكن في نظام رهباني حقيقي، يتم السيطرة على عملية جلد الذات وتحويلها باتجاه مجد الله الأعظم، وليس مجد الراهب. بالنسبة لوتغنشتاين – الذي حاول الدخول مرة إلى سلك الرهبنة لكنه رُفِضَ كشخص غير مناسب – أدى زهد كهذا في العديد من الطرق إلى حياة شخصية عقيمة وقاحلة. لقد نشأ التعصّب، والعنف الجسدي أحياناً، الذي شرح من خلاله فكره بشكل دقيق وعميق، من حياته الداخليّة المعوقة. وبعيداً عن **"تعليم الذبابة كيفة الخروج من الزجاجة"** كما ادعى من خلال إحدى استعاراته التي لا تُضاهى، فقد دمّر حياة العديد من تلاميذه، وبشكل مفاجئ أصبح بعضٌ منهم فلاسفة بعد التعرّض للتنمّر والإهانة من مثالهم الأعلى.

يفضّل الفلاسفة تجاهل أي علاقة ما بين الحياة والعمل إن أمكن ذلك، أو إنكارها إن كان التجاهل مستحيلاً. وبقدر ما ركّزت الفلسفة على المشاكل المعرفية (المتعلقة بما نعرفه وكيف نعرفه) والمنطق واللغويات فقد كان بإمكانها البقاء أكاديمية بأمان. لكن، مع التركيز حديثاً على الأخلاقيات، برزت مرة أخرى من عزلتها. وفي الوقت نفسه، تُظهر المسلسلات التلفزيونية والكتب الفلسفة الحالية على شكل إرشادات مساعدة ذاتية، تكاد تكون بتنوع (تقنيات بيلاطيس) أو كتاب إرشادات الحمية. لكن الفلسفة لا يمكن مقارنتها مع هذه الأمور، لكونها مجالاً غامضاً محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للغافلين، وليست عبارة عن حساء الدجاج المغذي للروح والعقل.

على الأرجح، ليس هناك فيلسوف أشدّ خطراً على الغافلين من فريدريك نيتشه. بالتأكيد ليس هناك من فيلسوف شائع يتمتع بشعبية أكثر منه في هذه الأيام. تطغى سمعته الآن على سمعة كارل ماركس وجميع المفكرين الآخرين، حيث تتدفق من المطابع كتب عن حياته وأعماله. إنه عالم النفس بقدر ما هو فيلسوف، هو بشكل مؤكد، لا يبني أنظمة لكنه يقول أقوالاً مأثورة، هذا البهلوان الفكري الذي يسير على حبل مشدود (إن أردنا استعارة صورة مفضلة)، كان يتباهى بقلب طاولات القانون. وفوق كل هذا، أصرّ على كونه (يقول نعم للحياة)، ويُنكر ناكري الحياة، ليس التقليد اليهودي المسيحي فقط بل الأفلاطوني والبوذي ومعظم التقاليد الأخرى وغالباً ما يفعل ذلك بأكثر الطرق الممكن تخيلها وحشية، ممجداً طغاة مثل (سيزار بورجيا)، الذي جسّد الإله الأرستقراطي الخارق. لقد كان

نيتشه يهاجم عمداً مسيحيته الموروثة، وتابع هذا الهجوم بتسفيه وجهات النظر المسيحية الكارثية السلبية حول الجنس.

تم اتهام نيتشه بالعديد من الأمور، بما فيها كونه "عرّاب الفاشية"، الاتهام الذي طفا على السطح بشكل متقطع. من الصعب جداً اتهام نيتشه بالفسق، لأن حياته الجنسية الخاصة كانت معدومة تقريباً. وعلاقته الجنسية الوحيدة شبه الجدّية مع (لو سالومي) – التي لم تتجاوز جسدياً، القبلة على الخد- انتهت برفض مذلّ. لو أنه لم يكن قد مات على الأرجح بسبب السفلس، لكان من الممكن الافتراض بأنه قد مات بكراً.

يقول ديكارت: " تستطيع النفوس العظيمة القيام بأعظم الرذائل كما تستطيع القيام بأعظم الفضائل". يجب أن يدرك أولئك الذين يسعون في الفلسفة أنه، على الرغم من أن الفلسفة يمكنها أن تمنح الاستنارة، يمكنها أيضاً أن تضلل وتخدع. إن تصرفات الفلاسفة الخاصة السيئة حيناً والمحزنة حيناً آخر، والمجنونة في أحيان أخرى، ربما لا تكون تماماً "مجموعة من الذكريات الشخصية اللاإرادية" لكنها من النادر أن تكون مفصولة تماماً عن تفكيرهم. إن حياتهم تؤثر وتساهم بتشكيل أفكارهم بشكل مباشر أحياناً.

لذا علينا أن نتمعّن بالطريقة التي عاش فيها أعظم الفلاسفة حياتهم – وقد كانوا فلاسفة عظماء فعلا – وكيف كانت خياراتهم في الحياة مطابقة أو معارضة لتفكيرهم، قبل الأخذ بنصيحتهم حول كيفية عيشنا لحياتنا الخاصة.

1/ جان جاك روسو (1712 - 1778):

الفيلسوف كضحية

"خلق الله كل شيء كاملاً، وتدخّل الإنسان به فأصبح خراباً".

جان جاك روسو

كتاب (إميل - تربية الطفل من المهد إلى الرشد).

"ولد الإنسان حراً، وهو في كل مكان مكبّل بالأغلال"[1] بهذه الدعوة السياسية والثقافية والاجتماعية للثورة، أصبح جان جاك روسو القديس الراعي الشفيع لكلٍ من فرنسا والثورات

[1] من كتاب (العقد الاجتماعي) أو مبادئ الحقوق السياسية - لجان جاك روسو. المترجم.

الرومانسية. وقد أصبح تأثير روسو هائلاً منذ وفاته، بسبب رفضه للمجتمع الفاسد، ومفهومه عن "الإرادة العامة" التي كانت تظهر في تجمعات ضخمة وبشكل باطني، كما أصبح مبجّلاً من قِبَل اليعاقبة المتطرفين من أمثال (روبسبير)[1]. كان بطلاً لا جدال حوله بالنسبة لأولئك الذين فرحوا بالدكتاتوريات الراديكالية المتطرفة من اليمين أو اليسار. أما بالنسبة للآخرين، سواءا أكانوا ليبراليين، محافظين أم مشككين، فقد كان ملعوناً. كان الأمر الأكثر أهمية والأقل إثارة للجدل، هو إصراره على فكرة الإنسانية الطبيعية الخيّرة، قبل فسادها من قِبَل الحضارة. وقد كان لهذا تأثير ساحق، وبشكل خاص على مواقف تتعلق بتعليم الأطفال وتربيتهم، بالإضافة إلى الأفكار الأكثر شمولاً، المتعلقة بالمسؤولية الفردية. كل مدرس يتم حضّه في أيامنا هذه، على أن يدع الأطفال يعبرون عن أنفسهم بحرية تامة، بدلاً من نقل المعرفة والأفكار إليهم، يختبر بشكل مباشر، التأثير المستمرّ لأفكار روسو. وبشكل مشابه، كل مجرم يقول إنه ضحية المجتمع، بدلا من تحمّل المسؤولية الكاملة عن جريمته التي ارتكبها، يردد دون وعي منه، وجهة نظر رورسو الخاصة حول أن الفرد فاضل بطبيعته، وأن البيئة المحيطة الخاطئة فقط هي من دفعته لارتكاب الفعل الخاطئ.

لكن روسو الإنسان، الثوري المحبّ للطبيعة، الذي رفض معظم حضارة القرن الثامن عشر وما سبقها، وتاق للعودة إلى الحالة الطبيعة، عاش حياته في كثير من الأحيان، بعيداً عن الطبيعية البسيطة البطولية. ليس هناك من داع للتنقيب عن القذارة في

---

[1] روبسبير: هو فرانسوا ماري دي روبسبير، المحامي والسياسي الفرنسي وأحد الشخصيات الأكثر شهرة والأكثر تأثيراً في الثورة الفرنسية. عاش بين عامي (1756 – 1794). المترجم.

حياته، لأنه أبقى الكثير منها مكشوفاً في كتابه "اعترافات"، التحفة الأدبية المليئة بالتبريرات، والشفقة على الذات، والتي لم يسبق لها مثيل في صراحتها الظاهرة، لكنها مع ذلك، أقل صدقاً مما ادعى. بالنسبة للشخص الذي رفض بشكل صريح، عدم المساواة في عصره، تبين أنه كان ماهراً بالعيش على نفقة الأغنياء وأصحاب النفوذ، على الرغم من أنه (عضّ) بشكل متكرر، الأيدي الأرستقراطية التي أطعمته ودللته، وكنّ نساءً في أغلب الأحيان. والأسوأ من ذلك — يمكن تبرير بعض الأمور لرجل بدأ حياته بمستوى بسيط من التميّز — أن هذا الفيلسوف الذي وعظ بالأهمية الحيوية (للتربية الصالحة للأطفال، وللأبوة والأمومة الجيدة)، تخلّى بقسوة عن أطفاله الخمسة لدار الأيتام، حيث مات معظمهم بسرعة كما كان يحدث غالباً. لقد كان هذا، حتى بمقاييس القرن الثامن عشر، تصرّفاً منافقاً وعديم الرحمة بشكل لا يوصف.

أصبح روسو بعد وفاته بمدة قصيرة، مبجّلاً عالمياً، حتى بالنسبة للأرستقراطيين أنفسهم. وكان تبجيله بالنسبة لمساهمته في الفلسفة الرسمية أقل بكثير، إذا ما قُورن بتبجيله لأعماله الروائية ذات التأثير الهائل. لقد مزج في صفحاتها اللاهثة المتوهّجة غالباً، الفلسفة والحسيّة والعاطفية بطريقة "رومانسية" عشقها العصر. واستمرت شهرته كمثاليّ اجتماعي وسياسي، لتنتشر في القرن التاسع عشر. إن روسو الذي كان رسول العودة إلى الطبيعة، ورفض النفاق وقيود الحضارة، كان أبا الحركة الرومانسية التي لا تزال حتى يومنا هذا من أكثر الحركات الفنية والفكرية نفوذاً. كل شخص يشتري عبوة ماء عليها لصاقة مكتوب فيها: "مياه معدنية طبيعية"، يقدم دون قصد منه، تحية إجلال لمعتقد روسو القائم على أن الطبيعي مفضّل على الاصطناعي، ولتفكيره المشوش غالباً، الذي يمكنه أن يصل إلى مستوى أعلى من العاطفية السامية.

(كيف يمكن أن يكون الماء غير طبيعي؟ يتساءل مشككون). لكن ربما كان تأثيره الأعظم، هوٍ في الطريقة التي أصبحنا نمجّد فيها محنة الضحيّة البريئة تماما، إن كانت الضحية فصيحة بشكل مثير للدهشة. هذا هو الدور الذي لعبه روسو بشكل رائع خلال حياته. لا تزال الثورة التي أنشأها في الإحساس، تعيش معنا بشكل كبير.

وُلِدَ جان جاك روسو في مدينة جنيف، في 28 حزيران من عام 1712. كانت جنيف، رغم صغرها وعدد سكانها الأقل من 10.000 نسمة، مدينة مستقلة مرتبطة بسويسرا الكونفدرالية، تفخر بتقاليدها الكالفينية الجمهورية المتقشفة، وهو فخر ورثه روسو عنها. ومع أنها في القرن الثامن عشر، كانت محكومة من زمرة صغيرةٍ من مواطنيها الأغنياء، فقد كانت لا تزال مدينة حرّة نسبياً إذا ما تمت مقارنتها بالملكيات المطلقة لجيرانهاٍ في فرنسا وسردينيا (بيدمونت — سافوي). لقد ظل روسو دائماً، دخيلاً بشكل أساسي على فرنسا، ومرتاباً بمدنها الكبيرة ومجتمعها العالمي، ومشاركاً أفلاطون توقه للبساطة القريبة من حالة الاكتفاء الذاتي.

كانت والدته من عائلة ذكية اجتماعياً، لكنها توفيت في وقت مبكر جداً، بعد ولادته مباشرة، وتولت عمته العناية به في مرحلة الطفولة. والده، صانع الساعات المبذّر، الذي كان يستكمل مصادر دخله من خلال دروس الرقص، فرّ من المدينة بعد شجار حدث معه، بدلاً من البقاء ومواجهة المحكمة. لقد ترك ابنه في عمر العاشرة، ليتولى عمه العناية به، وقد سلّمه الأخير بدوره للكاهن المحلي (القس لامبرسير وأخته) كي يتلقى تعليمه الأساسي. اكتشف روسو هناك، متعة تلقي العقاب بالضرب، من الآنسة لامبرسير، الجذّابة ذات السنوات

الثلاثين، واعترف لاحقاً أن تلك التجربة ساهمت في صياغة ذوقه الجنسي طوال حياته. قال لاحقاً: "**حتى بعد وصولي إلى سن الزواج، بقي هذا الذوق الغريب مستمراً بسوقي إلى حالة من الفسوق والجنون ... كنت أجد لذة رائعة في الجلوس تحت قدمي حبيبتي المتعجرفة، مطيعاً أوامرها، طالباً الغفران منها. كلما تأجج دمي بتأثير خيالاتي الحيّة، حصلت على مظهر العاشق الباكي**".

وجدت المازوشية التي سيطرت على حياة روسو كاملة، منفذاً وحيداً تقريباً لها، من خلال خيالات الاستمناء. ربما عبّرت عن حنين طفولي للاهتمام والطمأنينة التامين، نشأ من طفولته الخالية من الحبّ. وكما قال: "**على الرغم من ولادتي كرجل في بعض النواحي، بقيت لفترة طويلة ولازلت، طفلاً في العديد من النواحي الأخرى**". رغم أنه كان يستمتع دائماً بوجود نساء متجبرات، ويفضّل أن يكنّ أرستقراطيات، يصدرن له الأوامر، فهو لم يمارس الجلد، ولم يكن بالتأكيد منافساً للماركيز دي ساد، الذي كان يعتقد أن الإنسان فاسد وشرير بطبيعته، والذي قلبت وجهات نظره وجهات نظر روسو، ودمرتها لاحقاً. ولكن خارج غرفة النوم، آمن روسو دائماً، أن على النساء أن يبقين تابعات بحزم، كما كنّ في روما واليونان القديمة. ثمة اتهام وحيد لم يضطر إلى مواجهته، وهو معاملة النساء بمساواة سياسية واجتماعية.

عندما كان روسو طفلاً، قرأ عن الرومان والإغريق القدماء في كتاب (حيوات متوازية) الذي يعود لوالدته، وكان يتباهى بقوله: "**كنت رومانيا في عمر الثالثة عشرة**"، لكنه لاحقاً، قدّس إسبارطة، التي كانت "مجتمعاً مغلقاً" بدائياً ونموذجاً أصلياً. انتهت فترة دراسته عندما عمل متدرباً لدى نحات وهو

في الثالثة عشرة من عمره، كانت تلك الحياة الجديدة تفتقر للجاذبية، مما جعله يهرب من جنيف بعد ثلاث سنوات. وبحسب اعترافاته، فقد بدأ منفاه صدفة بشكل ما. ففي أحد أيام الآحاد، ولدى عودته متأخراً بعد يوم من التجوال في الريف، وجد أبواب المدينة مغلقة أمامه، فهام على وجهه ببساطة. كانت مملكة (بيدمونت – سلفوي) الكاثوليكية الأكثر ألقاً، تقع بعد حدود جنيف مباشرةً. من دون أي شعور بالألم، تحوّل روسو إلى الكاثوليكية آملاً بتحقيق موقع بين نبلاء سافوي. ووجد عوضاً عن ذلك، دعماً من السيدة (دي وارنس) الأرستقراطية السويسرية البروتستانتية سابقاً، التي تحرص على "تشجيع" الشباب الذكور المهتدين إلى الكاثوليكية. في تورين عاصمة بيدمونت، عمل روسو خادماً في بيت رجل نبيل. وهناك، سرق وشاحاً حريرا ورديا. كانت جريمة تافهة، لكن الملامة وقعت فيها على الخادمة الأخرى ماريون. أنكرت ماريون الجريمة بثبات وناشدت طبيعته البشرية، لكن عبثاً، فقد تمسّك باتهامه. في النهاية، طردهما صاحب العمل – المحتار في القضية –كليهما. اعترف وروسو لاحقاً: "**لم يكن الشر بعيداً عن أفكاري يوماً مثلما كان بعيداً في تلك اللحظة القاسية عندما اتهمت تلك الفتاة التعيسة**"، لكنه أوضح أن سبب المشكلة كان صداقته معها، لأنه ببساطة، وضع اللوم على الشخص الأول الذي خطر على باله تفادياً للإحراج. إن سرقات من هذا النوع ورفض الاعتراف بها، ناهيك عن عدم الشعور بالأسف على أخطاء لا جدال فيها، تصرفات استمرت طوال حياته.

بعدها، داعبت رأسه فكرة أن يصبح كاهناً، فدخل إلى معهد لاهوتي لفترة قصيرة، ثم تركه ليسجّل في جوقة المدرسة، شيء

أقرب بكثير إلى مواهبة الحقيقية. أعمال متفرقة أخرى من ضمنها أنه أصبح سكرتيرا لأرشمندريت محتال، ادعى جمع الصدقات لترميم القبر المقدس في أورشليم. لاحقاً أصبح (محظياً)[1] لسيدة غنية متظاهراً بأنه أحد النبلاء السكوتلنديين اليعاقبة. لكنه استقر في منزل المدام وارانس الواقع بين الجبال في تشامبيري، حيث استمتع بأجمل لحظات حياته مع تلك المرأة التي كان يناديها دائماً (أمي). وفي نهاية المطاف، عندما وصل إلى سن الحادية والعشرين، أدخلته فراشها، وعاش بعد ذلك راضياً مع تلك الأم البديلة الممتلئة الجسد. كان يقرأ بشراهة ويطوّر موهبته الموسيقية الأصيلة بشكل كبير، عندما لا يكون في خدمة راعيته. كان روسو مستعداً حتى ليتشارك السيدة وارنس مع خادمها العجوز، الذي ورث ملابسه بكل رضى بعد وفاته.

جاءت نهاية هذه الفترة الجميلة المطولة في العام 1742، عندما أصبح في الثلاثين من عمره، وسافر إلى باريس ليكوّن اسمه. بعد عام، وبفضل سيدة أرستقراطية أخرى، وجد نفسه في فينيسيا، كسكرتير للسفير الفرنسي السكّير الذي أهمل دفع الراتب له، لكنه زوّده بعاهرات من مستوى عال، وكنّ يأتين إليه بالجندول. كانت فينيسيا في تلك الأوقات تشتهر بمحظياتها وحلاوة الحياة عموماً، لكنها لم تأسره لوقت طويل، لرعبه من الإصابة بالسفلس. في إحدى المرات، جعلته زوليتا، إحدى العاهرات، ينفجر بالبكاء عندما كشفت أن لديها حلمة واحدة. انزعجت منه وأجابته بطريقة ذكية بشكل غريب: "جياني، توقف عن مطاردة النساء واذهب لدراسة الرياضيات بدلاً من ذلك!"

---

[1] الكلمة الإنكليزية هي (gigolo)، الشخص الذي يمارس الجنس مع امرأة مقابل المال أو تقديم خدمات معينة له. المترجم.

أخيراً، قرر المطالبة برواتبه المتأخرة من الحكومة في باريس في عام 1744، وأمل أيضاً أن يتم إنتاج الأوبرا التي كتبها هناك، وأن تُنشر الرواية المتضمنة الشرح الموسيقي باستخدام الأعداد لتشكيل النوتات، التي كان قد اخترعها للتو. لكنه لم ينجح بأي من هذه المشاريع — على الرغم من أنه حصل أخيرا، بعدٍ وقت متأخر جدا، على بعض رواتبه المستحقة — مما أثر سلباً على مشاعره تجاه فرنسا، وبشكل خاص نحو باريس. لكن، في العاصمة في عام 1745، قابل تيريز لوفاسير المرأة الوحيدة التي أقام معها علاقة طويلة الأمد، وإن تكن متقطعة. كانت تيريز حينها، شابّة في الثامنة عشرة من عمرها، تعمل في مغسلة الفندق الذي يقيم به، كانت تفتقر إلى كل أنواع الجاذبية الواضحة. وبحسب الصور الموجودة لها، كانت بشعة بشكل لا يمكن إنكاره، وأميّة بشكل ميئوس منه، لدرجة لا تستطيع فيها حتى قراءة الوقت في ساعة الحائط، كما كانت سيئة الخلق وغبية، باستثناء قدرتها على سلبه كل المال الذي لديه، وهو الأمر الذي كانت تحرّضها عليه والدتها المساوية لها بالبشاعة، لكنها أذكى قليلاً.

من الصعب معرفة سبب انجذاب روسو لها، إن استثنينا سمعتها الطيبة كطبّاخة ماهرة. ربما استطاع انعدام سحرها تحديداً أن يناشد حالته النفسية المازوشية، على الرغم من عدم وجود أي دليل يشير إلى أنها كانت تصفعه. الأكثر رجحاناً هو أنها خففت من شعوره العميق بالدونية الاجتماعية. وقد كان بمقدوره الاعتماد على شعوره بالتفوّق عليها، مهما حدث معه في هذا العالم الواسع. كان يعاملها باستمرار كخادمة له، كما اعتبرها ضيوفه كذلك، كانت الخادمة التي سخر منها مراراً أمام الناس. ورغم أنهما لم يتزوجا قانونياً، فقد أنجبا بسرعة

خمسة أطفال، وأصرّ روسو على التخلي عنهم جميعاً. اعترف بعد سنوات لاحقة: **"نتج عن تلك اللقاءات الغرامية خمسة أطفال، تم وضعهم جميعاً في مستشفى اللقطاء دون أن أفكر بهم لاحقاً، إذ لم أحتفظ حتى بسجلات تواريخ ميلادهم".** لقد برر تصرفه بادعائه عدم القدرة على منحهم العناية الأبوية التي يستحقونها، وأنهم سيكونون بحال أفضل في مكان آخر. لكنه رفض أيضاً عرضاً من معجبين أغنياء من أمثال المدام ديبيناي ودوقة لوكسمبورغ، لوضعهم في دور حضانة معلناً بالارتياب المرضي الحقيقي الذي يعاني منه: **"أنا متأكد من أن هؤلاء الأطفال، كانوا سيكبرون على كراهية والديهما، وربما خيانتهما".**

كان يكسب لقمة عيشه خلال السنوات القليلة التالية، من نسخ الموسيقى وكتابة المقالات عنها وعن الاقتصاد السياسي، (كان قد درس هذين الموضوعين بطريقة التعلّم الذاتي)، من أجل الموسوعة الجديدة. أشرف على هذا المشروع دينس ديدرو وهو ريفي بسيط مثل روسو، يشق طريقه في باريس. أصبحت الموسوعة، التي لم تكن بشكل أساسي سوى مشروع ترجمة لموسوعة "أفرام تشامبر"، إحدى المعالم الفكرية للقرن الثامن عشر، وتزاحمت في مجلداتها الأربعة والثلاثين، أفكار التنوير الرئيسة عن العلم والمجتمع والسياسة بالإضافة إلى كامل حياة الإنسان. لكن راديكالية هذه الموسوعة في النهاية، جعلتها غير مرغوبة بالنسبة للحكومة الفرنسية التي حظرتها، حيث تمت طباعة بعض المجلدات اللاحقة بسرية تامة. وواجه المساهمون تهديدات متقطعة بالسجن — وتم اعتقال ديدرو نفسه في العام 1749 بسبب مهاجمته الحجج التقليدية حول وجود الله — على الرغم من ذلك، تم تخفيف تلك التهديدات من قِبَل

متعاطفين سريين من قلب النظام القديم. لقد تعرّف روسو من خلال ديدرو على (الفلاسفة غير الرسميين philosophes)[1] آخرين من أمثال فولتير، جون دالمبير، وهما أيضاً مساهمان في الموسوعة. لكن روسو نادراً ما كان مرتاحاً بالكامل في محيط كهذا. وهو لم يشاركهم مطلقاً بمعتقدهم المركزي الذي يقوم على أن الإنسانية في طريقها الواسع نحو الكمال، إن تم إبطال الخرافات والقيود القديمة — وبشكل خاص الدينية والسياسية منها — بروح التحقيق العقلاني. لقد كان أيضاً مدركاً لحدوده الفكرية في هذا المحيط البارز، على الرغم من قدرته على أن يسحر وينال إعجاب الجمهور الراقي عندما يرغب بذلك.

أتت الشهرة بشكل غير متوقع في العام 1750. عندما دخل في منافسة وضعتها أكاديمية ديجون التي سألت: "هل لترميم الفنون والعلوم تأثير يعمل على تنقية الأخلاق؟" كانت الإجابة المتوقعة هي "نعم"، ربما مع المؤهلات. لكنه أجاب بأصالة صادمة ووقحة: "لا!" فازت محاضرته الأولى بعنوان: "محاضرة حول العلوم والفنون" بالجائزة الأولى بسبب نثره الجميل — حيث كان روسو كاتباً رائعاً — وبسبب محتواها المتمرّد على الأفكار التقليدية. استمرّ روسو بالقول إن تقدم الحضارة دمّر فضيلة الإنسان الأساسية، كما أن "التقدم"، عبر خلق حاجات ومتطلبات زائفة مثل (الطباعة والسكر وأساس المنزل)، قد استعبد البشرية ولم يحررها. وبعيداً عن تأييده لنواة التنوير المؤمنة بالمنطق، رأى أن التطوّر الحضاري، يدمّر

---

[1] Philosophes: تشير الكلمة إلى الفلاسفة غير الرسميين، أو الأشخاص المثقفين والأدباء والناشطين السياسيين، وهي تختلف عن كلمة philosopher التي تعني الفيلسوف. سترد هذه الكلمة مرات أخرى حيث ترجمتها "بالفلاسفة غير الرسميين". المترجم.

براءتنا الأصلية. لم تكن حججه حول البراءة الطبيعية أصيلة بشكل كليّ. آخرون، ولا سيما ديدرو، كانوا قد اقترحوا سلفاً أنه، وفي دولة طبيعية بشكل حقيقي، سيشعر الناس بأنهم غير مجبرين على حبّ جيرانهم. لقد هاجموا المسيحية التقليدية التي تعتبر الإنسانية ملوثة بالخطيئة الأصلية ولا يمكن استعادة النقاء إلا من خلال نعمة الله. على النقيض من ذلك، يرى (الفلاسفة غير الرسميين) أن الكائن البشري جيد بشكل جوهري ومن الممكن أن يكون حراً. إن حبّ الإنسان الحديث لذاته، وكبرياءه الذي يشجعه مجتمع يتنافس فيه كل شخص مع الآخرين، ويحاكمهم حسب الحالة الاجتماعية والثروة بدلاً من قيمته الحقيقية، يتناقض مع (الاهتمام بالذات)، وهو الشعور الطبيعي الأساسي للمحافظة على الذات الذي يمكن له أن يسير مع التعاطف أو الشفقة على الآخرين. إن خطأ الحضارة الأساسي بالنسبة لروسو، كان بأنها قد حوّلت الاهتمام البريء بالنفس إلى حب الذات التنافسي الذي يقسم المجتمع.

شارك روسو بشغف، وساعد على نشر الإعجاب المتنامي بالنبيل الهمجي في القرن الثامن عشر، يمكن العثور على هذا النموذج من الفضيلة البدائية، في مكان ما بعيد بالمسافة والزمن، عن الحاضر الفاسد. لقد كتب بحالة من النشوة في حاشية المحاضرة: "**أنا لا أجرؤ على الكلام عن تلك الأمم السعيدة التي لا تعرف حتى أسماء العديد من الرذائل التي نجد صعوبة في كبتها: الهمجيون الأمريكيون، الذين يفضل مونتين حكومتهم الطبيعية البسيطة..... ليس فقط على قوانين أفلاطون بل على أعظم رؤية كاملة لحكومة يمكن لفلسفة أن تقترحها!**" لكن مع وجود بقايا من الواقعية، فإنه لم يقترح أبداً أن على أوربيي القرن

الثامن عشر أن يعودوا بشكل جماعي إلى الغابة العذراء. وبدلاً من ذلك، نظر إلى الدولة المدنية في العالم القديم، وخاصة إلى إسبارطة، **"جمهورية أشباه الآلهة أكثر منها جمهورية للبشر......... إنها الدليل الأبدي على غرور العلم الفارغ، أثناء دخول الرذائل إلى أثينا تحت ستار الفنون الجيدة"**. وأشاد أيضاً بروما القديمة، قبل أن تفسد بسبب " الإغريقيين الدهاة المغوين". إن هذه الجمهوريات البطولية التي استحسنها روسو، ستلهم الثورة الفرنسية لاحقاً.

على الرغم من إعجابه المعلن بجمهوريات متقشفة كهذه، كان لا يزال يأمل بتقدير رسمي ومنصب في بلاط لويس الخامس عشر المعروف بفخامته وخلاعته، والذي كانت تحكمه حينها السيدة بومبادور، الأكثر ذكاءً وسحراً بين العشيقات الملكيات. في العام 1752 تم عرض أوبرا (عرّاف القرية) التي ألّفها روسو، وعُرضَت بحضور الملك في ساحة (فونتين بلو) في باريس. في تلك الأثناء، كان ما يسمى (حرب الأفكار الموسيقية) مستعراً بين دعاة الأوبرا الفرنسية التقليدية الفاخرة التي يقودها العجوز جون فيليب رامو، والأوبراليين الإيطاليين الذين يحضّون على نهج أكثر طبيعية وحيوية. وقد وقف روسو إلى جانب الإيطاليين، وهاجم رامو بوحشية عبر رسالة مفتوحة في عام 1753. ومع أن لويس الخامس عشر لم يستطع التبرؤ من المدرسة الفرنسية القومية، فقد فضّل شخصياً النمط الإيطالي وعرض على روسو منحة مادية.

رفض روسو الحضور وقبول المنحة، بسبب الكبرياء أو الإحراج الاجتماعي، وقال لاحقاً إن السبب لم يكن الإحراج من الحضور الملكي، بل وجود ذاك الخادم المتعجرف. لكنه كان يعاني من مشاكل متكررة في المثانة، حيث تفرض عليه الذهاب إلى دورة

المياه كل نصف ساعة، مما لا يبدو مثالياً في أفخم بلاط ملكي في أوروبا. وعلى الرغم من أنه تخلّى عن أية محاولات ليصبح مؤلفاً موسيقياً للبلاط الملكي، فقد قال لاحقاً، كريستوف غلوك، أفضل مؤدي أوبرا في القرن الثامن عشر: "كل ما حاولت إنجازه..... هو نوع من عمل كان سيؤلفه روسو لو أنه لم ينبذ التأليف الموسيقي من أجل تأليف الكتب".

كانت مهنة روسو كمثقف ثوري، على النقيض من ذلك، تنطلق في البلد الذي بجّل المثقفين دوماً. وبينما بيّن أنه يفضّل العيش على ما يجنيه من كتاباته، على أن يتم الإنفاق عليه في فخامة البلاط الملكي، فإن مسرحيته الوحيدة (نرسيس) فشلت فشلاً ذريعاً. لقد حوّل هذه المسرحية أيضاً إلى أوبرا، وكانت تحتوي على هجوم على الفنون والعلوم والآداب، رغم أنه كان مشاركاً فيها كلها. كان يكسب القليل من المال من خلال نسخ نوتات موسيقية (عشرة سو للنوتة)، أو من خلال الكتابة عن الموسيقى من أجل الموسوعة. وسرعان ما وجد من خلال مزاولته للمهنة، أرباب عمل أغنياء بين البرجوازيين الكبار والنبلاء الفرنسيين. وبما أنه اعتبر دائماً أن الامتنان يتعارض مع الصداقة الحقيقية، فقد اهتم كثيرا بألا يُظهر شيئاً منه. كما كانت آراؤه عن الصداقة غير اعتيادية أيضاً، لأنه كان ينظر إلى كل علاقة حسب الأحاسيس المتعة التي تمنحها له فقط، مهملاً أية مطالبات بالتزامات متبادلة يتم توقعها منه. ولئن كان قد رفض الدعم العلني — باستثناء السكن المجاني — فقد احتفظت تيريز بالمال الذي كان يمنحه المعجبون به سراً. وأثناء مشاركته شقة صغيرة في العليّة مع تيريز ووالدتها، استمتع بكونه محتفى به في الصالونات الباريسية، وفي المراكز الأكثر إثارة في العالم، للنقاشات الأدبية والعلمية والفنية.

في العام 1755 نشر مقالاً طويلاً بعنوان: "محاضرة عن الاقتصاد السياسي" في الموسوعة، ومحاضرة ثانية عن المساواة بين البشر، وهي محاولة أخرى لنيل جائزة. في هذه المحاضرة تخيّل الناس البدائيين يعيشون حياة العزلة، لكنهم لم يكونوا "منعزلين وفقراء وسيئين ومتوحشين وقصيري القامة" كما وصفهم فيلسوف القرن السابع عشر الإنكليزي توماس هوبز. وبدلاً من ذلك، جادل روسو بشكل لا يُصدّق، بأن البدائيين كانوا كائنات اجتماعية أصلاً، يلتقي الرجال والنساء مصادفة في الغابات من أجل التزاوج، وتنجب النساء الأطفال ويعتنين بهم وحدهنّ. وبينما هو يستعرض تطوّر الإنسان من براءة المساواة المبكّرة إلى عصره، عصر اللامساواة بإفراط، لطّف قليلاً حججه الأكثر بدائية، معترفاً أنه ليس من الضروري أن تُفسد الفنون والعلوم دوماً، لكنها تفعل هذا الآن، بسبب عدم المساواة المنحطّة في هذا العصر، الذي ينبع من اختراع الملكية الخاصة. لقد كتب بإدانة رهيبة: "**إن أول إنسان سيّج قطعة من الأرض، وقال لنفسه هذه الأرض لي، كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. كم من المآسي والحروب وجرائم القتل والرعب كانت ستتجنبها البشرية، لو نزع أحدهم السياج وصرخ بأعلى صوته: لا تستمعوا إلى هذا المحتال!**"

أدان روسو أيضاً اختراع الزراعة وأعمال التعدين، ولم يكن لديه وقت للمنطق أيضاً إذ قال: "**يولّد المنطق الأنانية... المنطق يجعل الإنسان ينقلب على ذاته. المنطق هو ما يفصله عن كل تلك المشاكل ويجعله حزيناً مهموماً**". لقد أنهى المحاضرة الثانية بملاحظة وضع فيها أسمى مجاز عن المساواة: "**طالما أنه من لصعب وجود أي أثر من اللامساواة في**

الطبيعة، فإن جميع أنواع اللامساواة الجديدة السائدة، قد أتت من تقدم العقل الإنساني، وقد نمت أخيراً وأصبحت دائمة وشرعية من خلال ترسيخ الملكية والقوانين .... تصطدم اللامساواة الأخلاقية، التي سمح بها الحق الإيجابي وحده، مع العدالة الطبيعية .... يُتخِمُ القلة المنعمون أنفسهم بالفخامة، بينما تحتاج الجموع الجائعة إلى ضروريات الحياة". لقد بدأ الآن يرى نفسه مجسداً لكل تلك الفضائل البدائية، حيث إنه شخص فريد من نوعه بين الجنس البشري، شخص تخلص من كل رذائل المجتمع ليستعيد "طيبته الطبيعية".

المحاضرة الثانية، الصادمة أكثر بكثير من المحاضرة الأولى الأركادية (إشارة إلى منطقة في كندا تعرف الآن باسم نوفا سكوتيا)، لم تُكسِبه أية جائزة، بل أصابته بخيبة أمل. لقد بدا وكأنه لا يزال يتوقع مكافأة من الأيدي التي عضّها، لأن أكاديمية ديجون كانت جزءاً من المؤسسة التي ينتقدها. أرسل نسخة من المحاضرة إلى فولتير آملاً دعمه، لكن الأخير أجاب بخفة دم لاذعة نموذجية: "لقد استلمت كتابك الجديد المناهض للعرق البشري، وشكراً لك على هذا. لم يبذل أحد من قبل كل هذا الجهد لجعلنا أغبياء. يتوق المرء لدى قراءة كتابك للسير على أربع، لكنني أرى أنه من المستحيل العودة إلى هذه العادة مجددا، بعد أن تخليت عنها منذ ستين عاماً مضت".

بعد المزيد من تبادل المجاملات الجليدية، نشأت بينهما عداوة شهيرة ترسخت عندما قرأ روسو ردّة فعل فولتير على زلزال لشبونة العظيم في العام 1755. وقع الزلزال في صباح يوم الأحد قاتلاً عشرات آلاف المصلين المجتمعين في الكنائس في كل أنحاء المدينة. بالنسبة لفولتير، فإن هذا الجانب

الخاص من الكارثة الطبيعية، يوحي بأنه ليس هناك إله حميد أو عناية إلهية. وعلى الرغم من أن معظم الفلاسفة غير الرسميين، كانوا كاثوليكيين اسمياً، فقد كانوا عادة (ربوبيين)[1] بالممارسة، مؤمنين بالإله الخالق المنفصل عن خلقه، لكنه يشرف عليهم كما يُبقي صانع الساعات عينيه على عقارب ساعاته. رفض روسو نظرة سطحية كهذه وإن كانت متفائلة. لكن تشاؤم فولتير كان أكثر بغضاً بكثير بالنسبة له. وقال: "**إن فولتير، المتظاهر دائماً بالإيمان بالله، لم يؤمن فعلاً بأي شيء سوى الشيطان، طالما أن إلهه الزائف هو عبارة عن كيان حاقد، وهو بالنسبة له، يجد كل السعادة في الأذى**" وأضاف أيضاً، لو بقي الناس في لشبونة متفرقين كما ينبغي في الحقول والغابات، لكان عدد من قتلهم الزلزال أقل بكثير — وهذه حجّة جديدة لحياة الريف. (كانت الاستجابة غير المباشرة لفولتير حول هذا الموضوع روايته الشهيرة "كانديد"). وهكذا، بدأ العداء ما بين فولتير المتشكك الساخر، مع معتقداته حول الحضارة والعقل، وما بين روسو، الكاهن الأعلى للطائفة الجديدة المؤمنة بالمشاعر غير المقيدة والطبيعة البكر.

اعتبر روسو نفسه مسيحياً دوماً رغم أن لمسيحيته شكلاً خاصاً يحتوي اختياراً هنا ومزجاً هناك، كما أنها متحررة من كل الاعتبارات الأخلاقية. وترتكز على رؤية المسيح كضحيّة مبكّرة، نسخة مبكّرة عنه. لم يكن روسو بحاجة للفداء لأنه يرفض الخطيئة الأصلية، كما يرى أن تضحية يسوع المسيح على الصليب

---

[1] الربوبي: هو الذي يعتقد بوجود الله، لكنه يستند في اعتقاده على الأدلة الموجودة في العالم الطبيعي والعقل البشري، بصرف النظر عما يذكره الوحي في الإنجيل أو في أي كتاب مقدس آخر. المترجم.

لا معنى لها. وبشكل مفهوم جداً، لم يكن يهتم كثيراً بالمذاهب. وقد تحول من جديد بسبب رغبته القوية بالعودة إلى مدينته الأم شخصاً من المشاهير، إلى الكالفينية لاستعادة مواطنته. وقام بهذا حسب الأصول في عام 1754، لكنه لم يجد جنيف متعاطفة معه. وكان قد سبقه إلى هناك عدوه الجديد فولتير، واستقر في المنفى الفاخر هرباً من الاضطهاد في فرنسا، وكان يقدم حفلات فخمة، يتقابل فيها المواطنون الجنيفيون مع النبلاء الفرنسيين الماجنين، بدهشة متبادلة.

حاول فولتير أيضاً إنشاء مسرحٍ في جنيف لتقديم مسرحياته الخاصة، لكن المسرح كان محظورا في الجمهورية المتزمتة. وقد دعم دالمبير فولتيرٍ في مقالة في الموسوعة. والآن يدعم روسو الحظر بصخب انطلاقاً من عدائه لفولتير، متناسياً بارتياح كبير جهوده الدرامية السابقة. لقد هاجم المسرح برمته لرعونته وفجوره المتأصلين، وخاصة، الطريقة الصادمة التي يمنح بها النساء "النفوذ نفسه على جمهورهنّ كما يفعلن مع عشاقهنّ". مما يؤدي إلى فساد أخلاقي شامل. وأعلن: **"النساء بشكل عام لا يقدّرن الفنون ولا يمتلكن أية عبقرية"**. وبالمقابل، منع جميع حكماء الإغريق والرومان النساء من أداء أي دور في المسارح. علىٍ أية حال، (لم يكن لدى روسو إعجاب تام بالعالم القديم، معترفا بأن طبقاته المترفة اعتمدت بالكامل على العبيد، وهو أمر غالباً ما يتم التغاضي عنه).

لكي ينال القبول في مدينته الأم، أهدى محاضرته عن عدم المساواة لمدينته جينيف مشيداً بها كنموذج "لديمقراطية جيدة جداً". وتبين أنه ارتكب غلطة بتصرفه هذا. لم يكن آباء المدينة يحبون المساواة إطلاقاً، واستقبلوا المحاضرة بشكل بارد، جعل الكاتب ينزعج. وبدلاً من العودة الدائمة إلى جينيف في العام

1756 انتقل روسو إلى قرب مونتمورينسي البعيدة حوالي اثني عشر كيلو متراً عن باريس – لكن وبما أن الطرقات كانت موحلة بشكل بغيض، بدت بعيدة جداً بالنسبة للزوار. هنا، كضيف مدلل حساس للمدام دبيناي الزوجة المتمدنة لجنرال كبير، مُنح حق استخدام المعتزل الريفي. وقد كان بيتاً فسيحاً مرمماً حديثاً فيه مساحات واسعة ووسائل راحة – كان فيه حتى نوع من التدفئة المركزية البدائية – استقر روسو في هذا البيت مع مدبرتي منزله الاثنتين، تيريز ووالدتها التي وصلت إلى الثمانين من عمرها وهي تتسول المال من المدام، لكن ديبناي نفسها كانت ممنوعة تماما من زيارة ضيفها المميز دون دعوة واضحة منه. وفي السنوات التالية من وجوده في هذا المعتزل الريفي، أنتج روسو أعظم أعماله.

كانت الرواية الأولى هي رواية جولي، الرواية الرومانسية العاطفية والميلودرامية في الواقع – يستدعي هذا العنوان عمداً "أبيلارد و هيلواز[1]" – لقد بدأ كتابتها في ذلك الصيف قارئاً المقاطع أمام أصدقائه المعجبين في الغابة القريبة. كانت جولي، بطلة الرواية، شابّة فاضلة مثاليه لكنها أرستقراطية، ترعرعت (بشكل حتمي) بين الجبال والبحيرات السويسرية، ووقعت بحبّ معلمها الخاص سانت برو المثالي الفاضل لكنه كان برجوازياً. تهتف جولي: "لقد جعلت السماء أحدنا للآخر! لم يكن هناك اتحاد أكثر مثاليّة من هذا. روحانا متداخلتان أيضا بشكل وثيق، ولم يعد بوسعهما الانفصال أبداً". يغوي سانت برو جولي الراغبة بابتهاج، لكن والدها البارون المغرور ديتانغ يحرّم

---

[1] أبيلارد و هلواز: عاشقان من بين العشاق الفاشلين الأكثر شهرة، وهي ترمز بشكل ما إلى علاقة تنشأ ما بين المعلّم وتلميذته، ويوجد فصل لاحق حول هذا الموضوع بعنوان "عقدة هلواز". المترجم.

عليها الزواج من شخص من العامة، ملحّاً على أن تتزوج بدلاً عنه، من وولمر الملحد الساخر، لكنه أرستقراطي. وتنتهي المشكلة بأن تخضع جولي لرغبة والدها والأعراف الاجتماعية، وتوافق على الزواج من وولمر، على الرغم من حبها الحقيقي لسانت برو. لاحقاً، يلتحق الرجل المعُجب بأسرةٍ وولمرٍ لتعليم أولاد جولي. وكما علّق بعض القرّاء، كان تصرفا منافقاً وعديم الشرف، أن تتخلى جولي عن الرجل الذي أحبته بصدق من أجل رجلٍ منافس أكثر غنى. لكن الكتاب بكامله لم يكن منطقياً تماماً، إذ يمزج بشكل غير متآلف، بحسب عبارات روسو: "التخيلات الشهوانية" مع "الألوان اللطيفة للبراءة". إن تقلبات جولي (الحمل والإجهاض)، الموصوفة بشكل ميلودرامي، تمتزج مع الوصف الشاعري لمشهد جبال الإلب والتأملات الفلسفية العامة، لجعل الكتاب بشكل أو آخر، رواية حقيقية.

على الرغم من أن الرواية تبدو الآن مثيرة للغثيان بشكل سخيف، فقد أصبحت في نهاية المطاف الأكثر مبيعاً عالمياً بعد انتشارها الكبير في العام 1761. لقد أكسبت روسو شهرةً عالمية – على الرغم من تصريحه في البداية بأنه ليس إلا محررا لها – وعملت على تغيير الحياة والأزياء عبر أوروبا. مُدِحَت جولي ذاتها كامرأة مثالية وكقدوة ترتعش بأصدق العواطف المتحررة. ربما أدركٍ روسو جزئياً بوقت متأخر ما الذي كتبه، وأضاف لاحقاً قولاً (استهلالياً) يذكر فيه أنه من المفترض ألا يقرأها الشباب والأبرياء، وهذا الكلام بالطبع، جذب القراء من هذا النوع تحديدا.

كانت الطبيعة قد قلّدت رواية (جولي) قبل انتشارها. ففي العام 1757 وقع روسو، من دون أمل يُرتجى، بحبّ الكونتيسة صوفي دوديتو الجميلة اللطيفة، التي تصغره بتسعة عشر عاماً. لقد

اشمأزت من زوجها لكنها كانت قد اتخذت حبيباً دائماً وهو المركيز دي سانت لامبيرت. فازت أولاً بقلب الفيلسوف من خلال زيارته مرتدية بنطال ركوب الخيل القصير الضيق، حاملة السوط الذي جذبه بشكل واضح. ولئن كانت قد ابتهجت باهتمام روسو الشديد بها — وكان للمرة الأولى واقعاً بالحب بيأس — وكما يبدو، فقد شعرت بالأسى على هذا الرجل الأكبر منها بكثير، والذي غالباً ما يكون مريضاً أكثر مما شعرت بالرغبة به، في البداية على الأقل. وقد كتب في اعترافاته مع لا مبالاته الاعتيادية بالحقيقة: "**الذكرى الخالدة للبراءة والنعمة! جالساً في ذلك البستان، على مقعد عشبي تحت شجرة (أكاسيا) في حالة إزهارها الكامل، أجد كلمات تناسب عواطف قلبي. إنها المرة الأولى والوحيدة في حياتي..... يا لتلك الدموع المسكِرة التي ذرفتها عند قدميها...... تنهدت. قبلتها. يا لتلك القبلة — لكن، كان ذلك كل شيء**". كانا لم يعودا في ذلك الوقت يخفيان علاقتهما، كانا يسيران واليد باليد، حتى تحت نافذة المدام ديبناي. إن السؤال المطروح هنا هو كم كانا يمارسان الجنس؟ لأنه كان يصف نفسه لدى وصوله إلى مواعيدهما "ضعيفاً منهكاً ويكاد لا يستطيع الوقوف" مشيراً إلى أنه كان يمارس العادة السرّية في طريقه إلى موعده، كما هي عادته.

تواصل روسو مع صوفي عبر رسائل حملتها تيريز الأميّة بأمان، لكن ذات يوم، قاطعت المدام ديبناي الرسائل وقرأتها. لم يخدع روسو تيريز فقط، التي كانت لا تزال شريكته على المدى الطويل، بل خدع أيضاً مضيفته التي كان لديها مشاعر رومانسية نحوه، مستخدماً النفاق نفسه الذي هاجمه علناً في المجتمع الأرستقراطي. علاوة على ذلك، في كتابه (رسائل في الأخلاق) في العام 1757، وعظ بأهمية الإخلاص بين الزوجين، آملاً بشكل

كبير إضعاف احتفاظ سانت لامبيرت بصوفي ودافعاً قضيته الخاصة إلى الأمام. وللأسف، عندما عاد منافسه من الحروب مريضاً بشكل خطير، حوّلت صوفي كل اهتمامها له، تاركة روسو بعيداً في البرد، كما أرادت أيضاً بذلك التصرف، أن تقدم معروفاً للمدام ديبناي. لقد خسر بعد ذلك صداقته مع ديدرو، الذي اعتبر أن سلوكه العام مع مضيفته لا يُغتفر. على أية حال، سرعان ما وجد روسو رُعاة أغنياء آخرين، منتقلا بضعة أميال فقط، إلى كوخ منحه له دوق لوكسمبورغ. وبسرعة أصبح الدوق والدوقة صديقي فيلسوف (المساواة والعدالة) المُعلن، حيث تم حجز غرفة خاصة له في فندق لوكسمبورغ، بيتهما الكبير في باريس. عندما لا يكون في حالة من التواصل المباشر مع النبلاء، يكون روسو منغمساً في كتابة عملين رئيسين لكنهما متباينان: (إميل: الاهتمام بالتربية) و (العقد الاجتماعي).

إميل، بينما يفترض أن تكون رواية، كانت تدور فعلياً حول التربية. لقد ترعرع الشاب اليافع إميل في منطقة معزولة في الريف، بعيداً عن أية مدينة أو حتى عن أطفال أخرين، مع أستاذه العالم بكل شيء – روسو في حالة من التمويه الخفيف – بغية تربيته ورعايته. تمت مراقبة اهتماماته وتطويرها بالإضافة إلى المهارات العملية التي تم تشجيعها، كأعمال النجارة. وحُظِرت عليه الكتب مدة طويلة (عدا كتاب روبنسون كروزو، إنجيل مذهب البدائية[1] في القرن الثامن عشر، كما تم تعريفه في وقت متأخر، على الدراسات الفكرية وكان آخرها الفلسفة الدينية. بتلك الطريقة قَلَب، سنّ التعليم الطبيعي التي يتلقّى بها الأطفال دروساً عن الإنجيل والديانة المسيحية، وبالنسبة للذكر، يُجبَر على تعلّم الرياضيات واللغة الإغريقية

---

[1] إشارة إلى دعوة روسو للعودة إلى الحياة الطبيعية البدائية. المترجم.

واللاتينية في سن مبكّر جداً. لم يتعرض إميل لعقاب جسدي، لكنه نال بعض الإذلال "التوجيهي" الذي يُلحقه المعلم الخاص به، الذي لم يكن أقل سادية. كان الكتاب يهدف إلى إظهار أن البشر الذين لم يتعرضوا لفساد المجتمع، هم أبرياء وحكماء بالوقت نفسه. وقد بدأ الكتاب بعبارة رنانة: " خلق الله كل شيء كاملاً، وتدخّل الإنسان به فأصبح خراباً". على أية حال، بما أنه يجب على إميل حتىٍ أن يتعامل مع المجتمع في النهاية، فقد تم تعريفه به تدريجياً.

كان إميل لعنة بالنسبة للمنادين بالمساواة بين النساء والرجال، فقد سُمح له في العمر المناسب (العشرين)، بمقابلة رفيقة مُنتقاة مسبقاً، صوفي اللطيفة الشابة — اسم رنان بالنسبة للمؤلف بالطبع – لكنها أصبحت واحدة أخرى من نساء روسو المتخيلات. لقد تمٍ إعدادها هي أيضاً من أجل تلك اللحظة، ولو بطريقة مختلفة جداً. وبينما كان من النادر أن تم إحباط رغبات إميل ودوافعه – ربما تحولت فقط – فقد كانت جميع رغبات صوفي مكبوتة. كان قيد منظم ومثالي ومحافظ كهذا، جوهرياً من وجهة نظر روسو، من أجل تربية الفتيات، بحيث يصبحن مطيعات لأزواجهن ويعتنين بهم. وقد اعتبر أن التفكير العقلاني المجرّد يتجاوز إدراك إية امرأة — ليست وجهة نظر جديدة بين الفلاسفة الغربيين. على النقيض من ذلك، تبين أن وجهات نظر إميل التربوية الراديكالية، من بين أكثر كتابات روسو تأثيراً. واليوم، ليس هناك سوى قلّة من المدارس الابتدائية، لا تعمل بحسب معتقداته في ترك الأطفال يتطورون بما يتناسب مع طبيعتهم.

تحتوي رواية إميل أيضاً على مقطع مشهور، وإن لم يكن مرتبطاً بهذا الموضوع بشكل كبير، وهو معروف باسم "عقيدة كاهن سافوي". وفيه طرح روسو وجهة نظره الخاصة حول الكائن الأسمى، كما كان

يسمي الله، رافضاً الوحي الديني كله لصالح إمعانِ التفكير المهيب بالطبيعة، الذي تتجسد الألوهية فيه. "**أغمس كل مَلَكاتي الفكرية في الجوهر السماوي لله.... لكني لا أصلي له. ما الذي عليّ أن أطلبه منه؟ تغيير مسار الطبيعة وصنع المعجزات من أجلي؟ .... ولا أصلي لله لأحصل على القوة لفعل الصواب، لماذا أطلب ما أعطاني إياه سلفا؟ ..... لا تقوم مجاهرة الإنسان بالصلاة سوى بإهانة الله عبر منحه العواطف الإنسانية... أضاف الناس للأسرار فائقة الوصف المحيطة بالله، تناقضات سخيفة، وبدلاً من جلب السلام إلى الأرض جعلت الناس مغرورين، متعصبين وقساة**". استمر روسو بوصف المسيح بالمحبوب والأعظم حكمة بين البشر، لكن المسيحيين لا يعتبرون يسوع شخصاً فانياً. إن "ديناً طبيعياً" كهذا – وجودي بشكل جوهري لكنه يجذب القلب فقط وليس العقل، على عكس دين سبينوزا – رفضته الكنائس المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية على حد سواء، مما وضعه في ورطة كبيرة.

كان كتاب (العقد الاجتماعي) الذي كتبه روسو بالوقت نفسه، هو المحاولة الأكثر جدية لروسو في الفلسفة السياسية. يبدأ الكتاب بصرخة مدوّية – "وُلِدَ الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبّلٍ بالأغلال! يعتقد شخص نفسه بأنه سيد الآخرين، لكنه يبقى عبدا أكثر منهم" – ويستمر بالسعي إلى ما تبين أنها أهداف غير متوافقة: الحرية، المساواة، الأخوّة. إن فكرة العقد الاجتماعي ليست أصلية بحد ذاتها. كان مفكرو القرن السابع عشر، قد وضعوا نظريات مختلفة حول العقد الاجتماعي: رأى هوبز، متخذاً نظرة نموذجية قاتمة عن حالة الإنسان، أن الناس يشكلون في حالة اليأس عقوداً لحماية أحدهم من الآخر، بينما رأى جان لوك الأكثر تفاؤلاً، أن الإنسانية تجتمع طوعاً. جميع هذه النظريات مستمدّة من عهد الله مع العبرانيين، كما هو موضّح في العهد

القديم، الذي كان معروفاً جداً لقراء الإنجيل البروتستانتيين مثل الآباء الحجاج — الذين كتبوا عقدهم الخاص على (ماي فلاور)[1] — وإلى الكالفينيين في جنيف. لقد قبلَ روسو، وهو يلطّف الآن المعتقدات القديمة في الوحشية النبيلة، أن الإنسانية قد وصلت إلى نقطة حيث لم يعد بإمكانها أن تعيش بما يتوافق مع الطبيعة. وبدلاً من ذلك، على الجميع أن يقايضوا حريتهم الطبيعية بحرية الجمهورية السامية، مكوّنين "اغتراباً كلياً لأنفسهم ولحقوقهم كلها نحو المجتمع برمّته". وقد تصوّر روسو أن المجتمع المتطوّر من هذا العقد الاجتماعي سوف يروّج "لقوانين حقيقية" — على العكس تماماً من القوانين الفعلية الزائفة في القرن الثامن عشر — وعلى الجميع أن يطيعها.

بينما رفض الملكيات المطلقة، والنظام البرلماني الإنكليزي الحالي — قال إن الشعب الإنكليزي يستمتع بالحرية فقط في أيام الانتخابات — لم يدعُ للديمقراطية المطلقة، حتى في ولايات صغيرة مثل جنيف. قال: "**لو كان هناك من أمة للآلهة فسوف تحكم نفسها بشكل ديمقراطي. الحكومة المثالية تماما لا تناسب البشر**"، قال ذلك متجاهلاً مثال أثينا الكلاسيكي. وعندما اقترح أن المواطنين (الذكور) يستطيعون فقط التصويت على القوانين الموضوعة أمامهم من قِبَل السلطة التنفيذية، كان يفكر مرة أخرى بإسبارطة القديمة، المَدينة المثالية له ولأفلاطون، حيث الأرستقراطية المُنتخبة، تشكّل نموذجاً للاستقامة والفضيلة، وتحكم الجماهير غير المثالية. في التركيبة الإسبارطية، يستطيع الإسبارطيون العاديون ببساطة، الصراخ بالموافقة أو عدم الموافقة

---

[1] ماي فلاور: الباخرة التي أبحر فيها "الآباء الحجاج" أو المهاجرون الإنكليز الأوائل الذين فرّوا من الاضطهاد الديني في بلدهم ووصلوا إلى الساحل الشمالي الشرقي لما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية، في عام 1607). المترجم.

على المقترحات الموضوعة أمامهم، ويربح المعركة الانتخابية، أولئك الذين يصرخون بصوت أعلى. لقد وجد روسو أن هذه النسخة من الديمقراطية المباشرة، هي الأفضل، على الرغم من كونها مقيدة جداً. لكن كان بمقدوره أن يكون مرناً. أما بالنسبة لدولة كبيرة بحجم فرنسا، فكان على استعداد للقبول بالملكيات بطريقة ما. لكنها على أية حال، لن تكون ملكيات وراثية مثل البوربونز[1] (وجميع الممالك في أوروبا القرن الثامن عشر)، بل ستكون ملكية يوجد فيها شخص واحد يمكن أن تتجسد فيه قيادة الشعب، ويكون هو الحاكم المثالي.

مع قبول العقد الاجتماعي الذي يتجدد كل يوم بطريقة غامضة ما، يفقد الرجل "**حريته الطبيعية، وحقه غير المشروط بوضع يده على كل ما يغويه**"، لكنه بالمقابل، يكسب "**الحرية المدنية وحق الملكية الكامل على ما يكون له**". ويكتسب أيضاً، الحرية الأخلاقية في السيادة على ذاته بحسب وجهة نظره التي تقول: "**عندما يطيع الإنسان قانوناً موضوعاً من أجله، فهذه حرّية**". هنا يظهر سؤال واضح: كيف يكون لمجموعة من الأفراد المختلفين، إرادة واحدة، وكيف يمتثلون لقانون يجعلهم كلهم أحراراً؟ أجاب روسو من خلال اقتراح "**الإرادة العامة**"، التي يتشارك الجميع فيها ويسمون على أية إرادة شخصية. إن الإرادة العامة سوف "**تجبر الناس على أن يكونوا أحرارا**" وبالنتيجة، فاضلين. والعقوبات القانونية، بما فيها الإعدام، ستساعد الناس المستعبدين من قبل شغفهم الأساسي، على العودة إلى الفضيلة الطبيعية الأصلية. كان هذا من بين أكثر مفاهيم روسو إثارة للجدل، وعرضة لإساءة الاستعمال، كما

---

[1] البوربونز: عائلة ملكية فرنسية تنحدر من سلالة لويس الأول، حكمت سلالة دوق بوربون في فرنسا وفي إسبانيا ونابولي. المترجم.

أوضحت الثورة الفرنسية لاحقاً. لقد ظهرت العديد من عبارات روسو من جديد، معدّلة بشكل بسيط فقط، في إعلان حقوق الإنسان الذي وضعه الثوار الفرنسيون. إذ لحق روبسبير[1] بروسوٍ في مساواة الحرية بالفضيلة، ومؤمناً بأن الأوصياء المنتخبين ذاتياً من الفاضلين من عامة الشعب، "كلجنة السلامة العامة مثلاً"، لديهم حقوق إلهية في القضاء على ما هو غير فاضل، بمساعدة الوسيلة الجديدة للدكتور (غويلوتين)[2].

عندما نُشِر كتابا إميلٍ والعقد الاجتماعي في عام 1762، ويرجع الفضل بذلك جزئياً إلى مساعدة لوكسمبورغ، واجه روسو بشكل مفاجئ، اضطهادا من جهتين لهما مصالح قوية راسخة، وهما الجهتان الدينية والسياسية، وتمت مهاجمته بابتهاج شديد، إذ تم حظر كتبه في كل من فرنسا وجنيف، كما صدرت مذكّرة باعتقاله. فرّ روسو من فرنسا ووجد ملجأ لبعضِ الوقت في مويتر في نوشاتل، وهي مقاطعة سويسرية نصف مستقلّة. دافع في رسالته الافتتاحية إلى رئيس الأساقفة في باريس، عن وجهات نظره الدينية – مؤكداً على أنه كان "**تلميذ يسوع المسيح، وليس تلميذا للكهنة**"، رافضاً مذهب الخطيئة الأصلية، ومكررا معتقداته بأن الإنسان خيّر بطبيعته – وكان محظوراً أيضاً في جنيف. لقد تنكّر روسو لانتمائه لجنيف إلى الأبد. حتى في مويتر، انقلب عليه القرويون ورموا منزله بالحجارة، لأنه بدا بالنسبة لهم أجنبياً غريبا، يطوف في المنطقة في زيّ "أرميني" من تصميمه الخاص، إذ يبقي عليه دافئاً ويساعده على التعامل مع مشاكله البولية

---

[1] روبسبير: هو ماكسميليان روبسبير، المحامي والزعيم السياسي الذي أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية. المترجم.

[2] غويلوتين: الدكتور جوزيف غويلوتين، هو الطبيب الفرنسي الذي اقترح في العاشر من أكتوبر عام 1789، استخدام جهاز جديد لتنفيذ عقوبات الإعدام في فرنسا، كوسيلة أقل إيلاماً من طريقة الإعدام السائدة. المترجم.

المتفاقمة. وساعد كل ذلك على تغذية مشكلتي البارانويا والشفقة على الذات لديه – على الرغم من أن فولتير كان قد عانى اضطهاداً أسوأ بسبب وجهات نظره، وكان قد سُجِن مرتين.

منح فريدريك الثاني ملك بروسيا، نموذج الاستبداد المستنير والشك الديني (والصديق السابق لفولتير)، الذي امتلك أراضي في الجوار، روسو ملجأً آمناً، لكنه في النهاية قَبِلَ اللجوء إلى إنكلترة في عام 1766 بمساعدة الفيلسوف السكوتلندي ديفيد هيوم. قام هيوم، وهو من أكثر الرجال شهامة ولطافة، بكل ما في وسعه لمساعدة روسو، الذي أصبح الآن يعاني من البارانويا بشكل متزايد. وعلي الرغم من وجود خطر الاعتقال نظرياً، استمتع روسو بالرحلة المظفرة عبر فرنسا – تم أداء مسرحيّة "عرّاف القرية" على شرفه في ستراسبورغ – وتم الاحتفاء به مرة أخرى في باريس. وقد كان روسو مشهورا أيضاً في بريطانيا، وتلقى لدى وصوله إلى لندن عدداً كبيراً من الدعوات وزاره الكثير من الضيوف. وسرعان ما التحقت به تيريز – تم إغواؤها خلال رحلتها من قِبَل جيمس بوسويل النهم، وهو من ألف لاحقاً، السيرة الذاتيةَ للدكتور جونسون[1]. وبفضل هيوم، قدّم الملك جورج الثالث للفيلسوف الجمهوري، راتباً متواضعا وضع روسو على المحك: هو يحتاج المال بشدة، لكنه لا يريد أن يعرف الآخرون أمر تقاضيه المال من الملك. في النهاية خسر هذا الراتب الملكي، لكن قبل ذلك، ومرة أخرى بسبب المساعي الحميدة لهيوم، مُنِحَ منزلاً ريفياً رائعاً في ديربيشاير مع أرض واسعة، وكان إيجاره الشكلي (30 جنيهاً في السنة) من ضمنها وجبات الطعام ومجموعة كاملة من الخدم.

---

[1] صاموئيل جونسون: كاتب إنكليزي، صاحب المساهمة الدائمة في الأدب الإنكليزي كشاعر وكاتب مقالات وناقد أدبي ومحرر. وقد أنهى المؤلف والمحامي السكوتلندي "جيمس بوسويل" كتابة سيرته الذاتية عام 1791 . المترجم.

هنا، كان روسو يذهب في نزهات سير طويلة بُغية (جمع النباتات وعبادة الطبيعة)، وأُعجِبَ به النبلاء المحليون ومن ضمنهم إراسموس داروين (جدّ تشارلز داروين)، الذي كان يزوره مفتوناً بهذا الأجنبي الغريب. كان هو وتيريز، ولمدة عام، سعيدين في هذا المنزل الريفي على الرغم من الطقس الرطب، وبدأ عندها بكتابة اعترافاته. على أية حال، رتّبت تيريز موضوع إبعاد جميع الخدم هناك، بسبب سلوكها السيئ أكثر من كونها عشيقته – وهو شيء غالباً ما تقبّله "الإنكليز الجورجيون[1]". وأخيراً، انتقم الخدم بوضع الرماد في حساء روسو – أو هكذا قال روسو – وتخلّي عن المنزل الريفي تاركاً رسالة اتهام طويلة لمضيفه البائس، مبيناً فيها جميع الأمور المرعبة التي تحمّلها كضيف.

كان روسو قد وجّه في وقت سابق رسالة عدائية بشكل مدهش، وطويلة بشكل ملحوظ (7500 كلمة)، إلى هيوم، متهماً الشخص الذي أحسن إليه بخيانته والاستهزاء به. وعلى الرغم من أن هذا الاتهام لم يكن عادلاً بالنسبة لهيوم، لكنه نشأ بسبب رسالة أخرى خادعة، موجّهة إلى روسو، تم تلفيقها من قِبَل (هوراس والبول)[2] – زاعماً أنها من ملك بروسيا – انتقدَ فيها روسو. لم يكن لدى الفيلسوف أي حس دعابة، مما يجعله عرضة بشكل حاد لأي نوع من السخرية. لقد حاول هيوم مدهوشاً أن يهدئ صديقه ولكن عبثاً، كانت علاقة صداقتهما في نهايتها. ولكي يواجه هيوم هجمات روسو المحتملة، نشر مراسلاتهما، مبيناً روسو كشخص يعاني من البارانويا كما أنه عديم الشرف. وقاد هذا بدوره روسو لاعتبار

[1] الإنكليز الجورجيون: إشارة إلى فترة من تاريخ بريطانيا، أخذت اسمها من الملوك الذين حكموها، من جورج الأول إلى جورج الرابع. المترجم.

[2] هوراس والبول: كان مؤرّخ الفن الإنكليزي ومهتماً بالآثار وسياسياً يمينياً عاش بين عامي (1717 – 1797). المترجم.

هيوم أحد أسوأ أعدائه الكثر. كان هيوم منزعجاً لاكتشافه أن روسو لم يكن بالفقر الذي كان يدّعي أنه به، وذلك بفضل عائدات كتبه الأكثر مبيعاً، ومع ذلك كان كريماً بوصف روسو: **"لم يكن يملك إلا "اللباد" خلال حياته، وبسبب ذلك ارتفعت سوية حساسيته إلى حدّ لم أرَ له مثيلا في حياته .... هو أشبه برجل تم تجريده، ليس فقط من ملابسه، بل من جلده، واضطر بسبب ذلك إلى محاربة أشياء فظّة وشديدة"**.

عاد روسو رغماً عنه إلى فرنسا في أيار من عام 1767، أحياناً تحت اسم مستعار. وعلى الرغم من أنه قد تشاجر مع معظم أصدقائه المثقفين، فهو لم يكن حتى هذه اللحظة، دون دعم أرستقراطي. أسكنه الأمير دي كونتي في قصره في النورماندي لمدة عام، لكن روسو شعر بأنه مُحاط بجواسيس وأعداء من بين خدم الأمير، وبأن الجميع يرغب بتسليمه لسجن الباستيل. لدى مغادرته الأمير، تزوج من تيريز أخيراً، زاعماً أنه يريد أن يجعل وضعها محترماً، لكن كانت مراسم الزواج هزليّة وغير قانونية، وكان قد أقامها بنفسه لأن الزواج بين بروتستانتي وكاثوليكية كان محظوراً في فرنسا حينها. بعد ذلك خاطب الضيوف في وليمة العرس، مشيراً لكونهم محظوظين جداً بمعرفته، ومن ثم انفجر باكياً. بدت تيريز المسكينة، التي مُنِحَت لحظات فقط للتحضير لعرسها، وكأنها تصدّق بأنها تتزوج فعلاً.

ازداد ارتياب روسو سوءاً بينما كان ينتقل من بلدة إلى أخرى، وواجه صعوبات مع السلطات في بعض الأحيان، رغم أنه لم يُعتَقَل أبداً. في هذه الحالة من فرط الإثارة، تابع كتابة التحفة الفنية الأطول، كتاب "اعترافات". يعيد هذا العنوان إلى الذاكرة، عن عمد، الاعترافات الشهيرة للقديس أوغسطين في

العام 397 ميلادية، لكن هدف روسو كان مختلفاً تماماً عن هدف هذا اللاهوتي العظيم. كانت اعترافات القديس أوغسطين موّجهة بشكل أساسي إلى الله، وروى له فيها العديد من آثامه السابقة وخلاصه اللاحق من الإثم بنعمة من الله. كان تدفّق روسوٍ، على النقيض من ذلك، موجهاً إلى الجماهير البشرية تماماً. لم تكن الاعترافات تتحدث عن طريقه نحو الخلاص لأنه لم يؤمن بأنه يحتاج إلى الخلاص. وبدلاً من ذلك، تُظهر الاعترافات أنه شخص بريء – بكل معنى الكلمة – أسيء لَه أكثر مما أساء هو، يشقّ طريقه عبر عالم منافق قاس، يكون هو الطرف البريء فيه دائماً، ويتعرّض لسوء معاملة مًن الآخرين بشكل صادم. لقد أعلن بشكل مباشر: **"لطالما اعتقدت نفسي أفضل الرجال، ولا زلت أعتقد ذلك"**.

اختار روسو شعاره الذي كان عبارة جوفينال[1]: **"تكريس المرء حياته من أجل الحقيقة"**، وأحرج الجميع بذلك – مستثنياً صوفي دوديتو– لكونه أوحى بأنهما لم يتبادلا أكثر من قبلة. كان كلما انتهى من جزء، يقرأ مقاطع منه بصوت عال أمام معجبيه في باريس. في العام 1770، تم السماح له بالعودة إلى فرنسا شريطةً ألا ينشر أي شيء – امتيازٌ أغضب فولتير الذي كان لايزال منفياً، والذي تاق للعودة إلى وطنه. لقد استمرت إحدى جلسات القراءة ثماني عشرة ساعة، وبكى بعض المستمعين علناً، متأثرين بمحنه. غير أن بعض الباريسيين تنبهوا إلى مخاطر الاعترافات المثيرة القادمة التي ربما تتعلق بهم، وبهذا تم حظر القراءات التالية في نهاية المطاف. إن "اعترافات جان جاك روسو"، العمل الرائد بالفعل، لم يُنشر حتى عام 1782. هذا الخليط من الإثارة ومن

---

[1] جوفينال: الساخر الروماني الذي ندد بعيوب المجتمع الروماني وحماقته في عهد الإمبراطور دوميتيان (60 – 140). المترجم.

الشفقة على الذات، المقنّع بشكل رقيق، والمكشوف على أنه صراحة، يمهّد لاعترافات لاحقة، تقوم على رفض مؤلفها المطلق القبولِ بأية مسؤولية أو ملامة على أيٍ شيء. لقد كان العالم كله مذنباً، وكان جان جاك روسو بريئاً.

من بين أعماله الأخيرة، وقد كُتِبت في العام 1776، كان كتاب "حوارات": (روسو، قاضي جان جاك)، وعبّر فيه عن اعتقاده الذي أصبح الآن هوسياً، أن حياته مطابقة تماماً لحياة يسوع. تماما كما فشل المسيح بهداية اليهود، فشل روسو بهداية السويسريين والفرنسيين. كلاهما بريء، وعانى كلاهما من الاضطهاد. تحتاج الإنسانية الجديدة إلى مخلص، للعودة بها إلى البراءة والطبيعة، وكان ذلك المخلّص هو جان جاك روسو. لخوفه من عدم نشر الكتاب، حاول الحصول على حماية الله، عبر وضع نسخة من الكتاب فوق المذبح العالي في كنيسة نوتردام في باريس، لكنه أُحبط لأنه وجد المذبح مغلقاً. وعوضاً عن ذلك، أعطى نسخة منه إلى برووك بوثبي، الجار السابق في البيت الريفي والذي كان عابراً مصادفة في باريس. (قام بوثبي بنشره حسب الأصول بعد وفاة روسو). وبوصوله إلى حالة شديدة من الاهتياج، كتب روسو نسخاً بخط اليد على أوراق كبيرة: "**إلى الفرنسيين الذين لا يزالون يحبون العدالة والحقيقة**"، وحاول توزيعها في شوارع باريس، وقَبِلها قليل من الناس. في شهر تشرين الأول، طرحه كلب كبير على أرضية الطريق. بدت الصدمة بشكل غريب، وكأنها قللت هوسه بما يكفي ليكتب كتابه الأخير، "أحلام يقظة جوال منفرد".

بدأ الكتاب بعبارة أنانية رهيبة: "**إذن أنا هنا، متروك في الأرض وحدي دون أخوة أو علاقات أو أصدقاء أو مجتمع، سوى ذاتي**". يتجاهل بهذه العبارة، تيريز المخلصة له أبداً، الشريكة

التي أسيئت معاملتها كثيراً خلال السنوات الثلاثين الماضية، ويتجاهل جميع الآخرين أيضاً - اللوكسمبورغيين، الأمير دي كونتي والأصدقاء القدامى مثل بول موتو من جنيف - الذين لا زالوا يدعمونه. لكن كتاب أحلام اليقظة الذي يصف جمال الطبيعة ويستخدم كلمة "رومانسية" بمعناها الجديد لأول مرة في فرنسا، هو من بين أفضل الأعمال لشخص، مهما كانت أخطاؤه، فقد كتب بأسلوب غنائي كان نادراً جداً في عصره.

توفي روسو بالسكتة الدماغية في 2 تموز من عام 1778 في إرمينونفيل، على بعد ثلاثين كليومترا إلى الشرق من باريس، حيث كان يعيش في جناح، قدّمه له داعم أرستقراطي آخر هو المركيز غيراردیان. ودُفن في إيل دي بوبليه، وهي جزيرة في بحيرة رومانسية مناسبة، سُمّيت بهذا الاسم بسبب أشجار الحور فيها، وأصبحت بسرعة مكاناً للحج بسبب سمعة روسو التي أُعيد إحياؤها، ووصلت إلى شهرة لم يستمتع بها خلال حياته. وسرعان ما كان العالم الجميل الذي احتقره بتفاخر، يتسكع من باريس إلى قبره ليقدم فروض الاحترام، ومن بينهم الملكة ماري أنطوانيت. ولقد كانت تكرّم بالطبع، ليس رسول الثورة والمساواة، بل الكاتب المرهف الإحساس والمليء بالمشاعر. حتى إن شاباً يافعاً انتحر على الجزيرة، آملاً أن يوارى الثرى قرب معبوده. ثم تأتي الثورة، ويتسارع مقدسو علمانية روسو. في التاسع من تشرين الأول من عام 1793، وبينما كان الموسيقيون يعزفون موسيقى روسو الخاصة، رُفِع تابوته من الأرض وحُمِلَ في موكب رسمي إلى باريس. هناك، أُعيد دفنه بطقوس احتفالية في البانثيون - حيث أصبح لاحقاً مقبرة العظماء الفرنسيين - وللمفارقة، مقابل عدوّه القديم فولتير. كان فولتير قد دُفِنَ هناك أولاً، في العام 1791، خلال مرحلة الحرية المبكّرة من الثورة. لقد حُمِلَت صورة الخصمين لاحقاً،

جنباً إلى جنب في المواكب الثورية، الأمر الذي قد لا يُسعد أياً منهما. وقد قال روبسبير في دفن روسو: "**لقد هاجم الاستبداد علناً، تحدث عن الألوهية بحماس، ولوّنت بلاغته الرجولية نداء الفضيلة بألوان متقدة...... تعاليمه النقية الملهمة من الطبيعة، كانت تعارض الرذائل بعنف**".

أصبحت سمعة روسو بعد وفاته أكثر تداخلاً. في آخر قصيدة عظيمة للشاعر (شيلي)[1]، "انتصار الحياة" في العام 1822، لعب روسو دور القائد صاحب البصيرة، المشابه لدور (فرجيل) بالنسبة لدانتي، في (الكوميديا الإلهية)، لكنه كان أكثر تناقضاً. (القصيدة لم تنته). الشاعر الرومانسي بايرون، صاحب الشهرة الأكبر في القرن التاسع عشر، نعى روسو في المقطع الثالث من قصيدة (تشايلد هارولد) في العام 1816:

"كان حبّه جوهر الشغف – كشجرة

تتقد ناراً بلهب أثيري بسبب البرق

كان مستعراً، وذابلاً: لأن هذا والعشق، هما الشيء ذاته بداخله.

يزخر بداخله الوجود والتدفق

مترافقاً مع صفحته المحترقة".

ليس هناك من خلاف حول الأثر الأدبي لروسو، رواية "جولي": وهي أول عمل حقيقي من الخيال الرومانسي في كل ما تحتويه.

غالباً ما أدانه الفلاسفة اللاحقون، لافتقاره إلى الأساس الأولي للفيلسوف الحقيقي: الرغبة والقابلية لاختبار المسائل بشكل فكري. انخفضت سمعته في القرن العشرين، أثناء ازدهار الشمولية.

---

[1] شيلي: هو بيرسي بيش شيلي، أحد أكبر شعراء الرومانسية الإنكليزية، ويعتبره النقاد من أفضل شعراء الشعر الغنائي في اللغة الإنكليزية. المترجم.

لقد أسماه (أشعيا برلين)[1] "التافه المتشدد الأول". بينما يذهب بيرتراند راسل بعيداً، مفكراً بإرادة روسو العامة المستبدّة، معلناً أن هتلر كان من إنتاج روسو. لكن هناك العديد من الآباء لظاهرة شمولية القرن العشرين، وقد حلّ كارلٍ ماركس، كرسول سياسي، محلّ روسو، وهو الشخصية الأكثر ثقلاً بكثير من الناحية الفكرية. إن ارتباط روسو بنا اليوم هو كرسول للطبيعة والطبيعية وللمشاعر التي لا يمكن كبحها، إضافة إلى اعتقاده الذي عبّر عنه في كتاب الاعترافات: "إن كشف كل شيء، يغفر كل شيء". نجد هنا أن روسو قد غيّر مواقفه بشكل دائم، مع فوائد لا جدال عليها في بعض الأحيان.

قلّة من الناس ينكرون أن بعضاً من أفكاره التعليمية إيجابية. لقد ساعدت أفكار روسو، بوساطة إصلاحيين من أمثال جون بيستالوتزي، فريدريك فروبيل، وماريا مونتيسوري، في انتقال التعليم من التعلم القديم جداً والمعتمد على الاستظهار الذي يسحق الروح، إلى شيء أكثر مرحاً على الأقل - يمكن القول إن النواس قد ابتعد عن التقليد المنقول أكثر مما يجب. وكانت مشاعر روسو الغامضة الوجودية، داخل الغابات والبحيرات والجبال، المشروحة لفظياً في مؤلفاته مثل كتاب "جولي وإميل"، قد أثّرت تقريباً بالجيل اللاحق كله. وعندما كتب وردز ورث:

"ربما تعلمك نبضة واحدة من الخشب الربيعي

أكثر مما يعلّمك عن الإنسان

وعن الشر الأخلاقي وعن الخير،

أكثر مما يستطيع جميع الحكماء أن يفعلوا."

---

[1] أشعيا برلين: يهودي روسي بريطاني، كان منظراً اجتماعياً وسياسياً، وكان فيلسوفاً ومؤرخاً، عاش بين عامي (1909 - 1997). المترجم.

كان يعكس عقيدة روسوٍ التي تقول: إن التأمل في الطبيعة البكر، يحسِّن الناس أخلاقياً. لقد أصبح هذا المعتقد مقدساً تقريباً في شمال أوروبا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر. لكن حياة روسو الخاصة كانت كتلة كارثية من التناقض والتنافر. فهو أشاد بالحبّ الزوجي، ولم يسبق له أن تزوّج بشكل سليم، باستثناء عرضه المهمل القاسِي نحو تيريز، شريكته طوال حياته. وهو أحبّ الأطفال، لكنه تخلّى بسهولة عن أطفاله. كما آمن بأن الكراهية الفكرية هي الأسوأ، لكنه تورّط في معارك فكرية لا تنتهي: استنكر اختراع الطباعة، مع أنه كان كاتباً غزير الإنتاج. كره الامتيازات والثروة، لكنه اعتمد دائماً على الأغنياء والعظماء من أجل الدعم. أدان الفساد في المسرح، وكتب هو نفسه، العديد من النصوص المسرحية والأوبرات.

كان روسو، أول مفكر عظيم يشدد على أولوية المشاعر فوق التفكير، ويظل الأب المؤسس للحركة الرومانسية التي بقينا نحن من نواحٍ كثيرة، ورثتها المفلسين تقريباً. ربما تكون حركة (الخضر) الآن، التحدي الحقيقي الوحيد للحركة الصناعية العالمية، قد ورثت جزئياً معتقد روسو حول مثالية الطبيعة البكر، وعدم ثقته بالتكنولوجيا والمنظمات الكبيرة. لكن الوهم الذاتي، الشفقة على الذات، وعقدة الارتياب التي هيمنت على حياته، لم تكن الصفات التي نأمل وجودها في معلّم ينادي بالطبيعة.

2/ آرثر شوبنهاور (1788 – 1860):

المخلّص البغيض[1]

"الحياة قضيّة بائسة. لقد قررت أن أقضيها محاولاً فهمها".

أرثر شوبنهاور

رسالة إلى كريستوف ويلاند 1809

آرثر شوبنهاور، فيلسوف مغو بشكلٍ غريب بالنسبة للقرن الحادي والعشرين. هو تقريباً، أوّل مفكّر غربي كبير لم يحاول

---

1 العبارة باللغة الإنكليزية هي: REBARBATIVE BODHISATTVA (الكلمة الأولى تعني الكريه البغيض وغير الجذاب، الكلمة الثانية (من بوذية المهايانا)، الشخص القادر على الوصول إلى النيرفانا (السكينة والهدوء) لكنه لا يفعل ذلك انطلاقاً من (شفقته) لأنه يريد إنقاذ البشر الذين يعانون.

تبرير أساليب الله للإنسان – لأنه لم يكن لديه إله شخصي – كان الأول تحديداً في تقدير الهندوسية والبوذية، ومن الأوائل في رفض بدهية ثنائية العقل والجسد، في الفلسفة الغربية، منذ أيام أفلاطون. لقد قاده هذا، من بين العديد من الأشياء الأخرى، وبصدق عصري مذهل، لإدراك مركزية الجنس في حياة البشر. صرّح قائلاً: "**ليست الرغبة الجنسية هي الرغبة الأقوى فقط، لكنها على وجه التحديد، النوع الأكثر سلطة بين كل الرغبات الأخرى**". وبالمثل، عارض تشريح الحيوانات الحيّة، لأنه لم يلحظ أيّ فارق ما بين الحيوانات والبشر، مع أن ذلك كان أمراً مفروغاً منه في ذلك الحين.

لقد جعل هذا من شوبنهاور، شخصاً مختلفاً بشكل ممتع عن معظم الفلاسفة الغربيين السابقين، الذين كان العالم غير الأوروبي غير موجود تقريباً بالنسبة لهم. كان لديه خصيصة نادرة أخرى، فقد كتب بشفافية، وغالباً ببراعة، ومتحرراً عادة من الرطانة الفلسفية. بسبب ذلك، ومع الأهمية الخارقة التي أعطاها للفن، فقد تمت قراءته بشكل واسع جداً خارج الأكاديمية، من قِبَل كتّاب متنوعين من أمثال تولستوي، هاردي، كونارد، بروست، توماس مان، بيكيت، بالإضافة إلى ويلبك. كما أعلن توماس مان أن "شوبنهاور، بوصفه عالماً نفسياً للإرادة، هو الأب لعلم النفس الحديث كله"، وهو إعلان اعترف به فرويد. وعلى أية حال، فقد تخطّى شوبنهاور فرويد ذاته في تشاؤمه حول المأزق البشري. أما بالنسبة لعصرنا الحديث، حيث القلق مترسّخ بشكل كبير لدرجة أصبح من المحتمل أن يصبح الموضة الجديدة، فقد يظهر شوبنهاور على شكل الرسول المثالي، للتشاؤم الإنساني المستنير.

تهيمن نظرة شوبنهاور القاتمة نحو العالم الذي يعتبره مكاناً للحزن الذي لا خلاص منه، على أعظم مؤلفاته "العالم كإرادة وتصوّر"، وقد نشر هذا الكتاب في العام 1818 حيث كان في الثلاثين من عمره.

إن ارتفع حجاب مايا، وهو مبدأ التمييز، عن عيني الإنسان، بحيث لم يعد يميّز ما بين ذاته وشخص آخر بشكل أناني.... عندها سيتبع ذلك بشكل أوتوماتيكي، أن يتلمّس هذا الإنسان ذاته الحقيقية والداخلية في جميع الكائنات، كما يجب عليه أن يعتبر أن معاناة أي كائن آخر هي معاناته الخاصة..... لم تعد هناك أية معاناة غريبة بالنسبة له..... وكيفما نظر، يرى الإنسانية تعاني، وعالم الحيوان يعاني وهذا العالم يتلاشى.

لقد ظلت وجهة نظره الجوهرية هذه ثابتة طوال حياته. **"ليس هناك من شيءٍ مفيد لك أكثر من تعويد نفسك على اعتبار هذا العالم نوعاً من المستعمرة العقابية.... يعتبرُ المرء بالفعل، أن الشكل المناسب لتوجيه حديثٍ ما إلى هذا الإنسان أو ذاك، يجب ألّا يكون من خلال لقب السيّد أو الأستاذ أو غيرها، بل الزميل المتألم"**، لقد ألف كتاب "مقالات قصيرة في الفلسفة" – وهو العمل الأخير له، الذي كتبه في العام 1851– وكرر فيه أعماله السابقة بشكلٍ مختصر وسريع. وبسرعة، وبعد نشر هذا العمل، بدأ أخيراً يكسب موقعه الصحيح كأعظم الفلاسفة الألمان الأحياء تقدماً، بل الأعظم في أوروبا كلها. لقد عانت هيبته من كسوف جزئي في القرن العشرين، لكن من الممكن القول إن حروب القرن والفظائع الأخرى، تبرر تشاؤمه بشكلٍ كامل. لكن الظل التعيس الذي ألقاه على نفسه، عمل دائماً على طمس فلسفته. فهو لم يكن فقط من بين جميع

الفلاسفة، أعظم كاره للإنسان، والشخص الذي ليس لديه أصدقاء حقيقيون ولا عائلة حقيقية، بل كان كارهاً للجنس الأنثوي دون منازع له في السجلّات الأنثويّة للفكر الغربي، وكان لديه ردود أفعال أنانية لا خجل منها، كما كان أبخل وأكثر غضباً من أي (سكروج)[1].

بالنسبة لشوبنهاور، ومع عدم امتلاكه للعقل الهادئ لفيلسوف، فقد كان باعترافه الشخصي، عِرضَة لـ "فقدان الثقة وسرعة الهيجان والعنف والغرور". وهو، بشكل غير مفاجئ، وبتصريح كهذا، لم يتزوج، وعاش وحده بشكل كامل تقريباً كل مرحلة بلوغه. كان مذعورا من احتمال تعرّضه للسرقة، ولا ثقة لديه بأي شخص، بدءاً من البنك الذي يضع فيه أمواله. كما اعتاد الإصرار على أن يأتي موظف البنك أسبوعياً إليه، ويجلب فائدة عائدات ثروته (الكبيرة) إلى مكان إقامته ليتم حسابها. لقد أخفى أكواماً من النقود الذهبية تحت مستودع الحبر لديه، وأخفى بيانات عائداته بين صفحات مفكرته أو بين الكتب، كما كان يشتم بشكل مريع مدبّرة المنزل، إن اكتشف أنها حرّكت أو حتى أزاحت الغبار عن أي شيء ذي قيمة بالنسبة له، وكان يذهب يومياً إلى حلاقه و"يرتعش" من احتمال أن يقرر الأخير فجأة أن يقطع عنقه.

كان من الناحية السياسية بعيداً نحو اليمين وربما كان لمخاوفه أساس ما. خلال ثورة الحرية الفاشلة في عام 1848 في فرانكفورت، رحّب بالقوات الحكومية في منزله، بشكل يمكنهم به أن يطلقوا النار على المتظاهرين — الرعاع الذين من المحتمل

---

[1] سكروج: (إيبنزر سكروج – إو إيبنزر البخيل) اسم أحد الشخصيات في قصة "عيد ميلاد كارول" لتشارلز ديكنز. شخصية رجل عجوز يكره أعياد الميلاد، وبعد أحداث معينة تتغير حالته ويتحول من شخص بخيل إلى شخص كريم. المترجم.

أنهم هددوا عائداته (غير المكتسبة). لقد اتخذ وجهة النظر (الهوبيسية)[1] القاتمة حول المجتمع والحكومة، معتقداً أن الحكومة السلطوية ضرورية، وتلك المحاولات (الميليوريسية)[2] لتحسين الحياة سياسياً واجتماعياً، كانت عديمة الجدوى إن أخذنا بعين الاعتبار الشرّ المتأصل في البشر. "**المنبع الرئيس لأعظم الشرور الخطيرة المؤثر على الإنسان هو الإنسان نفسه: الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان.... يتميّز سلوك البشر أحدهم نحو الآخر بالظلم كقاعدة عامة، ظلم مفرط وصلابة، بل قسوة حتى..... تُبنى الحاجة للدولة والتشريعات على هذه الحقيقة**".

كان (مونتين) قد كتب مردداً قول أرسطو: "لتعيش في عزلة، يجب أن يكون للمرء مزاج إله أو مزاج وحش". أما بالنسبة إلى شوبنهاور شبه الناسك، فقد هيمن الوحش، كما اعترف بنفسه بصراحة نموذجية:

لقد لعبت الطبيعة دورها في تقسية قلبي عبر تزويده بانعدام الثقة وسرعة الغضب والعنف والغرور... ورثت عن أبي ذلك الخوف الذي ألعنه أنا نفسي... وتصارعت مع كل قوة الإرادة التي لدي، لكنها كانت تغمرني لدى أصغر الأحداث بقوة كبيرة، بحيث أرى بشكل واضح أمامي، المشاكل التي لا تعدو مجرّد احتمال، أو حتى التي لا يمكن تخيلها إلا بصعوبة.... وكشاب يافع، فقد تعذّبت بسبب الأمراض والمشاجرات التي أتخيلها..... أخرجني الخوف من الجدري من مدينة نابولي، وأخرجني

---

[1] هوبيس: فيلسوف إنكليزي وسياسي يتبع النظرية المادية، دافع عن السيادة المطلقة كنوع من الحكم الوحيد الذي يمكنه حل المشاكل الناجمة عن أنانية البشر، عاش بين عامي (1588 – 1679). المترجم. •

[2] الميلوريسية: هي فكرة في الفكر الميتافيزيقي تقول إن التطور مفهوم واقعي يؤدي إلى تحسين العالم، وإن بوسع البشر من خلال تدخلهم بالعمليات التي كانت ستحدث بشكل طبيعي، أن يقدموا نتيجة هي تحسين للحالة الطبيعية المذكورة سابقاً.

الخوف من الكوليرا من برلين. استولت عليّ في فيرونا، فكرة أن أستنشق سمّاً.... كلما سمعت صوتاً في الليل، أنهض من سريري وألتقط سيفي وبندقيتي التي أتركها مذخّرة دائماً.

وقد أشارت والدته، في إحدى مراسلاتهما النادرة اللاحقة: "لقد أمضيتَ شهرين في غرفتك من دون أن ترى شخصاً واحداً، هذا غير جيد يا بني".

كان رأيه بالآخرين أكثر سوءاً من رأيه بنفسه وخاصة بما يتعلّق بالنساء:

النساء مؤهلات لأن يكنّ ممرضات ومعلمات في طفولتنا، لأنهنّ أنفسهنّ طفلات على وجه التحديد، وسخيفات وقصيرات النظر، وهنّ بكلام مُختصر، طفلات كبيرات طوال حياتهنّ، نوع من الحالة المتوسطة ما بين الطفل والرجل، "الرجل" الذي هو الإنسان الحقيقي..... يستطيع الفكر الذكوري فقط، الذي يسيطر عليه الدافع الجنسي، أن يستدعي النوع الضعيف، ذا الأكتاف الضيقة والورك العريض والأرجل القصيرة، الجنس اللطيف..... الأكثر ملاءمة..... يجب تسمية النساء بـ "الجنس غير الجميل". ليس لديهنّ أية مشاعر حقيقية مُتلقية للموسيقى أو الشعر ولا للفنّ التشكيلي.

لقد مارس بكراهية النساء هذه، ما بشّر به على الأقل، فهو لم يتزوج، ولم يكن لديه علاقات جنسية مع النساء في مجتمعه، ولا على المستوى الفكري — هذا صعب جداً، لكنه ليس مستحيلاً على رجل ذكيّ كهذا الرجل - مفضلاً بدلاً عن ذلك، رفقة الخادمات أو الممثلات. لقد تصرّف بشكل سيئ حتى معهنّ. تلك الكراهية للناس جميعاً، وللنساء بشكل خاص، تجعل إهماله النسبي مفهوماً أكثر. لكنه يبقى من بين الفلاسفة الغربيين الأعظم

والأكثر راديكالية، الذين حاولوا إعطاء نظرة ميتافيزيقية موحّدة للعالم، وهو الشيء الذي أهمل القيام به، التحليليون المنطقيون في القرن العشرين.

اعتبر شوبنهاور نفسه الوريث المباشر و(الوحيد) لأعظم فيلسوف غربي منذ أفلاطون، وهو (كانط) الذي توفي في العام 1804، لكن أفكاره وحتى لغته في بعض الأحيان، استحضرت الطريقة البوذية. توصل بشكل حاسم لاستنتاجات حول الوحدة الجوهرية للعالم الحدسي، (الوقع المطلق غير القابل للإدراك)، وهذا أقرب للبوذية والهندوسية من كانط. بالنسبة لكانط والبوذية معاً، كان هناك سويتان من الواقع، ونستطيع اختبار واحدة منهما فقط عبر الحواس. ميّز كانط بين الظاهرتين، أي بين العالم المحسوس بالتجربة، والحدس الذي هو عالم مجهول بطبيعته. واقتنع بأن ما نختبره، يتم تحديده بشكل كبير، من خلال أجهزتنا الحسيّة – تبقى الأشياء كما هي في المكان والزمن، لأن تلك هي الطريقة التي نستطيع رؤيتها بها. وبالمثل، تعتبر البوذية أن عالم (السمسارا)[1]، العالم المُختَبَر العادي المحتوي على كينونات منفصلة، يشبه الواقع التقليدي ببساطة، بمعنى أن الفردانية عبارة عن وهم في المستوى الأعمق منها. وتحت كل شيء هناك اللا شيء، (الشنياتا)، الكل الذي لا يتجزأ، الموجود في قلب كل شيء.

لم يتوافق شوبنهاور مع كانط، لكنه توافق كثيراً مع الفكر الشرقي، وأدرك أن العالم الحدسي، يجب أن يكون مفردا واحدا غير متمايز، لأنه عندما يأخذ خصائص متمايزة، يصبح جزءاً من عالم الظواهر. تلك الوحدة الحدسية، التي أسماها (Ding an

---

[1] السمسارا: دورة الموت وإعادة الولادة، التي يلتزم بها العالم المادي في الثقافة البوذية. المترجم.

sich) [1] (الشيء بحد ذاته)، متّبعاً بذلك كانط والمصطلح الخاص به وهو الإرادة، والتي تكمن تحت عالم الظواهر من الحياة اليومية التي نعيش فيها، لكن من الممكن، في مناسبات نادرة جداً، أن يتم اختبارها بشكل مباشر. هذه التجربة المحررة بشكل متسام لكنها غير القابلة للوصف، يمكن تلخيصها في العبارة السنسكريتية (Tat tvam asi) : "أنت ذاك".

صرّح شوبنهاور بوصوله إلى استنتاجاته بشكل مستقل عن التفكير الهندي. على أية حال، لقد قرأ (Oupnekhat) – قدم له المستشرق (فريدريك ماجر) تلك الترجمة اللاتينية للنسخة الفارسية من (الأبنيشاد) في العام 1813، وهي عن الأصل بطريقة ما، أثناء إنهائه لأول أعماله الكبرى، لذا لا يمكن استبعاد التأثير الهندي بشكل كامل. وقد أطلق على أول كتاب له اسم "الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية" إذ كان لديه دائماً موهبة اختيار العناوين غير الجذابة. وكان شوبنهاور قد وصل من خلال المنطق النقي، إلى ما ادعى المفكرون الروحانيون معرفته من خلال التأمل والنظرة المباشرة. وبما أن الطرق التي قادت إلى تلك الاستنتاجات مختلفة، فقد كانت ردود الأفعال عليها مختلفة أيضاً. ولم تتمكن وجهات نظر (سيدهارتا غوتاما بوذا) و(أرثر شوبنهاور) المتقاربة عن الكون وتشخيص حالة الإنسان، من إخفاء الهوّة السحيقة بينهما كرجلين.

كان بوذا، مثل جميع الحكماء العظام، معروفاً بتعاطفه ونزعته للإحسان. لقد غلف تعاليمه بالحقائق الأربع النبيلة التالية: جميع الكائنات الحية تعاني (dukkha)، تنبع المعاناة من الرغبات الفردية الشديدة التي لا تشبع (tanha)، يمكن للمعاناة

[1] عبارة مأخوذة من فلسفة كانط وتعني التعامل مع الشيء كما هو بحد ذاته، وليس من خلال الإدراك عبر الحواس أو من خلال المفاهيم. المترجم.

أن تنتهي من خلال القضاء على الفردية والرغبات الشديدة (nirvana)، أفضل طريق لتحقيق ذلك من خلال الدرب الثُمانيّ النبيل[1]، "طريقه الأوسط" (magga) ما بين الزهد والتسامح الذاتي. يمكن لأي شخص أن يحقق ذلك، سواء أكان ذكراً أم أنثى، غنياً أم فقيراً، من مرتبة عالية أو متدنية اجتماعياً. إن أخذنا المعايير الطبقية الصارمة في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد كان ذلك طريقاً ديمقراطياً جداً من أجل الحرية. ولازالت حياة بوذا وتعاليمه، تلهم الملايين. هناك مفهوم مهم في البوذية وهو (البوديساتفا)، الكائن الأشبه بالقديس، الذي جعله تعاطفه يعود أدراجه عند أعتاب النيرفانا، من أجل مساعدة الإنسانية المعذّبة، للوصول إلى الاستنارة. إن التعاطف من خلال الممارسة، هو الفضيلة البوذية الأساسية.

لم يكن لدى شوبنهاور مفهوم مشابه لهذا المفهوم أبداً. لقد رأى مثلما رأى بوذا، أن معاناتنا تُستَمدّ من إيماننا الخاطئ بالوجود المنفصل لذواتنا الفردية. ومثل بوذا أيضاً، رفض المفاهيم الهندوسية حول التناسخ الكامل، كما دعا إلى تجاوز الرغبة الأنانية بُغية التحرر من المعاناة التي تتسبب بها مساعينا نحو الرغبة الفردية (كشيء متمايز عن الإرادة الكونية، أو الشيء بحدّ ذاته). ويمكن تحقيق هذا الأمر من خلال الزهد المنضبط وإنكار جميع متع الحياة، بحيث تختفي (الأنا) الفردية الوهمية، وأحياناً وبشكل حرفي، عبر الجوع حتى الموت، بشكل نسمح فيه بالاتحاد مع الحدسي. إنها تقليدية (معقولة) حتى الآن، على الرغم من أن شوبنهاور، لم

---

[1] بالنسبة لبوذا، تزداد الفائدة من التأمل كلما ارتقى الإنسان في سلّم الأخلاقيات، ويتكون الطريق الثُمانيّ الذي يؤدي في النهاية إلى زوال الشقاء من البنود التالية: الرؤية السوية، التفكير السوي (أو النية الحسنة)، الصدق، السلوك السوي، الكسب السليم للرزق، الجهد السوي، الانتباه السوي، وأخيراً التركيز السوي. المترجم.

يوصّف النظام المحدد الواجب اتباعه للوصول إلى النهاية. (وبالطبع، الحدسيّ يعبّر عن الله بالنسبة للعديد من الصوفيين الغربيين، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لشوبنهاور).

كانت احتمالات التحرر عبر الفنّ أكثر أصالة وجذباً بالنسبة لشوبنهاور والعديد من قرّائه. قال شوبنهاور: **"عندما يحدث الإدراك الجمالي، ستختفي (الإرادة الفردية) بشكل كامل من الوعي. لكن الإرادة هي مصدر جميع المشاكل والمعاناة".**

ثم يأتي السلام فجأة، مسعانا الدائم الذي يهرب منا دائماً.... يأتي إلينا من تلقاء نفسه، ويكون كل شيء جيداً بالنسبة إلينا. إنها حالة اللا ألم، التي يقيّمها أبيقور على أنها الخير الأسمى، حالة التماثل مع الله، وفي تلك اللحظة، نتخلص من كل الضغط التعيس للإرادة. نحتفل بسبت[1] الراحة من العبودية العقابية للإرادة، تقف عجلة (إكسيون)[2] عن الدوران.

وحيٌ كهذا ليس لكل شخص على أية حال. وها هو يتابع كلامه بطريقة نخبوية ومن دون أي حرج: **"يجب أن تبقى أكثر الأعمال جودة من أيٍ فن، وأفضل إنتاج العباقرة، محفوظة في كتبٍ مغلقة أبداً بالنسبة للغالبية الغبية من الناس، ولا يجب أن يكون لديهم إمكانية الوصول إليها، بل تفصلهم عنها هوّة واسعة كتلك التي تفصل الأمراء عن**

---

[1] سبت الراحة: بحسب التوراة، لقد خلق الله العالم في ستة أيام وارتاح في اليوم السابع وكان يوم السبت. المترجم.

[2] إكسيون: حسب الأسطورة الإغريقية، هو ملك لابيثوس الذي قتل والد زوجته كانتقام عن خلاف شخصي، مما جعل جيرانه الأمراء يشعرون بالإهانة ويرفضون طقوس تطهيره من الذنب، ويحكمون عليه أن يعيش منبوذاً. ترأف به زيوس، وأجلسه على طاولة سادة الأوليمب، وبدلاً من شعوره بالامتنان راودته رغبة بـ (هيرا) زوجة زيوس. وهنا أمر زيوس هرميس بإنزال عقاب أبدي على أكسيون، يتمثل في تقييده على حافة عجلة مشتعلة تظل تدور حول السماء إلى الأبد. المترجم.

عامة النـاس". لم يكـن ذلـك عجرفـة تافهـة وحسـب، لأنـه وبالنسبة لشوبنهاور، يرتقي تبجيـل العبقريـة الفنيـة، بشـكل حرفي، فوق كـل شـيء. "**وبشـكل دائـم، أن تـرى الكـونيّ في الخاص، هو بالضبط، الميـزة الأساسية للعبقريـة دومـا، في حين يُدرك الشخص العـادي في الخـاص، الخـاص فقط كما هو.... ما يثير إعجابه هو ما يرتبط بإرادتـه**". والأكثـر من ذلك، كلما كانت العبقريـة أعظـم، كـان الألم الـذي يختـبره المرء أعظم. لقد صرّح قائلاً: "**يعاني الشخص العبقـري أكثـر من الجميع**". الفنان العبقري الذي يـدرك الحدسـيّ في لحظـة وجيزة فقط، ومن ثم يعود إلى الوجود (المعذّب)، يخلق أعمـالاً فنيـة تمـنح الآخـرين مواسـاة وجيـزة مـن حالـة مـن الصـفاء الجمالي. وبهذا، فإن الفنان الحقيقـي يشـابه (البوديسـاتفا)، الذي يعود لمساعدة البشرية.

لقد قدر شوبنهاور، هذا الرجل المثقف بشكل استثنائي، الفنون جميعها من الدراما إلى الرسم واعتـبر العمـارة أدنـى مرتبـة بشـكل واضح لأنها كانت نفعية جزئياً في بعض الأحيان، كما راوده القلق من رسم أطباق الفواكه، مثل لوحات الطبيعة الساكنة الهولنديـة، لأنها من الممكـن أن تكـون جذّابـة حسـياً بحيـث تهـيّج الرغبـة، وتلغي الانفصال الضروري. وبشكل غريـب، كـان أقـل قلقاً حـول الجاذبية الشهوانية الواضحة التي تعود لمعظم الفـنّ الغربـي، مـع هوسها المتكرر بعري الأنثى.

لم يعتبر الموسيقى أرقى أشكال الفنّ فقط، بـل إنهـا تقبـع في سـوية مختلفـة تمامـاً. لقـد رأى بالموسـيقى – "**اللغـة الكونيـة الحقيقية التي يمكن فهمهـا أينمـا كـان**" – التعـبير المباشـر عـن الرغبة الحدسية. إن الفنون الأخرى تحاكي عالم الأفكـار وأشـكال العناصر المتداخلة بين مجال الحدس ومجـال الظـواهر. (كـرر هنـا

أفكارٍ أفلاطون حول أشكال المُثل، وإن كان بطريقة غير تقليدية أبداً). لكن "الموسيقى، **وبما أنها تعبر فوق الأفكار، فهي مستقلة تماماً عن عالم الظواهر، وتتجاهله بشكل إيجابي، وإلى حدّ ما، يمكن أن تبقى موجودة حتى وإن لم يكن هناك عالم على الإطلاق، وهذا ما لا يمكن قوله عن الفنون الأخرى.... ولذلك** فإن الموسيقى، **لا تشبه على الإطلاق الفنون الأخرى التي تُعتبر نسخة عن الأفكار، لكنها نسخة عن الإرادة ذاتها**". إن شوبنهاور في الواقع، توقّع أن يحظى الفن بدور شبه مقدس، على مدى المئة والخمسين سنة القادمة، بالنسبة للعديد من الناس الأعلى فكراً والأكثر رهافة في الغرب.

لكن كما تبدو لنا حياته التعيسة، فإن الخلاص عبر الفن لا يضمن الاستنارة ولا التحرر. بينما كانت حياة العديد من الفلاسفة مضطربة، لايزال مثيراً للاستغراب أن يكون مؤلّف كتب مستنيرة وصادقة كهذه، شخصاً أنانياً وغليظاً وكئيباً، كما أن معاملته للآخرين وليس للنساء فقط، تُعيب أي رجل عادي، ناهيك عن فيلسوف. لا يمكننا أن ننسب هذا إلى أي حظ عاثر واضح أو إلى مرض صحي. لقد كان ثرياً ومعافى ووسيماً، ولديه الكثير من المعارف عندما كان شاباً، كما كان متحدثاً رائعاً عندما يرغب. اختار شوبنهاور أن يعيش حياة العزلة من دون عائلة، وحتى من دون عشيقة في معظم الأوقات. وكانت علاقته سيئة مع والدته بشكل خاص، وهو لم يرها للسنوات العشرين الأخيرة من حياتها، وكان لديه قليل من الأصدقاء الحقيقيين، وخاصة في حياته اللاحقة عندما أصبح عبداً للجدول الزمني الخاص به.

للسنوات السبع والعشرين الأخيرة، اتبع هذا الرائد الفكري الجسور، نظاماً صارماً مفروضاً على نفسه كما لو أنه سجين:

ينهض يومياً في السابعة صباحاً، يستحمّ ولا يتناول طعام الإفطار، يعمل على كتاباته (التي تجاهلها لفترة طويلة) حتى الظهر، ويعزف بعدها على الفلوت — كان ماهراً جداً لكنه يعزف فقط من أجل متعته الخاصة — يمضي وقتاً طويلاً بتناول غدائه الباذخ وحده في فندق (إنغليشر هوف) أفضل فندق في فرانكفورت، يتحدث أحياناً مع الضيوف الأجانب الأكثر ذكاء أو مع ضباط الجيش. يعود بعدها لقراءة الصحف في المكتبة، كانت صحيفة التايمز اللندنية هي المفضّلة لديه، ثم يأخذ وحده أيضاً، واحداً من سلسلة كلابه المحبوبة في نزهة، ويكون (Atman) عادة، الذي استقى اسمه من اللغة السنسكريتية، وغالباً ما يتمتم متحدثاً لنفسه أثناء نزهته. لاحقاً، يحضر مسرحية أو حفلاً موسيقياً، ومرة أخرى وحده، وقبل العودة إلى البيت، وكما لو أنه شبِعَ من الرفقة طوال النهار، يرفض جميع الزوار غير المدعوّين قبل الذهاب إلى النوم في العاشرة. يشبه هذا الروتين الثابت، بشكل سطحي ذلك الروتين الذي كان لبطله كانط، الذي كان يسير يومياً حول كونغسبيرغ بلده الأم، حيث كان دقيقاً جداً بالمواعيد، لدرجة أن يقوم المواطنون بضبط ساعاتهم على مروره. لكن كانط كان رجلاً اجتماعياً مرحاً، وقد سمحت عاداته العادية لأفكاره بأن تتطور وتنضج على مدى حياته الطويلة. على النقيض من ذلك، كانت صرامة شوبنهاور موجّهة نحو الخارج، كان التشاؤم القاسي يتحكم بحياته وعمله، وينتج عن عُصاباته المتعددة.

يجب البحث عن جذور تشاؤم شوبنهاور وكراهيته للجنس البشري، في الصدمات التي تلقاها في طفولته وشبابه بدلاً من البحث في فلسفته الكانطية والبوذية، التي أكدت نتائجها حالة التشاؤم لديه. ربما كان هذا التشاؤم غريزياً، أو وراثياً

جزئياً بطريقة ما. فعلى عكس كثير من الفلاسفة الألمان الآخرين، لم يكن والد شوبنهاور رجل دين فقيراً سامي المبادئ، بل تاجراً ثرياً عالمياً مثقفاً شديد التجهّم، وكان من مدينة (دانسك) – وهي الآن (غدانسك) في بولندا، وهي منطقة حرة تجارية ألمانية يديرها تجار أرستقراطيون من أمثال والده هاينرش فلوريس شوبنهاور. كانت دانسك مع ذلك، تخضع للتهديد بسبب الحكومة السلطوية العسكرية العدوانية المتنامية في بروسيا. وبالمقابل، أُعجِبَ هاينرش شوبنهاور بالحريات السياسية والتجارية البريطانية. في أواخر العام 1787، أخذ زوجته الشابة الحامل جوهانا إلى إنكلترة. ربما فكّر بالاستقرار هناك والحصول على الجنسية البريطانية لولده الذي لم يولد بعد، لكنه غيّر رأيه لسبب ما، وعاد الزوجان على عجل وعبر طرقات وعرة إلى دانسك، خلال فصل الشتاء الشمالي، حيث وُلِدَ آرثر في الثاني والعشرين من شباط في العام 1788.

كان آرثر مبتلىً بأمٍ كرهت أطفالها بشدة. (كان لابنتها أديل، التي وُلِدَت بعد تسع سنوات، حياة مثيرة للشفقة). لم يكن الأمر نادر الحدوث في ذلك الوقت، لم تتزوج جوهانا، كالعديد من النساء في سويتها، بدافع الحب بل لترضيٍ عائلتها – كان هنري شوبنهاور أكبر منها بتسعة عشر عاماً. على أية حال، كان لديها مبرراتها لتشعر بسوء المزاج، لكونها تبقى مهجورة معظم أوقات السنة، في عزبة شوبنهاور الريفية والتي لا يزورها سوى هاينريش، وفقط في العطل الأسبوعية. أصبحت جوهانا المرحة الاجتماعية بطبيعتها، مُحبطة وتشعر بالملل، وبشكل خاص مع ابنها. وقد كتبت لاحقاً بشكل ساخر: "مثل جميع الأمهات الشابات، أنا أيضاً، لعبت بلعبتي الجديدة"، لكنها لم تجد الكثير من المتعة في ولدها في أي سن. ربما كان

هذا النقص في العاطفة الأمومية العفوية – على الرغم من أنه لم يتلقَ سوء معاملة من والديه – سبباً في فشله طوال حياته، بأن يعطي أو يتلقّى أي دفء عاطفي من خلال علاقات عاطفية إنسانية. لقد عمّقت حالات الرفض أو الازدراء اللاحقة جراح طفولته بشقيها، الشخصي الذي تسببت به والدته بشكل خاص، والمهني المتعلّق بالبيئة الأكاديمية الألمانية

عندما ضمّت بروسيا دانسك في العام 1793، انتقلت عائلة شوبنهاور إلى ميناء هامبورغ الأكبر، وهي أيضاً مدينة حرّة، حيث ازدهر هاينريش أكثر، واشترى بيتاً أكبر. لقد كبر الفيلسوف المستقبلي المنعزل، في واحد من أكبر البيوت في أغنى المدن الأوروبية، يتميز بوجود صالة حفلات تستقبل فيها والدته مجتمع المدينة المخملي (كان من بينهم كتّاب وفنانون، لأنه كان لديها طموحات أدبية). وفي الوقت نفسه، دخل ابنها إلى المدرسة مع أولاد تجّار أغنياء آخرين، حيث تعلّموا بشكل رئيس، ما هم بحاجة إليه ليصبحوا هم أنفسهم تجّاراً دنيويين أغنياء. وعلى الرغم من قناعته بما يحصل عليه من معلومات في البداية، إلا أنه اكتشف تدريجياً، رغبته بأكثر مما هو مُتاح في المدرسة، إذ كان يريد أن يدرس اللغة اللاتينية والإغريقية – كان للأولاد بعض الدروس الرمزية في اللغة اللاتينية – الضرورية من أجل الجامعة، والتي لا علاقة لها بالتجارة. لقد قرر والده أن يجعله يتولى أعمال العائلة، لكنه قرر أولاً استغلال فترة السلام أثناء الحرب ما بين فرنسا وبريطانيا في العام 1803 من أجل السفر.

عرض الوالد عليه بمكر ودون تساهل أحد خيارين: إما مرافقة العائلة في رحلة كبيرة لسنتين، إلى بريطانيا وفرنسا والعودة بعدها للاستقرار بمهنة التجارة، أو البقاء بهدوء لمتابعة الدراسة في

الجامعة. بالتأكيد، اختار شوبنهاور ابن الخامسة عشرة، الخيار الأول رغم شعوره بالذنب لتخليه عن منحة دراسية لعالم برّاق أعظم. ومع ذلك، استمتع برؤية المجتمع اللندني (على الرغم من أنه لم يكن له أكثر من بضعة أسابيع في المدرسة الداخلية) وتسلق الجبال في جنوب فرنسا، ونقلته تلك العظمة إلى إثارة من نوع جديد. لكن رؤية ستة آلاف أسير يجذفون في السفن في تولون نقلته إلى رعب جديد. "**في عامي السابع عشر..... كنت أسيرَ بؤس الحياة، كما كان بوذا في شبابه عندما رأى المرض والألم والشيخوخة والموت...... كانت النتيجة التي وصلت إليها، أن هذا العالم لا يمكن أن يكون من عمل كائن جيد بالمطلق، بل هو بالأحرى، من عمل الشيطان الذي أحضر إلى الوجود مخلوقات للاستمتاع في معاناتها**". كانت تعاسات الحياة تستحوذ على المراهق سلفا.

في الوقت المحدد، عادت العائلة إلى شمال ألمانيا، حيث تنتظر الشابّ حياة جافة يتعلّم فيها التجارة في شركة التمويل. لقد أنقذه من ذلك، الموت المفاجئ أو الانتحار — لوالده الذي قفز أو سقط من نافذة المستودع في العام 1805. كانت تظهر على هاينريش شوبنهاور منذ فترة، ملامح مرض نفسي وجسدي، ولذلك لم يكن موته مفاجئاً تماماً. شوبنهاور، الذي بدأ يُعجب بوالده الميت أكثر منه عندما كان على قيد الحياة، لم يعترف أبداً بأن موت الوالد كان انتحاراً. لقد آمن بشكل كبير، بأننا نرث الشخصية من آبائنا والذكاء من أمهاتنا، وهذا اعتقاد غريب في الظاهر، إن أخذنا بعين الاعتبار مقدار عدم التطابق بين ذكاء والدته وذكائه الشخصي، وهو شيء غير مدعوم من علم الوراثة. لكنه احتقر شخصية والدته، مقللاً من قيمة مواهبها الأدبية المتأخرة

الإزهار، بينما احترم في وقت مبكّر. والده كرمز للنبالة الفَطِنة المهملة من زوجته التافهة. (كان شوبنهاور نفسه يرفض الانتحار على الدوام، بحجّة أنه يقدم احتمالاً زائفاً للهروب من الحياة، على الرغم من أنه أظهر استقلاله المعتاد في تسفيه القوانين التقليدية التي تقف ضده).

صممت جوهانا، التي أصبحت حرة في النهاية من زوجها العجوز، على عيش حياتها كما أرادت. باعت البيت وأعمال العائلة وغادرت في العام 1806 مع أديل إلى فيمر، وهي مقاطعة مستقلة صغيرة مضاءة بروعة رئيس وزرائها (جوهان وولفغانج فون غوته). كان غوته شاعر ألمانيا الأعظم، وأعظم كاتب مسرحي، وأعظم رجل في الكتابة وأعظم رجل في العلم. كان في الواقع رائعاً في كل شيء تقريباً ما عدا الفلسفة. وبسرعة جعلت جوهانا من نفسها أفضل صديقاته – لكنها ليست محبوبته – والمضيفة الأذكى في فيمر. كان الأخوة غريم، مؤلفو قصص أطفال، من بين الزوار المميزين أيضاً. وأياً كانت عيوبها – تبدو وكأنها كانت مغرورة، وكانت من "المولعات بالفن" بشكل غبي – فهي لم تكن مملّة بالتأكيد. لقد أصبحت ناظمة للشعر ومؤلفة الروايات، حتى إن فرانس شوبيرت ألّف موسيقى لواحدة من قصائدها. ونجاح كهذا كان مثيراً للحنق بالنسبة لابنها المُهمَل منها منذ مدّة.

على الرغم من عدم وجود أعمال عائلية، حاول شوبنهاور في البداية أن يُخلص لرغبة والده المتوفى من خلال الاستمرار بالعمل (بشركة التمويل) في هامبورغ، لكن هذا القرار زاد من عمق اكتئابه. وتكشف إحدى القصائد الشعرية التي كتبها في تلك الفترة كلاً من كآبته ومحدوديته بوصفه شاعرا:

"في وسط الليل العاصف

استيقظت بخوف شديد

سمعت عويل العاصفة في الخارج......

لكن ليس هناك من بصيص نور،

ليس هناك من ضوء خافت

يمكنه اختراق الليل العميق..

وبعدها، سيطر خوف هائل علي،

شعرت بالقلق الشديد، وأنا وحيد ومنبوذ. "

هذه الأبيات نموذجية تماماً لشعر التشاؤم الرومانسي في ذلك العصر، وللمراهقة في أي وقت، ولا يمكن أخذها بجديّة. على أية حال، حثّته والدته التي لم تكن تصرّ أبداً على استمراره بعمله البغيض، على التخلي عنه. وقد كتبت له في آذار من العام 1807 : "اعرف بشكل جيد جداً قلة استمتاعك ببهجة الشباب، ومدى ميلك نحو الشرود الحزين الذي ورثته عن والدك". بتشجيع من جوهانا — ومن دونها ربما كان سيبقى مكتئباً في هامبورغ — أوقف حياة التاجر المتدرب في شهر أيارٍ من العام 1807 ودخل مدرسة ثانوية في غوثا استعدادا للجامعة، ولم تكن المدرسة بعيدة عن فيمر، لكنها لم تكن فيها بشكل فعلي. لم تكن جوهانا ترغب بأن يشبه الولد أباه، ولم تتخيله يعيش معها. كان آخر ما تريده أثناء تأسيسها لصالون تجذب إليه المجتمع المخمليّ في فيمر، وجود ابن مراهق مكتئب في البيت. حتى غوته صمتَ في البداية، عندما راقب ابن مضيفته المفعم بالغضب.

استخدم شوبنهاور، وللمرة الأولى في عمر التاسعة عشرة، قدراته الفكرية الكاملة، مثيراً إعجاب المعلمين بحيث أصبحوا يرونه كعبقري ناشئ. وعندما انتقل للعيش في فيمر لإكمال دراسته، عُرضَت عليه الإقامة في غرفة مفروشة، وليس في منزل والدته، وكان هذا صدّاً أمومياً جديداً جعله يتألم حتى وهو في سن العشرين. في العام 1809 التحق بجامعة غوتنجن ودرس الطبّ أولاً ومن ثم درس الفلسفة، والتهم أعمال أفلاطون وكانط وأصبح مفتوناً بالفلسفة. وفي تلك الفترة كتب لصديق العائلة كريستوف ويلاند الذي حذّره من أن الدراسة موضوع غير ذي فائدة: " **الحياة قضيّة بائسة. لقد قررت أن أقضيها محاولاً فهمها**". التزم طوال حياته بهذا الحكم وهذا القرار. وفي الوقت نفسه، قرأ بشكل واسع باللغات السبع التي كان قد أتقنها — اللاتينية، الإغريقية، الفرنسية، الإنكليزية، الإسبانية، الإيطالية بالإضافة إلى الألمانية. وعندما لا يكون منشغلاً بالدراسة، يعزف على الفلوت ويحضر المسرحيات والحفلات الموسقية ويتحدث إلى الطلاب الآخرين، مؤثراً بهم بفصاحته. وعلى الرغم من أنه كان راشداً، كانت والدته تحاول التحكم بالعائدات المالية من ثروة الأب، وكان هذا سبباً آخر للنزاع فيما بينهما. كان لديها شكوك أيضاً حول حكمة ابنها الذي توقعت منه أن يتزوج، لكنه أصبح فيلسوفاً، وهي المهنة المعروفة بأنها عديمة الفائدة المادية. لكن شوبنهاور كان مصرّاً على مهنته.

بنظرة ناضجة مبكرة، كتب ملاحظة في العام 1810: "**أبيقور هو فلسفة كانط العملية، تماماً كما كان كانط فلسفة أبيقور النظرية**". لم يرَ أبيقور أي نظام موجود في الكون، يستطيع توجيهنا نحو حياة جيدة، معتقداً أن على البشرية

تعريف الجيد الخاص بها بكلمة السعادة. وبشكل مشابه رأى كانط، الذي مات في العام 1804، لكنه كان لا زال يعلو على الفلسفة الألمانية، إمكانية تعلّم السببية والقيم من تجربة الإنسان بدلاً من ميزات يتم البحث عنها في العالم الخارجي. لقد انتقد كانط التوقعات التي تتجاوز مجال معرفة الإنسان، بينما رأى أبيقور العالم مهيمناً عليه بشكل كامل من قِبَل الصدفة. جعل كانط من نفسه مركزاً للفلسفة الأوروبية ، بجعله الَدور الخلاق للعقل الإنساني مركزياً.

كان في الجامعة الجديدة في العاصمة البروسية برلين، جيل جديد من الفلاسفة، يرأسهم جون فيشت، وجورج فريدريك هيغل، كانوا يناقشون أفكاراً أكثر تشويقاً إن لم تكن أكثر إثارة للجدل. التحق شوبنهاور بالجامعة في العام 1811 "على أمل أن يلقى في فيشت، الفيلسوف الحقيقي والروح العظيمة". خاب أمله في الحالتين، وصرخ معرباً عن سخطه من الغموض الفلسفي لفيشت، والذي شعر به الكثيرون منذ ذلك الحين: **"ما كان عديم المعنى والأهمية، اتخذ ملاذاً له في اللغة والشرح الغامض. كان فيشت هو الأول في الكسب والاستفادة من هذا الامتياز"**. وكان هيغل أسوأ حتى – **"ذلك الدجال الأخرق المقرف، ذلك الشخص الخبيث، المشوش تماماً والمدمّر لعقول الجيل بكامله"**. ومع ذلك، هيمن هيغل على التفكير الألماني في بداية القرن التاسع عشر.

استمر شوبنهاور بمهاجمة هذين المفكرين طوال حياته، مديناً ما رآه كغموض متعمد، تملقهما للسلطة وقلة إخلاصهما الفكري. **"فيشت.... وهيغل، ليسا فيلسوفين في رأيي، لأنهما يفتقدان للمطلب الأول للفيلسوف، وتحديداً للاستفسار بجدّية وصدق"**. هذه اللغة التي تخرج بشكل مذهل

عن نطاق نبرة الخلاف الثقافي الطبيعي، آذت سمعته وموقفه أكثر مما فعلت وجهات نظره الفعلية. وفي العام 1840، رفض المجتمع الملكي الدانماركي (الذي كان متقبلاً حينها للتطورات الثقافية الألمانية) تكريم شوبنهاور، لأنه أساء مرة معاملة مفكرين بارزين في عصره.

فجأة أصبح هذا العصر عصر نشاط سياسي في ألمانيا. في العام 1812 أطلق نابليون جيشه الكبير، عبر بروسيا 600.000 جندي قوي لمهاجمة روسيا. ولدى سماع أخبار هزيمته الهائلة في ذلك الشتاء في ثلوج روسيا، بدأت ألمانيا، التي كانت خاضعة لوقت طويل للقوانين الفرنسية، تتخمر بحماسة قومية. توافد العديد من الشباب الألمان وغير الشباب أيضاً، بمن فيهم فيشت السمين، للمشارِكة في النشوة الوطنية. لكن شوبنهاور لم يفعل. **"أنا لم أُخلق لخدمة الإنسانية بقبضة يدي بل بعقلي، كما أن وطني الأم أعظم من ألمانيا"**. لقد كتب باستقلالية رقيقة مبتعدا عن فيمر في أيار من العام 1813، حين كانت تدور في عقله أمور أكثر أهمية من حروب التحرر الوطني: **"ينضج في عقلي عمل معين، فلسفة ستكون أخلاقية وميتافيزيقية في آن معا"**.

وكما هو متوقع، تشاجر شوبنهاور مع والدته في فيمر، منتقلاً إلى نُزُل ريفي يكون فيه بعيداً عن أصوات المعارك، وكتب هناك (الجذرً الرباعي لمبدأ العلة الكافية). وقد أكسبه ذلك شهادة الدكتوراة من جامعة جينا، وقدّم نسخة موجّهة إلى والدته في فيمر في تشرين الثاني، فعلّقت بأن اسماً غريباً لكتاب بهذا الشكل، يجب أن يكون معدّاً للصيادلة. وردّ بدوره أن أعماله ستكون لا تزال تباع عندما تكون أمورها التافهة قد نُسيت. وأجابت هي بلطافة، بأنها ستكون كذلك في الواقع، ستكون النُسَخ التي طُبعت

للمرة الأولى لازالت معروضة للبيع. وبينما تشاحن هذان الخصمان الأدبيان، بدأ شوبنهاور بعلاقة مقتضبة مع غوته، لكنها كانت بالنسبة له حيوية.

لم يكن غوته متأثراً أيضاً بثورانٍ القومية الألمانية، كان معجباً بنابليون حتى في هزيمته، مستمرا بارتداء وسام جوقة الشرف الممنوح له من الإمبراطور. لقد أدرك غوته الذي كان محاطاً بالمتملقين العاديين، أن ذلك الطبيب الشاب كان لديه ذهن قوي مستقل استثنائي. وأمل بشكل خاص أن يدعم شوبنهاور وجهات نظره الافتراضية عن الطبيعة المُبتدعة للون، لأن متعدد أنواع الثقافة العظيم هذا، شعر بالأذى مما رآه كإهمال حاقد لنظريته عن الألوان، التي دحضت نظرية إسحاق نيوتن والنظرية الأساسية عن البصريات. كان شوبنهاور متعاطفاً، إذ تزامنت وجهة نظره حول مادية الوجود بشكل غريب مع وجهة نظر غوته. وطوال شتاء العامين 1813 – 1814 كان للرجلين محادثات طويلة وبعيدة جداً عن ثرثرة الصالونات، حول هذه المادة ومواد أخرى. عندما رحل شوبنهاور عن فيمر في شهر أيار، كتب له غوته رسالة وداع بين شخصين مميزين: "إن أردت أن تجد المتعة في الحياة، فعليك أن تمنح القيمة للعالم". واستمرا بالمراسلة لثمانية عشر شهراً، لكن الفتور أصاب صداقتهما عندما أدرك شوبنهاور أن غوته رآى فيه داعية لنظريته في الألوان فقط، بينما كان له أفكاره الخاصة المختلفة بشكلٍ متزايد، وهي موجزة في مقالة: "حول الرؤية والألوان". لاحقاً دعا غوته شوبنهاور "بالشاب الذي يستحقّ، المخطئ بالحكم عادة، والذي تصعب معرفته" وهذا حكم ألطف من معظم الأحكام الأخرى. كانت تلك علاقة الصداقة الوحيدة في حياة شوبنهاور، المتكافئة من الناحية الفكرية، لكنه من الآن ولاحقاً، سوف يفكر ويكتب وحده تماماً.

في أيار من العام 1814، تشاجر شوبنهاور مع والدته مرة أخرى وكان شجارا نهائياً هذه المرة، أصرّت جوهانا التي سئمت من وجوده في بيتها حتى كضيف يدفع الإيجار، على أن يبحث عن مسكن في مكان آخر بشكل تستطيع به أن تعيش حياتها الخاصة، إذ أصبحت شكوكٍ ابنها الغيور، تتضمن الآن وجود عشيق. وقد تجادلا أيضاً حول المال، وانتقل شوبنهاور إلى دريسدن. وهناك، وبعد قطعه معظم الروابط مع عائلته، أصبح أقرب إلى ناسك، مع أنه استمرّ بحضور المسرح والحفلات الموسيقية. والآن، وهو لا يزال في أوسط العشرينات، أصبح نموذجٍ حياته راسخاً: مثقف غريب الأطوار، ليس لديه أصدقاء تقريبا، يدفع أحياناً إلى الإعجاب، كما يخشاه الناسٍ غالباً بسبب فطنته الكبيرة، لكنها لاذعة، كما أنه لم يكن محبوباً أبداً.

في أثناء ذلك، عزز وجهات نظره بقراءة (Oupnekhat)، وعمل بشكل كبير على تحفته الفنيّة "العالم كإرادة وتصوّر" والعنوان باللغة الألمانية هو (Die Welt als Wille und Vorstellung) وكلمة "Vorstellung" يمكن ترجمتها عادة بمعنى التمثيل أو التوضيح، كما تعني أداء دور في أوبرا في ألمانيا، -وقد ضاع الالتباس في الترجمةِ-. رأى في مبدأ (المايا) الهندي، وهو حجاب الوهم، مكافئاً لكلمةِ (تصوّر)، بينما كافأ مفهومه عن الإرادة (البراهما)، **"الذي خُلِقت منه المخلوقات الحية كلها، والذي يولدون فيه ويعيشون فيه ويموتون فيه وإليه يُسرعون"**. ما كان يعجبه بشكل خاص، في البوذية والهندوسية، هو عدم وجود إله خالق. لكن مقاربته بقيت كانطية بشكل جوهري، في نهجها ولغتها الفلسفية الغربية.

لم يكن لديه تواضع زائف حول قيمة كتابه: **"عملي.... نظام فلسفي جديد.... سلسلة من الأفكار المرتبطة إلى أعلى درجة،**

أفكار كهذه، لم تدخل عقل أي إنسان مسبقاً"، قال هذا لناشر كتابه (إبرهارد بروخوس)، الذي كان مُستغرباً منه قيامه بنشر أعمال جوهانا أيضاً. أخيراً، تم نشر تحفته الفنية في كانون الأول من عام 1818. كان مقتنعاً، مثل وتغنشتاين لاحقاً، بأنه قد توصّل إلى حل جميع الإشكالات الفلسفية العظيمة، وغادر بعدها فوراً إلى إيطاليا، وكان يستحق فعلاً رحلة استراحة طويلة. لقد جعلته إيطاليا يسترخي أكثر مما حفّزته، وتحسّن مزاجه، مثل معظم الشماليين، تحت السموات الجنوبية. عندما عاد في العام 1819، كان يتوقع مكافأة أو إشادة أو نقداً جاداً على الأقل. لكن ما حصل عليه كان، اللا شيء. وحين سأل عن عدد النسخ التي بيعت، قيل له: لا شيء. أدهشه في البداية هذا الانعدام الكامل للتقدير، والذي استمر لمعظم حياته كشخص بالغ، ومن ثم جعله يشعر بالمرارة.

من أجل أن ينشر وجهة نظره بشكل رئيس، بدأ يعلّم في برلين، وقد اختارها تحديداً لأنها المكان الذي ظهر فيه (وحشه الأسود) هيغل، كعبقري في الفلسفة الألمانية، معلناً أن الله أو التاريخ كانا متجليين في ظهور بروسيا. إن تصميم شوبنهاور على فضح سخافة وجهات النظر تلك (بحسب رأيه)، فشل فشلا مهيناً، والسبب الرئيس لذلك هو إصراره على إعطاء محاضراته في الوقت ذاته الذي يعطي فيه هيغل محاضراته. (ربما أزعجت الطبيعة المثيرة للجدل لـ "إلحاده الهندي"، التلاميذ في هذه المدينة القمعيّة المشهورة. حتى هيغل الذي تحمّس جداً لظهور بروسيا، والذي كان هدفاً لمزاح الناس الذين كانوا يقولون عنه إنه يحاضر بالزي العسكري، واجه مشاكل بسبب رفضه للمسيحية). وبشكل غير مفاجئ، لم يتم حضور محاضرات شوبنهاور تقريباً. كما جعله غروره المتجهّم، يرفض تغيير مواعيد محاضراته، وقد دمّر فرصه

في إيجاد مناصب في هيدلبيرغ أو ورزبيرغ عندما قدم طلباً في العام 1827، إذ كتب المبعوث البافاري في برلين، في ردّ مدمّر على طلباتهم في الحصول على توصية، "لا يتمتع شوبنهاور بسمعة جيدة هنا، لا بوصفه مؤلفاً ولا مدرّساً".

في برلين في العام 1821، وقع شوبنهاور في حب الممثلة والمغنية كارولين ريشتر، وكان عمرها حينها تسعة عشر عاماً. أصبحا عاشقين، لكن كان لها على الأغلب، العديد من العشاق في الوقت نفسه. عندما أنجبت طفلاً في العام 1822، شعر بالغيرة لإدراكه أنه لم يكن الأب. لكن آلام الصدر، التي من الممكن أن تكون تدرّنات في الأصل، أجبرت كارولين على التخلي عن دورها في المسرح القومي، كما أبعدت شوبنهاور أيضاً. وكان قد هرب سابقاً من امرأة آمن بأنها مصابة بالتدرّن في إيطاليا، لكن يبدو أن كارولين كانت تهمّه أكثر من أية امرأة أخرى، وقد داعبته فكرة الزواج منها لفترة ما، على الرغم من كونها لا تناسبه من الناحية الاجتماعية والفكرية. ومع ذلك، فقد كانت تصرفاته نحوها في نهاية الأمر، بعيدة عن النبالة. عندما فرّ من برلين في حالة من الهلع من وباء الكوليرا في العام 1831 – ذلك الوباء الذي قتل هيغل – أراد منها أن ترافقه شريطة أن تترك ابنها وراءها. وعندما رفضت بشكل طبيعي، انتقل وحده إلى فرانكفورت ولم يرها مرة أخرى، على الرغم من أنه تذكرها فعلاً في وصيّته.

كان شوبنهاور قد أنجب سابقاً ابنة غير شرعية في دريسدن في العام 1818. وقد تقرّب من أخته أديل، التي لم يكن يهتمّ بوجودها سابقاً، بغية الحصول على عناية بتلك الرضيعة، قبل رحلته إلى إيطاليا. كانت أديل لا تزال عذراء في التاسعة عشرة من عمرها، وقد صُدِمَت بطلبه ورفضت القيام

بأكثرِ من منح المال لوالدة الطفلة، وقد أراحته وفاة الطفلة المبكرة من الانشغال بالأمر لاحقاً. وبالرغم من افتقاد شوبنهاور للدافع الأبوي بشكل عام، فقد كان بسويّة عالية من الناحية الجنسية على الأقل، مثل أي رجل في سنّه. لكن كان لديه نقص وبرود غير اعتياديين في الجاذبية الجنسية، وهو أمر أدركه واشمأز منه. واعترف لاحقاً بتوصيف عن وضعه عندما كان يافعاً: "كنت مولعاً جداً بالنساء — لو أنهنّ قَبِلنَ بي". إن اللوحة الشهيرة له وهو في العشرينات من العمر والتي رسمها (لودفيغ رول)، تُظهِرُ جبيناً عالياً ناصع البياض فوق شفتين شهوانيتين حمراوين. لقد كان وسيماً ولديه تأثير لافت للنظر في اللوحة، لكن الرجل الحقيقي فشل في إثارة إعجاب العديد من النساء. وفي فيمر في العام 1813، شعر بشغف مسعور لكنه عقيم نحو كارولين جاغرمان، عشيقة دوق فيمر الجميلة، التي تجاهلته كما هو متوقع. هذا الرفض الطبيعي جداً، والذي لا تتم ملاحظته من قِبَل العديد من الناس، أصبح جرحاً متقرّحاً في عزلة شوبنهاور الكئيبة.

كان شوبنهاور، الذي يتمتع بصفاء عقل مثير للإعجاب، أول فيلسوف بعد أفلاطون، يقبل بالأهمية الحيوية للجنس في الحياة، لكنه رأى أنه التعبير الأكثر إقناعاً لإرادة الفرد الخبيثة، بدل أن يكون نقطة الانطلاق لاكتشاف الجمال المثالي:

"الرغبة الجنسية أساسية جداً لدرجة ليس هناك من متعة أخرى يمكنها التعويض عن الحرمان منها، والأكثر من ذلك، يقوم الإنسان والحيوان بالصراعات من أجلها وتعريض النفس للخطر.... يمكن توصيف الإنسان بأنه دافع جنسيّ متجسّد، لأن أصله فعل جماع وأعظم رغباته فعل الجماع، وهذا الدافع وحده، يخلّد مظهره المُدرك."

وعلاوة على ذلك، توقع اكتشافَ فرويد حول الحضور الكلي الاجتماعي للجنس بأن أضاف: "**إنه السرّ العظيم الذي لا يُقال، السر الشائع الذي يجبٍ ألّا يشار إليه بشكل واضح في أي مكان، لكنه ..... حاضر دائما في عقل الجميع.... حتى أدنى إشارة له يمكنٍ فهمها على الفور**". ومع ذلك، فقد كان موقفه من الجنس سلبياً بشكل أساسي، "**انظر إلى إغواءات جسدك وأنت تضحك، كما تنظر إلى مقلب تم التخطيط له ضدّك، لكنه كان مكشوفاً بالنسبة لك**".

أما بالنسبة للمال، القلق الآخر الدائم للإنسان، فلم يُظهر شوبنهاور الانجذاب إليه ولا عدم الاهتمام به. في العام 1819، انهار بنك دانسيك، الذي كانت والدته وأخته قد أودعتا كل مالهما تقريباً فيه، لكن شوبنهاور كان قد أودع ثلث أمواله فقط فيه، لقد وصله الخبر في إيطاليا واضطر مرغماً، لاستئناف التعامل مع والدته. عُرِضَ على آل شوبنهاور ثلاثون بالمئة مما كانوا يملكون، بعد العرِض البدائي "لتقسيم ما بقي لديه" مع جوهانا وآديل، طالب العائلة بنسبة سبعين بالمئة في الحال، رغم المخاطرةٍ بتدمير كامل التسوية، وبأن تبقى أخته ووالدته مُفلستين تماماً. احتاج الأمر منه إلى سنتين من المعارك القانونية لإعادة المبلغ كله إليه، بينما والدته وأخته استعادتا فقط حوالي الربع من مالهما الأصلي. لقد دمّر بعناده بنهاية المطاف، علاقته مع أديل، التي كانت عالقة في كثير من الأحيان بالعداء ما بين أخيها وأمها.

ولقد كشف حتى عن تفاهة أكبر في نزاعه الطويل مع الخياطة كارولين مارغيت، والذي بدأ في برلين في شهر آب من العام 1821. تذمّر شوبنهاور من كونها وبعض صديقاتها يُصدرن الكثير من الضجيج – ربما كان بانتظار حبيبته كارولين ريختر–

ولهذا أراد بالتحديد بعض الخصوصية. (ومثل الكثير من الناس الموسيقيين، كان دائماً حساساً بشكل فعلي للضجيج). وفي الشجار التالي، ادّعت مارغيت، التي كانت حينها في السابعة والأربعين من عمرها، وكان هو في الثالثة والثلاثين، بأنه قذف بها إلى أسفل الدرج مما جعلها تتأذى بشكل سيء لدرجة لم تستطع بها الاستمرار بمهنتها، وقد أنكر شوبنهاور هذا، واستمرت المعركة القانونية خمس سنوات، وبخطوة واحدة، وُضِعَت جميع ممتلكاته في برلين تحت سلطة المحكمة. لقد وُجِدَ شوبنهاور في النهاية مذنباً، والتزم بدفع ستين (ثيلار) سنوياً لمارغيت لباقي حياتها — مبلغ صغير بالنسبة له وليس كذلك بالنسبة لها. وعندما سمع بخبر موتها في العام 1852، كتب فقط: "**المرأة العجوز ماتت، والدين انتهى**".

لكن وبشكل متأخر، بدأت شهرته الآن بالنمو، وساعد على ذلك جزئياً، خيبة الأمل العامة التي تلت فشل الثورة في العام 1848 في ألمانيا، والتي جعلت فيلسوف اليأس والإحباط، يبدو مرشداً أكثر تعاطفاً وإدراكاً من هيغل. في العام 1853، ظهرت مقالة مادحة لكتابه "parerga and paralipomena"[1] — آخر كتاب له وأكثرها اختصاراً، والذي استهدف جمهوراً واسعاً — في إنكلترة في صحيفة (The Westminster Review)، قام بتحريره جورج إليوت، الذي أشاد بشوبنهاور على أنه عبقري. وقد عزز هذا المقال الحماسي سمعته التي كانت لا تزال مهملة في ألمانيا، وعندما أُعيدت طباعة المقالة في صحيفة (Zeitung Vossiche) الألمانية. في العام 1854 قرأ فاغنر شوبنهاور، وبسرعة رأى فيه مرشداً بل معلّماً. لقد وجد الملحّن

---

[1] parerga and paralipomena: عنوان الكتاب هذا يعني الملاحق والسهو، وهو بشكل عام مقتطفات من تأملاته وتجميع لأفكاره الفلسفية. المترجم.

في قناعات شوبنهاور بإنكار الإرادة، الوحي لأفكاره وأهدافه اللاواعية غير المنجزة حتى الآن. أرسل فاغنر للفيلسوف نسخة من كلمات أوبرا (libretto of Der Ring des Nibelungen). (وهي هديةٍ لم يتم الاعتراف بها كالعادة، إذ كان شوبنهاور معجباً جداً بموزارت وبيتهوفن وروسيني، لكن ليس بأوبرا رومانسية ألمانية. ومن دون الحضور المثير لفاغنر أو للموسيقى، ستكون قراءة نص الأوبرا ثقيلة على أية حال). ومع ذلك فإن تحفة فاغنر الفنية الشهوانية (تريستان وإيزولدة)، حيث الأشواق المثيرة النهمة تقود البطل والبطلة إلى "الحب حتى الموت"، تمنح تعبيراً موسيقياً فعّالاً لقلب فلسفة شوبنهاور. لقد ألفها فاغنر بعد أن اكتشف شوبنهاور بوقت قليل، وبهذا بدأ التشابك الخصب والخطير بين الموسيقى والفلسفة الألمانية، وقد قام فاغنر بالكثير لنشر اسم الفيلسوف.

بدأت جامعات بون وجينا الآن بإعطاء حلقات دراسية عن أعماله، وتم استعراضها في فرنسا وإيطاليا، وفي عيد ميلاده، هطلت عليه الهدايا من غرباء. لطالما قال إنه سوف يتم اكتشافه يوماً ما، وقد استمتع بشكل كبير بشهرته الجديدة، وظهر وهو يبتسم للناس حتى، لكنه لم يستمتع بذلك لوقت طويل. إن وفاته بسبب مرض قلبي في العام 1860، لم تؤثر على سمعته التي استمرّت بالصعود، وقد تأثر به الفلاسفة والمؤلفون اللاحقون. وبدأ نيتشه علاقة صداقته مع فاغنر — الأعظم في حياة شوبنهاور المنعزلة — بإعجاب متبادل بشوبنهاور. إن أسلوب نيتشه الصقيل الحاد، يدين بشدة لسلفه، كما اعترف هو، على الرغم من أن فلسفته الناضجة، تقلب بالكامل تشاؤم فلسفة الأول. وكان شوبنهاور بالنسبة لوتغنشتاين مساويا بالأهمية. لقد تم التعبير عن بعض الأفكار في افتتاحية أول عمل

عظيم لوتغنشتاين وهو "الأطروحة المنطقية الفلسفية" ورددت هذه الافتتاحية أفكار شوبنهاور إلى حد أنها بدت وكأنها إعادة صياغةٍ ملغزّة لها.

بالنسبة للقراء الجدد، استطاعت أعمال شوبنهاور البليغة أن تثير الإعجاب في المكان الذي لم يستطع فيها الفلاسفة الغربيون - أو المتورمون — أن يفعلوا. إن إدراكه للدور الحيوي الذي يلعبه الجنس في حياتنا، وموازاته مع البوذية، تجعل من أعماله جسراً يربط ما بين الأفكار الشرقية والغربية، والأكثر أهمية من ذلك، تأكيده على أن الفن والتقدير الجمالي، يمنح الحرية من البؤس الفردي، إذ لا يزال كل هذا جذّاباً. أما الفاسدون الفرنسيون اللاحقون في أواخر القرن التاسع عشر من أمثال، (جولز لافرو، جان ماري فييه دو ليل آدم)، فقد كانوا مسرورين بكتاباته التي بدت تؤمن المبررات الفلسفية لمعتقداتهم في الفن من أجل الفن، وارتدادهم عن عالم الابتذال. وكان مارسيل بروست أيضاً متأثراً جداً بتأكيد شوبنهاور على أهمية التأمل الجمالي في رواياته - حيث يظهر ذلك واضحاً بشكل متكرر — وفي حياته، لقد جرّ نفسه بألم من سريرِ المرض لمشاهدة معرض (فيرمير)، التجربة السامية تقريباً للروائي العظيم، وأمام تلك اللوحات الرائعة الصغيرة، التي بدت وكأنها تؤكد على معتقد شوبنهاور بأنه بالنسبة للإنسان المناسب على الأقل، يمكن للفن أن يخفف المعاناة الإنسانية أو يزيلها. ويمكن - باحتشاد المتاحف أكثر منٍ أيٍ وقت مضى- أن يبقى مذهب الجمالية السامي هذا، مغرياً جداً.

لكن السؤال الذي يبقى: هل توحي القصة السلبية عن حياة شوبنهاور، بوجود أخطاء متطرفة في فلسفته كما هي في حياته؟ يجب ألا يكون الأمر كذلك من الناحية النظرية، لكن الوعظ

بالانفصال المنكر للذات، من خلال التأمل الجمالي بشكل رئيسي، ليس مجدياً إن لم يكن بوسعه أن يمنع المرارة وبغض الجنس البشري. إن شوبنهاور الذي لم يجسّد أفكاره مثل بوديساتفا غربي، تصرّف طوال حياته كشخص تافه كئيب أناني متمحور حول ذاته.

3/ فريدريك نيتشه (1844 – 1900):

(THE SICKLY ÜBERMENSCH)[1]

السوبرمان السمج.

"أعظم البشر الروحانيين .... يختبرون أعظم المآسي على الإطلاق: وهم يحترمون الحياة لهذا السبب تحديداً، لأنها وجّهت إليهم أعظم أسلحتها قوة".

فريدريك نيتشه

كتاب (أفول الأصنام).

يمكن أن تكون قراءة أعمال نيتشه مُسكرة – مُسكرة جداً لدرجة يجب أن يُلصق عليها تحذير صحي: "لا تحاول

[1] ÜBERMENSCH: مصطلح يعود إلى نيشته في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" بين عامي (1883 – 1885)، ويقصد به، رجل المستقبل المتفوق المثالي الذي يمكن أن يسمو فوق الأخلاق المسيحية التقليدية لخلق قيمه الخاصة وفرضها. المترجم.

تشغيل السيارة، ولا تحاول التفكير عندما تكون تحت تأثيرها". فوضويون وفاشيون، فرويديون ووجوديون، ما بعد الحداثويين والوثنيون الجدد، لاعبو الكرة ومصففو الشعر، مؤيدو النساء وكارهوهن - حتى الفلاسفة - قد استحمّوا في الخطاب الرغوي لكتاب "هكذا تكلم زرادشت"، أكثر كتبه شعبية، وترنحوا بتأثير المبالغات المطنبة، وهذا ما أشعره بالفزع، فكتب بطريقة تحذير واعية: "فوق كل هذا، لا تقحموني بما لست عليه!" لكن من الممكن أن يكون صعباً تمييز صُلب أفكاره من خلال خطابه:

انتبه، أنا رسول البرق ... هذا البرق يُسمى السوبرمان..... جميع الآلهة ماتت: ونريد الآن أن يعيش سوبرمان... دع ذلك يكون الرغبة الأخيرة في وقت ظهيرة أحد الأيام! ... الحياة ينبوع البهجة، لكن حيث يشرب الرعاع، تكون جميع الآبار مسمومة.

يريد كل فرح خلود جميع الأشياء، يريد الرحيق، يريد الثمالة، يريد ليلا منتشيا، يريد مقابر، يريد عزاء الدموع المذروفة على القبور، يريد غروبا مطليا بالذهب.........

بنينا عشنا في أعلى شجرة المستقبل، وتجلب النسور الطعام لنا بمناقيرها!

طعام حقيقي لا يستطيع أنجاس الناس مشاركتنا به! سيعتقدون أنهم أكلوا ناراً وأحرقوا أفواههم!

ليس هناك من فيلسوف آخر يكتب مثله أبداً - نيتشه، نبي ديونيسوس الذي مسح نفسه بالزيت، إله الدراما والسكر والنشوة. ربما يفضّل الآخرون الذين لم يعجبهم هذا الكلام المنمّق، كتبه ذات الأقوال المأثورة الأكثر هدوءاً:

- *الكسل بداية الفلسفة.*

- *هل الإنسان هو أكبر خطأ ارتكبه الله؟ أم الله هو أكبر خطأ ارتكبه الإنسان؟*

- *أن تبقى مبتهجاً عندما تتورّط في أعمال كئيبة، ليس هذا فنّاً تافهاً.*

- *لم تَعِدِ البوذية بشيء، لكنها حافظت على الوعود، وقد وعدت المسيحية بالكثير ولم تحافظ على وعد.*

ليس هناك من فيلسوف آخر كتب بهذه الطريقة أيضاً، إنه من بين الفلاسفة الأكثر قراءة والأكثر متعة. إن وليام بيتلر يتس، جورج برنارد شو، راينر ماريا ريلكي، دي. أتش. لورانس، أوغست ستريندبيرغ، ألبير كامو، جون بانفيل، ريتشارد ستراوس، وغوستاف ماهلر، هم بين البارزين "غير الفلاسفة" الذين تأثروا بكتاباته. كما أن تأثيره كان كبيراً على الفلاسفة اللاحقين حتى عندما رفضوه، أو بالأحرى، خاصة عندما رفضوه.

بأقصى حالات صفاء ذهنه – وهو يصبح أكثر عصبية كلما كتب – تعرض أفكاره وضوحاً وحدّة كقمم الجبال، وتناسب الإنسان الذي أمضى سنوات طويلة في جبال الألب. لقد كانت سنوات من العزلة المتزايدة أيضاً. تلقى بطاقة معايدة واحدة في عيد ميلاده في تشرين الأول من عام 1888، السنة الأخيرة قبل انهياره. لكنه في العزلة والمنفى، كسب جرأة عقلية أقلها إعلان موت الله – لكنه لم يكن الملحد الأول – وأدرك تماماً معنى هذا بالنسبة للأخلاق البشرية، شيءٍ لم يبدأ الآخرون بإدراكه حتى الآن. والأمر الذي يبقى مهماً بشدة حتى في أيامنا هذه، هو دعوته من أجل "**إعادة تقييم القيم كلها**"، ويعني بذلك "**كلها**"، وليس

إعادة ترتيب أنيق للعلاقة ما بين الأجناس أو الأعراق أو الطبقات، والحاجة إلى "السوبرمان" الذي سيعيد المعنى للحياة في كون خالٍ من الله.

فاغنر — أول قدوة وصديق لنيتشه، وعدوه وهاجسه الدائم لاحقاً — أعلن عن كتابته لموسيقى المستقبل (Zukunftmusik). حاول نيتشه كتابة فلسفة من أجل المستقبل، وكانت بعنوان (تباشير فلسفية للمستقبل)، وهو عنوان فرعي للعنوان الأساسي: "ما وراء الخير والشرّ". لقد كتب نيتشه معظم كتاباته بطريقة الأقوال المأثورة، نابذاً الفلسفة المنهجيّة وممزقاً ما رآه اتجاهات بدائية أو جنينية، ثقافية، أخلاقية وعقلانية، وخاصة "الامتعاض" الشعبي، أي (الاستياء، الإحساس بالأذى، الضحية)، التي استغلتها منذ ذلك الحين، دكتاتوريات القرن العشرين والديماغوجيون الدُهاة. وعلى أية حال، كان من النادر أن يهتمّ بالسياسة. لقد احتقر هذا الفرداني السامي، الحركات الجماهيرية كلها وقال في كتابه: "هكذا تكلم زرادشت" إنه **"كتاب للجميع وليس لأحد"**.

غرابة أخرى في العالم العقلي للفلسفة: لقد جسّد نيتشه تفكيره لدرجة لا تُضاهى. قال: **"لست أحب من الكتابات كلها إلا ما يكتبه الإنسان بدمه، اكتب بالدم، تجد أن الدم روح"**. في الواقع، لقد كتب في حالة من الإثارة والجهد المحموم، بينما تخلص من فضيلة إنسانية تعتمد على عالم متعال. وهو لم يقصد بذلك المثاليّة الكانطية والشوبنهورية فقط، بل التَّقاليد المسيحية الأفلاطونية، العمود الفقري للثقافة الغربية منذ 2000 سنة، وقد ترك رفضه فراغاً مرعباً، كان يحاول ملأه بإعادة تقييم القيم كلها، والذي بقي غير منتهٍ عند انهياره.

أنهكت الجهود الفيلسوف، كما توضح رسائله. مع ذلك، يمكن لنيتشه أن يكون تحفيزاً واستنارة بالنسبة لقرائه، بل حتى تحذيراً. بينما يتسلّق القمم الأكثر ارتفاعاً من جبال العقل، محتقرا الدروب الآمنة كلها، علينا نحن أن نتدافع خلفه محاولين تجاهل الانحدارات التي تصيبنا بالدوار من كلا الجانبين. عندما ننظر للأعلى، نرى مرشدنا بشاربيه المبقعين بالثلج، يختفي في العاصفة الثلجية، ويعاود الظهور على التلال الثلجية البعيدة للحظة ومن ثم يختفي بعدها، وبشكل دائم هذه المرة. عندما ننظر حولنا، ندرك أننا وحدنا على حافة صدع. "**إنّ الفلسفة كما عشتها وفهمتها حتى الآن، هي أن تعيش طوعا في الجبال العالية في الجليد.... كم هي كميّة الحقيقة التي يمكن للروح أن تحتملها، وكم هي كمية الحقيقة التي تتجرأ الروح عليها؟**"

لم يعش نيتشه دائماً في أعلى المناطق الثلجية، "**ينظر إلى الإنسانية كلها على مسافة بعيدة في الأسفل**". لقد كان أيضاً، فيلسوف الحواس الذي يبتهج بالشمس والبحر المتوسط. وبعد أن رفض الرومانسية الفاغنرية، تحوّل إلى مديح (كارمن) تحفة (بيزيه)[1] الفنية، الأوبرا الأكثر شعبية مع أنها ليست بالأوبرا العاطفية. لقد سمعها عشرين مرة، "**وبدا لي في كل مرة، أنني أصبح فيلسوفاً أفضل.... أصبح أكثر صبرا وأكثر سعادة وأكثر ثباتا، أصبح هنديا أكثر**". أراد نيتشه أن يصبح (– Ja

---

[1] بيزيه: هو جورج بيزيه، موسيقي فرنسي من العصر الرومانسي، حقق بعض النجاح في مقطوعات موسيقية قصيرة، لكنه حقق نجاحاً باهراً بتأليفه لأوبرا (كارمن) التي أصبحت واحدة من أكثر الأعمال الموسيقية شعبية في تلك الفترة. عاش بين عامي 1838 – 1875). المترجم.

(sagender[1] قائلاً: "نعم" للحياة مع كل الآلام والسعادة، وبدون تعازٍ من فلسفة زائفة أو دين.

لكن أولئك الذين يتوقعون أن يرقى الرسول السوبرمان إلى الصور المشهورة له، سوف يخيب أملهم. إذ تُظهر الصور شاربين هائلين وجبيناً سحرياً وعينين عميقتين. لم يكن له شكل العضلات البرونزية، التي تحيي شروق الشمس المطلّ من قمم جبال الألب – إنها الصورة التي استحضرها ريتشارد ستروس بقصيدته المسماة "أيضاً هكذا تكلم زرادشت"[2] – كان البروفسورٍ نيتشه ضعيفاً ولديه وهن عصبي ونصف أعمى، كما كان عاجزا بسبب آلام الرأس الدورية التي جعلته يبقى في فراشه. ويعود السبب في ذلك، أولاً لمعاناته من مشاكل في العين والتهاب الجيوب الأنفية المتكررة، منذ سنيه المبكرة، وثانياً بسبب الحالة النفسية، وربما لاحقاً بسبب إصابته بالسفلس، وهو (أيدن) القرن التاسع عشر. لقد صرخ في إحدى المرات يائساً من اعتلال صحته: "**ألم يكن هناك عُصاب للأصحاء؟**" إن التوسل المتكرر لديونيسوس إله الخمر، يخفي حقيقة أنه كان قد امتنع عن تناول المشروبات الروحية تقريباً. كان خمره المفضل هو الكاكاو، النوعية قليلة الدسم منه.

أما بالنسبة للجنس ....

ربما يحتوي كتاب (زرادشت) على أكثر السطور تحيزاً ضد المرأة في الفلسفة. "هل تزور النساء؟ لا تنسَ سوطك!" تلك

---

[1] Ja-sagender: لم أجد أي أية معلومات واضحة حول هذه الصفة، لكنها تشير في موقع ما، إلى قرد أمريكي، بعد أن يصل إلى حالة السكر بتأثير البراندي، يقرر أن لا يمسها مرة أخرى، ويكون بالتالي أكثر حكمة من العديد من الرجال. المترجم.

[2] "أيضاً هكذا تكلّم زرادشت"، هي عنوان قصيدة شعرية ألفها ريتشارد ستروس، وهي مستوحاة من كتاب نيتشه ذي العنوان نفسه. المترجم.

المحاولة من الفكاهة كانت مثاليّة لدى الألمان في ذلك الوقت، لكنها نادرة بالنسبة لنيتشه.

أما في أماكن أخرى، فيمكنه أن يكونٍ حاد الذكاء بشكل ملحوظ. "**هناك شيء مذهل وخارق جدا في ثقافة النساء في الطبقات العليا بالفعل، ربما ليس هناك من شيء أكثر تناقضا. يوافق العالم كله على الإبقاء عليهن جاهلات في الأمور الجنسية، وجعلهنّ يشعرن بالخجل العميق من أشياء كهذه**". ما يجعل هذه العبارة — الشائعة اليوم، الصادمة حينها — جديرة بالملاحظة هو أن نيتشه، على عكس فاغنر مثلاً، لم يكن لديه تقريباً أية تجربة جنسية يستطيع منها أن يأتي باستنتاجاته، لكن كان عليه الاعتماد على حدسه الاستثنائي. في الواقع كان ممتنعاً عن الجنس تقريباً، على الرغم من قيامه مرة على الأقل، بزيارة كارثية إلى بيت الدعارة. إن علاقته الوحيدة المهمة — مع (لو سالومي) في العام 1882 — لم تتجاوز حدود القُبلة، وهي "حرفياً" من كانت تحمل السوط. تُظهر الصورة المشهورة السيئة السمعة (لو) تلوّح بالسوط فوق نيتشه وَ (بول ري)، الرجل الآخر في إقامتهم القصيرة (بعلاقة جنسية ثلاثية). وكانت (لو) من تخلت عن نيتشه.

تشير الصورة إلى شيء آخر: الحدّة الهوسية تقريباً من جهته، رغم أنه لم يكن أبداً فيلسوفاً جذّاباً في الصور. وقد أعلن في بعض الأحيان نصف مازح، بأنه مُستحوذ عليه بروح زرادشت، النبي الفارسي القديم الذي سرق اسمه وعكس أفكاره. وشعر بشكل متزايد أنه مُجتاح من قِبَل دايمون — وهي كلمة إغريقية تعني الروح، إما صالحة أو شريرَة. "**إن بقي لدى شخص ما أي أثر من الخرافة، فلن يستطيع الهروب من فكرة أنه مجرّد تجسيد، مجرّد لسان حال، مجرد وسط تتحرك فيه القوى الكبيرة**". لقد

كتب هذه العبارة قبل انهياره بقليل في أوائل العام 1889، بسبب إصابته بالدرجة الثالثة من السفلس. وكان حينها يوقّع رسائله باسم ديونيسوس أو باسم المصلوب.

المصلوب.... لكن ليس هناك من مصلوبين في البانثيون الإغريقي. لا تزال الدمغة المسيحية لابن القس على قيد الحياة، قابعة تحت وثنية الفيلسوف البالغ، مشيرة إلى الحالة الكلاسيكية لكبت لا جنسي. كان نيتشه خلال حياته بالغاً، في حرب مع أسلافه وتربيته التي تم تصميمها لإنتاج قسّ متعلم أو بروفسور تقيّ. على الرغم من إعلانه لاحقاً، نَسَبَهُ من النبالة البولندية — لأن الألمان القوميين يحتقرون البولنديين وهوٍ يكره القومية الألمانية— فهو قد أتى بالفعل من عائلة ألمانية جداً. وُلِدَ فريدريك نيتشه في 15 تشرين الأول من العام 1844 في لوتسن في سكسونيا البروسية. كان والده كارل لودفيغ نيتشه، مثل آباء العديد من الفلاسفة الألمان، قساً لوثرياً، كما كان كلا جدّيه. سوف يعبّر نيتشه لاحقاً ويقول: "**القس البروتستانتي هو جدّ الفلسفة الألمانية، والبروتستانتية هي خطيئتها الأصلية**". كانت نساء هذه السلالة الدينية متدينات بشكل كبير، على الرغم من منعهنّ من الصعود على منبر الوعظ بذاتهنّ. لقد تبيّن تديّن فريتز الصغير بشكل واضح، حتى في هذا المنزل المليء بالقداسة الخانقة. كانت لعبة طفولته المفضّلة هي لعبة القساوسة، ولهذا كانت العائلة تلقّبه "بالقس الصغير". كانت تساعده في ذلك أخته إلزابيت، التي كانت لوقت طويل، تعبد أخاها "كبطل".

وفاة والده بتليّن الدماغ في العام 1849 عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين، أجبر عائلة نيتشه — الوالدة فرانشيسكا في الرابعة والعشرين من العمر، والأخت إلزابيت في الرابعة، ونيتشه الصغير – على الرحيل إلى نومبرغ، حيث عاشوا في

هـذه البلـدة الصـغيرة الـتي تظللـها كاتـدرائيتها الكـبيرة، بفقـر وتقـوى. ولـدى إعـادة النظـر بـالأمور، نـرى أن نيتشـه هـاجم **"فضـائل نـومبرغ .... التظـاهر بـالبراءة والعمـق والشـرف والإخلاص.... يا لهذا المناخ السام الـذي كـان علـيّ أن أتنفسـه عندما كنت طفلا!"** وعلى أية حال، كان التلميذ المثاليّ في ذلك الحين، وفاز في العام 1858 بمنحة دراسية إلى بفورتا، أفضـل المدارس الداخليـة في ألمانيـا، المشـهورة بتلاميـذها الكلاسـيكيين والـروح المسـيحية. وهنـا مـرة أخـرى، بـرع باللغـة الإغريقيـة والمناهج اللاتينيـة، علـى الـرغم مـن آلام الـرأس المتكـررة الـتي كانت تُبقيه في فراشه. لقد زاد من ضـعفه الجسـديّ، ممارسـات صارمة تتمثل بالاستحمام بالماء البارد في جميع الفصول، أو عبر إثبات فكرة (الكاتب الرومـاني مويكـوس سـكايفولا)، بإمسـاكه بأعواد الثقاب المشتعلة بكف يده. كان رفاقه في المدرسة يسـمونه بإعجاب "الروح المعذّبة".

بدأ في بفورتا بكتابة الشعر ومسـرحية واحـدة، علـى طريقـة غوته كما كان يأمل. كما أثبت براعة في العزف الارتجالي علـى البيانو. لكن، وبما أن مهنة العزف — كما كان الاعتقـاد السـائد حينها — لا تليق بابن رجل دين، فقد التحـق بجامعـة بـون في تشرين الأول من العـام 1864، لدراسـة فقـه اللغـة الإغريقيـة واللاتينيـة ودراسـة اللاهـوت. وأطـاع الاتفاقيـات السـائدة بـين طلاب المنح الدراسية، وبدأ يثمل ويعاني من آثار ما بعد الثمالـة بشكل مخيف، كما خاض مبـارزة مـع طالـب آخـر، لأن نُـدب المبارزات تُعتبر أوسمة شرف شبه إلزامية. وخلال هذا الطقـس، ترنّح نيتشه المُصاب بقصر النظر، ملوّحاً بسـيفه ومُصـاباً بجـرح ترك ندبة على أنفه، ومن ثم ذهب إلى فراشه ليتماثل للشفاء.

طقس انتساب آخر كانٍ له عواقب أكثر خطورة، على الرغم من بقاء الغموض محيطاً بما حدث. فبحسب أقوال صديقه (بول دوسين)، كان نيتشه في زيارةٍ لكولونيا في شباط من العام 1865 عندما تم إرشاده إلى بيت دعارة، أثناء استدلاله على الطريق. ولدى دخوله وجد نفسه كما قال لاحقاً: "**محاطاً بنصف دزينة من النساء الأشباح المرتديات اللباس الشفاف المبهرجِ، ينظرن إليّ بترقب. عجزت عن الكلام للحظة. ومن ثم توجّهت غريزياً إلى البيانو لكونه الشيء الوحيد الذي لديه روح. نقرتِ على بعض الأوتار..... وهربت**". على أية حال، صدّق قلّة من الناس بأنه هرب. في رواية (الدكتور فاوستوس – لتوماس مان)، مرّ بطل الرواية أدريان ليفرغن، الشخصية المركبة من نيتشه – شونبيرغ، بالتجربة ذاتها، وعاد مصاباً بالسفلس من فتاة سحرته. سواء عاد نيتشه إلى بيت الدعارة ذاك أم لم يعد، فمن المؤكد تقريباً أنه التقط مرض السفلس خلال تلك الفترة. وتلك الفترة الطويلة الكامنة ما بين إصابته بالعدوى وانهياره التام، ليست شيئاً إستثنائياً، كما أن نزهات من هذا النوع، كانت شائعة لدى الطلاب بشكل كارثي. إن (شوبيرت، دونزيتي، باغاناني، مانيه، بودلير، موباسان) جميعهم أُصيبوا بالمرض القاتل ذاته. قال نيتشه لاحقاً إنه سعى للعلاج الطبّي من السفلس في ذلك الوقت، وهذا يعني، وهو الأمر الأكثر أهمية، أنه لم يكن بمقدوره أن يتزوج بشرف لخوفه من إصابة زوجته بالعدوى.

لكن المرض لم يؤثر على المهنة الأكاديمية لنيتشه. فقد انتقل إلى جامعة ليبزيغ في شهر آب من العام 1865 لمتابعة أستاذه المفضّل (فريدريك ريتشل)، وتوقف عن دراسة اللاهوت للتركيز على فقه اللغة، وكان قراراً بالغ الأهمية بالنسبة لابن القس.

لقد أزعج عائلته سلفاً برفضه أخذ المناولة في نومبرغ في عيد الفصح ذاك، وقد كانت مخالفة علنية لم يتغاض عنها أحد سوى عمته اللبقة، التي أشارت إلى أن جميع اللاهوتيين العظماء لديهم "شكوك". لكن الشك لم يكن الكلمة المناسبة في رفضه للمسيحية. لقد كشف له الأدب القديم عن عالم مغر مختلف جداً عن المثاليّة المسيحية، لكنه لم يعرف حتى الآنً فلسفة حديثة. بعدها جاءت الصدفة في ليبزيغ، في تشرين الأول الذي ظهر فيه كتاب شوبنهاور "العالم كإرادة وتصوّر" وكشف له عن نشأة جديدة للكون. **"أمسكت بالكتاب بيدي كشيء غير مألوف تماماً، وبدأت تقليب صفحاته. لم أعرف أي (دايمون) كان يهمس لي ويقول: (خذ هذا الكتاب للبيت). ... ولدى عودتي إلى البيت، استرخيت على زاوية الأريكة .... وتركت هذا العبقري الكئيب الحيوي يعمل في عقلي"**. لاحقاً، في كتابه "شوبنهاور كمعلّم"، قال إنه عرف **"بعد قراءة الصفحة الأولى، أنه سيقرأ كل صفحة، وسوف يستمع إلى كل كلمة سيقولها. كانت ثقتي به فورية..... فهمته كما لو أنه كتب لي أنا شخصياً"**.

جعل شوبنهاور من نيتشه فيلسوفاً، وساعد بتحويل الأكاديمي الناجح إلى نبيّ منعزل، من خلال شجاعته واستقلاله الفكريين. اعترف نيتشه: "لا يمكن لعلميكم أن يكونوا أكثر من محررين لكم. أصبح الآن "الشوبنهاوري المتقد"، مقيداً نفسه بأربع ساعات من النوم في الليل لقهر الجسد (وهو شيء لم يحاول شوبنهاور القيام به أبداً). وبينما كان ينتج مقالات رائعة و تُنشر مواده في مجلات الفلسفة، شعر بأنه ينسحب بشكل متزايد نحو الفلسفة. توقفت دراساته من شهر تشرين الثاني 1866 وحتى 1867 بسبب الخدمة العسكرية في الجيش البروسي، حيث لم يكن قصير

النظر تماماً للحصول على إعفاء. وعلى الرغم من أنه لم يحب الحياة العسكرية، فقد أثبت أنه فارس ماهر، لكن وقوع حادث جرح فيه صدره في أثناء قفزه على السرج، أدى به لملازمة السرير لأشهر بعد إصابة الجرح بالإنتان. ومن ثم أتى تسريحه وأصبحت صحته أكثر ضعفاً.

بالعودة إلى ليبزيغ، في 28 تشرين الأول من عام 1868، حظي بوحي موسيقي. استمع إلى مقطوعة (Die Meistersinger) ومقدمة (ترستان) لفاغنر، وبدا متأثراً جداً أو "منجرفاً" كما كتب لإروين رود، الذي كان صديقه المقرّب حينها: **"لا أستطيع المحافظة على رأي نقدي بارد حول تلك الموسيقى. إنها تهزّ كل ليف وكل عصب في كينونتي"**. بعد أحد عشر يوماً، التقى بالفعل بالمؤلف الموسيقي الذي كان حينها يزور ليبزيغ متخفياً. وكتب نيتشه في رسالة أخرى: **"إنه رجل مذهل مفعم بالحيوية والروح العالية، يتكلم بسرعة كبيرة، وهو فَطِنٌ للغاية وحيويٌ جداً عندما يكون بصحبة الأصدقاء. وكان لنا أثناء السهرة، حديث مطوّل عن شوبنهاور. يمكنك أن تتخيل بهجتي التي لا توصف، عندما سمعته يقول .... كم ندين لشوبنهاور"**. أصبح شوبنهاور وفاغنر الآن مثليه التوءم، لكن وثنية كهذه لها مخاطرها.

كان فاغنر أحد أعظم وحوش الموسيقى الكلاسيكية كما كان أعظم معلميها. إنه ساحر بشكل وحشي، من بين صفات أخرى. كان معاصراً تماماً لوالد نيتشه، وكان مشهوراً بشبهه بالقس. كان نيتشه اليتيم الأب منذ وقت طويل، متأثراً به لحاجته إلى بطل في لاوعيه. وقد أخبر (رودي) في الصيف التالي: **"يجسّد فاغنر جميع المواصفات التي يمكن أن يرغب بها المرء. لا يدرك العالم إطلاقا مدى روعته"**. كان حينها قد

أصبح أستاذاً بفقه اللغة الكلاسيكية في جامعة بازل في سويسرا، لم يكن فقط يافعاً بشكل ملحوظ – كان في الرابعة والعشرين – بل لم يكن أيضاً قد حصل على شهادة الدكتوراه. لقد قذفته توصية البروفسور ريتشل إلى عالم الشهرة إذ أعلن: "سيكون بكل بساطة قادرا على فعل ما يريد فعله". لقد أصبح عالم الأكاديمية الألمانية – كانت الأفضل في العالم حينها – عند قدميه. على أية حال، كان مبتهجاً بحقيقة أن جامعة بازل تبعد خمسين ميلاً فقط عن مكان إقامة فاغنر في تريبشن على بحيرة لوسيرن، مع كوزيما، التي سرعان ما أصبحت زوجته الثانية. كان يستطيع زيارة بطله بشكل متكرر وقد فعل، إذ أقام مع عائلة فاغنر سبعاً وعشرين مرة خلال السنوات الثلاث، بما فيها ثلاثة أعياد ميلاد.

كان فاغنر قد صمم منزله بالمفروشات المغطاة بالحرير والساتان، والتماثيل والأشياء الأخرى التي شعر بأنها جوهرية من أجل إبداعه. (يتضمن هذا ثمانية من الخدم وقفصاً لطائر الذيّال الذهبي). وهو، بتخلّصه من ديونه من خلال كرم لودفيغ الثاني ملك بافاريا، يلبس الآن بنطاله والمعطف المخملي الأسود بشكل مسرحي، عاكساً أفكاره الخاصة حول الملابس المناسبة للمايسترو. ولكن لم يلاحظ نيتشه سوى عبقريته فقط. فقد كتب في شهر آب من العام 1869: **"أشعر معه بالحضور السماوي"**. ورغم كل هجومه اللاحق على فاغنر، فقد اعترف بأنها كانت أعظم علاقة له في حياته، وأعلن قبل وفاته بقليل بطريقة ودّية: **"لم تكن هناك حتى غيمة واحدة في سمواتنا ... كان اتصالي الأول مع فاغنر أيضاً، المرة الأولى في حياتي التي أتنفس فيها بعمق.... أنا أسمّي فاغنر، فاعل الخير الأعظم في حياتي"**.

كـان كتابـه الأول الـذي ظهـر في العـام 1872 هـو "ولادة التراجيـديا مـن روح الموسـيقى". لقـد تقبّـل فـاغنر مقارنـة نيتشـه لأوبراته الخاصة مع التراجيديا الإغريقيـة القدميـة. لكـن نيتشـه، الذي رأى فاغنر يعيد خلق مكافئـات تلـك التراجيـديا، في القـرن التاسع عشر، أصبح محرجـاً مـن كتابـه هـذا، وأطلـق عليـه اسـم "**الكتاب المستحيل.... المكتوب بشكل سيئ، المضجر... صـورة مجنونـة ومشوشـة..... عاطفيـة في بعـض الأمـاكن**". لكنـه كـان الكتاب الأول الذي يُظهر الأهمية المركزيـة لديونيسـوس في الثقافـة الإغريقية، "الإله القاتمَ" للدراما والنشوة، القطب المعاكس لأبولـو، إله التفرّد والتفكير العقلاني.

تستيقظ العواطف الديونيسيسـية، وبينمـا تنمـو بحـدّتها، يتلاشى كل شيء ذاتـي، في نسيان ذاتـي كامـل... تحـت سـحر الديونيسيسـيين، لا يتأكـد الاتحـاد بـين الإنسـان والإنسـان فقط، لكن الطبيعة الـتي أصبحت نـافرة ومعاديـة وخاضـعة، تحتفـل مـرة أخـرى بمصـالحتها مـع ابنهـا الضـائع، الإنسان....... لا يشـعر المـرء بنفسـه بأنـه متحـد ومتصـالح ومندمج مع جاره فقط، بل يشعر وكأنه واحد معه، كما لـو أن حجاب المايا[1] قد تمزق وابتعد..... هـو يسـير الآن مسحورا في حالة من النشوة.

كان نيتشه قد وجد صـوته المتميـز، مسـتخدماً تخـيلات قويـة ببراعة. وكمـا قـال: "**كـان يجـب علـى هـذه الـروح الجديـدة أن تغني، ولـيس أن تـتكلم**". إن أشـرار هـذا الكتـاب هـم سـقراط و يوربيدس، آخر الدراميين العظماء، الذي ادعى نيتشـه، أنـه قتـل التراجيـديا الإغريقيـة بعقلانيتـه المتشـككة، محـولاً الطقـوس الأسطورية إلى مسرح وحسب.

---

[1] حجاب المايا: من الفلسفة الهندوسية، والمقصود به حجاب الوهم. المترجم.

ربما يكون فاغنر، الذي كان يعرف الأساطير، قد ساهم بأفكار الكتاب المشوّق للبروفسور الشاب، بشكل مباشر ومن خلال مكتبته. وبشكل عام، لم يساعد هذا العمل كثيراً في تقدّم مهنة نيتشه الأكاديمية. وفي العام 1871، فشل بالحصول على منصب شاغر في الفلسفة في جامعة بازل، واستمر بتعليم مادة الفلسفة الكلاسيكية، التي شعر بتضاؤل اهتمامه بها، والتي لم تجذب الكثير من الطلاب. كان هؤلاء الطلاب هم من تذكروه كأستاذ أعاد الحياة ببراعةٍ إلى الثقافة واللغات القديمة. وفي (تريبشن)[1]، كان الموسيقي والفيلسوف يتحدثان مطولاً وبحماس في نزهاتهما على حافة البحيرة. وعلى الرغم من الفارق الكبير بينهما في العمر والإنجاز، كان فاغنر يستمتع بالثناء المتزايد بشدّة، بينما يكون نيتشه مجهولاً، مع أنهما كانا عبقريين وكان كلاهما يعرف هذه الحقيقة. لاحقا، قالت إلزابيت نيتشه التي كانت تزور تريبشن: "بدأ فاغنر مع السيدة كوزيما وأخي بالحديث عن تراجيديا الحياة الإنسانية، وعن الإغريق والألمان وعن خططهم وأمانيهم المتبادلة. لم أسمع في حياتي كلها مثل ذلك التناغم الرائع بين أشخاص ثلاثة مختلفين بشكلٍ أساسي". في تلك المرحلة، كافأ فاغنر مشاعر نيتشه قائلاً إنه كان الشخص الوحيد الذي أغنى حياته بشكل إيجابي، باستثناء شخص آخر (لم يذكر اسمه).

لكن لا أحد يستطيع العيش سالماً لفترة طويلة، في المدار الأناني لفاغنر. كان نيتشه منصاعاً جداً له في البداية، لدرجة يقوم فيها بمهمات ساذجة – إلى حدّ شراء ملابسه الداخلية الحريرية الخاصة – كما كان لديه طموحات موسيقية، وعزف شيئاً من

---

[1] تريبشن: حي من مدينة لوسيرن في وسط سويسرا. وهو معروف اليوم باسم منزل الملحّن الألماني ريتشارد فاغنر. المترجم.

مؤلفاته الخاصة. لكن فاغنر رفضها كما رفضها الجميع لكونها تشبه الألحان "الكنسيّة" الحزينة، الموسيقى الحزينة لابن القس. جُرِحَ نيتشه، وزعم أن كوزيما وجدت عزفه المرتجل على البيانو، أفضل من عزف زوجها، لكن فاغنر كان عازف بيانو بسيطاً بشكل يدعو للمفاجأة.

أصبحت كوزيما الآن الشخصية الحاسمة في حياة نيتشه. إن الصور التي تُظهرها كربّة منزل فيكتورية مطيعة، تجلس بخنوع إلى جانب السيد، هي صور مضللة. كانت الابنة غير الشرعية (لفرانز ليست) والزوجة السابقة (لهانز فون بولو) قائد الأوركسترا الذي تركته من أجل هذا العبقري الذي كان يكبرها بخمسة وعشرين عاماً، كانت هزيلة وبشعة تقريباً. كانت حادّة الذكاء وبارعة بالموسيقى وتتمتع بقوة الإرادة، كما أنها قومية ومعادية بقوة للسامية. كان نيتشه مؤيداً لليهود في العادة ونادراً ما كان قومياً، كما ابتلع تحفّظاته لبعض الوقت مفتوناً بتلك المرأة الراقية المثقفة أكثر من أية امرأة كان قد قابلها سابقاً. كان واقعاً في حبها نوعاً ما، لكنه وبشكل حكيم، احتفظ سراً بمشاعره الأوديبية نحوها حتى أصبح على حافة الجنون، فأرسل لها عبارة تقول: "أريادن، أنا أحبك، ديونيسوس". ولم تُجبه كوزيما.

تطوّع نيتشه في الحرب الفرنسية البروسية التي اندلعت في العام 1870. لم يكن هناك من داعٍ لذلك، كونه تخلى عن الجنسية البروسية، لكنها كانت المرةً الأخيرة التي شعر فيها وتصرف على أنه ألماني. وبسبب خدمته في سيارة الإسعاف، أُصيب بمرض الزُحار والخناق. وعندما استعاد صحته، كان مزاجه قد تغيّر بشكل لا رجعة فيه. لقد أدى النصر الألماني في هذه الحرب إلى خلق أمبراطورية ألمانية جديدة منمّقة تقودها بروسيا، وسرعان ما شعر بالغربة عنها. منذ تشرين الثاني من عام 1870

حثّ (رودي) على الرحيل "**عن بروسيا القاتلة والمعادية للثقافة، حيث يِتبرعم فيها العبيد والقساوسة كالفطر، وسوف يظللون لاحقا كامل ألمانيا بعتمة أبخرتهم**". وفي العام 1873، فِي الصفحة الافتتاحية من كتاب "تأملات في غير أوانها" حذّر قائلا: "**ربما يكون أسوأ العواقب الشريرة التي تَبعَت الحرب الأخيرة مع فرنسا، هو الخطأ الذي انتشر بشكل كبير لدرجة نستطيع أن نقول فيها إنه عِالمي...... وهو أن الثقافة الألمانية، انتصرت في هذا الصراع أيضا**". وبعد خمس عشرة سنة لاحقة، كرر نفسه بقوة أكبر: "**في اللحظة التي تسمو فيها ألمانيا كقوة عظيمة، تكسب فرنسا أهمية جديدة كسلطة ثقافية**". لكن بالنسبة لمعظم الألمان، فإنٍ الرايخ الجديد، حقق الحنين القومي للوحدة الذي كان محبطاً لوقت طويل.

انتقال آل فاغنر إلى بايروث في بافاريا في نيسان من العام 1872، حيث تم بناء فيلا فخمة وبيت أوبرا خاص للمعلّم الموسيقي، حرم نيتشه من المنزل الذي شعر فيه بأسعد لحظاته. لكن مع تحرره من الحضور المبهر لفاغنر، بدأت الشكوك تراوده حول الموسيقى التي وعدت – هدّدت – بذلك الفناء الذاتي المغوي. كان نيتشه، الكلاسيكي بالتدريب، والمعجب بشكل متزايد بالثقافة الفرنسية – وخاصة بصفائها – يبدأ ارتداده الطويل المؤلم عن الفاغنرية. وقد رفض معظم الدعوات إلى بايروث، ولم ينه الجزء الرابع من كتاب "تأملات في غير أوانها" والذي كان بعنوان "ريتشاردٍ فاغنر في بايروث"، إلا بوقت متأخر في العام 1876. كان مدركاً للنفاق المتنامي في الثناء على المعلم الموسيقي، كما تُظهر ملاحظاته. (فاغنر، غير المدرك لرأي نيتشه، رد عليه قائلاً، "صديقي، كيف لك أن تعرفني بشكل جيد؟" من الممكن ألا يكون قد قرأه).

في عام 1876 ذهب نيتشه إلى بايروث لحضور العرض الافتتاحي الأول الكامل لمسرحية (الخاتم). وتبين أنها فاشلة أكثر منها ناجحة. (طُلِبَ التنين الخاص بسغفريد خصيصاً من إنكلترة، ووصل متأخراً وبدون عنقه الذي تم إرساله إلى بيروت في لبنان، وأثناء عرض جزء داس رينغولد، يفتقد ووتان الخاتم، وترتفع الستارة مبكراً على المسرح بينما لا تزال الأيدي تصفق.....)[1]. لكن ما أزعج الفيلسوف هو وجود مدينة تعجّ بالأثرياء وأصحاب النفوذ، بدلاً من الفاغنريين المخلصين الذين كان قد توقع وجودهم بسذاجة، واحتجّ قائلاً: "الناس الموجودون هم حثالة أوروبا". لقد أصبح الملوك والمصرفيون عناصر أساسية في مشروع فاغنر المثقل بالديون، وكان الأسوأ بالنسبة لنيتشه، أن المهرجان كان يرشح بالشوفينية الثقافية الألمانية. لقد هرب من المدينة بألم حادّ في الرأس والمعدة. لم تكن موسيقى فاغنر هي من جعله ينسحب من المدينة، بل إدراكه بأن المؤلف الموسيقي قد تحالف مع ألمانيا الجديدة الماديّة النزعة. "ما لا أسامح فاغنر عليه... أنه أصبح إمبريالياً ألمانياً". كان هذا التصرف المشابه لقتل الأب، والذي سبب له الكثير من الحزن، حيوياً جداً من أجل تحرره الفكري والعاطفي.

غادر نيتشه بايروث مع رفيق جديد هو (بول ري)، الروائي وعالم النفس — واليهودي. كان يعرف أن الصفة الأخيرة ستغضب فاغنر، الذي كان قد أعلن في كتابه (الدين والفن) أن "العرق اليهودي هو العدو الأساسي للإنسانية النقية". وقد التقى العبقريان مرة واحدة أخرى فقط، في تشرين الثاني في سورينتو. كان نيتشه،

[1] داس رينغولد هو اسم الجزء الأول من المسرحية الأوبرالية الرباعية، أما ووتان، فهو الإله التوتوني الأعلى وله نظراء بأسماء مشابهة حيث يكون اسمه أودين في الإسكندينافية وودين في الأنغلوسكسونية. المترجم.

الذي مُنِحَ إجازة مرضية من التعليم لمدة سنة، يرى إيطاليا للمرة الأولى، وكان مأخوذاً بها..... وهو في عمر الثانية والثلاثين. (قال مؤرخاً إعادة ولادته، منذ اليوم الذي راقب فيه غروب الشمس في خليج نابولي: "**كنت أرتجف، آسفاً على نفسي لكوني أصبحت عجوزا جدا منذ بداية حياتي**"). تحدث فاغنر عن الطقوس المسيحية بحماسة، وقد تخيّل أوبراه الأخيرة (بارسيفال) تعرضها على مسرح. أعلن نيتشه أنه مصدوم بتديّن فاغنر الزائف واصفاً إياه "**بروح حركة مكافحة الإصلاح الديني**". لكنه كان مخادعاً هنا، لأن كوزيما كانت مسبقاً، قد قرأت له النص الكلامي لأوبرا (بارسيفال) في (تريبشن) في العام 1869. كان نيتشه يقرأ الآن للمؤلفين الفرنسيين بشكل أساسي – مونتين، لاروش فوكو و ستاندال – الذين أثاره دهاؤهم النفسي. لم يكن هناك ما هو أبعد عن فاغنر، من التعلق بالفرنسيين. لقد افترقا في نوع من الازدراء المتبادل، حيث لا يفهم أحدهما الآخر.

في كتاب "العلم المرح" في عام 1882، كتب نيتشه مرثية غنائية حول صداقتهما:

علاقة صداقتنا النجمية.... نحن عبارة عن سفينتين، وكل منهما لها هدفها ومسارها، قد تتقاطع طرقنا وربما نحتفل بالعيد معاً كما كنا نفعل..... حياتنا أقصر بكثير، ونظرتنا أصغر من أن نصبح أكثر من صديقين. دعنا إذن نؤمن بصداقتنا النجمية حتى ولو......... أجبرنا على أن نكون عدوين في الأرض.

لم تصدر عن فاغنر شهامة كهذه. نَشَرَ شائعات حول أن أمراض تلميذه السابق، تسببت بها الممارسة المفرطة للعادة السرية – كانت القناعة السائدة في القرن التاسع عشر، أن النشاط الزائد في هذه العادة يسبب العمى والجنون. وقد دعم الدكتور أوتو إستر،

الذي استشاره نيتشه، افتراءات فاغنر، قائلاً إن أعمال نيتشه اللاحقة تكشف علامات على الجنون، وقد أغضب انتهاك السرّية هذا نيتشه نصف الأعمى.

فكرياً، كان نيتشه يسير نحو طرق جديدة لم يسلكها أحد من قبل. في كتابه "الإنسان المفرط في إنسانيته"، الذي ظهر في العام 1878 بعنوان فرعي هو (كتاب العقول الحرّة)، تخلّص من مثاليّة شوبنهاور المتعالية، التي هي بذاتها نسخة معدّلة عن مثالية كانط. ومن الآن فصاعداً، سيعلن نيتشه حقيقة العالم الظاهراتي فقط، رافضاً التيارات الرئيسة للتفكير الغربي الذي يعطي أهمية كبيرة لما هو حدسي. يحتوي كتاب "الإنسان المفرط بإنسانيته" هجوماً ضمنيّاً على فاغنر – **"النموذج الأنبل للجمال، هو ذاك الذي لا يكتسحنا من أقدامنا"**– لكن اهتماماته الأساسية كانت **"الحقائق الصغيرة غير الواضحة"** بحياة الإنسان، مما يوضح فطنته النفسية الجديدة. من أصداء ما اعترف به المؤرخان السويسريان (روشفورت وجاكوب بيركهارت) إعجاباً بنيتشه، قولهما: "حالما نلاحظ أن على أي شخص إجبار نفسه على الانتباه عندما... يتحدث معنا، يكون لدينا دليل صحيح على أنه لم يعد يحبنا". لكن فرويد توقّع التالي: "التنافر الذي لم يُحلّ بين الأبوين، في الشخصية والرأي، يستمر بترداد صداه في شخصية الطفل، مشكلاً تاريخاً من معاناته الداخلية". هذا التغيير الكليّ في الموقف، أنذر العديد من أصدقائه القدامى. يسأل رودي مذهولاً: "هل من الممكن تجريد المرء من روحه بشكل كامل واستبدالها بروح أخرى؟" وبشكل نموذجي، رأت كوزيما بول ري "العذب" يفتن نيتشه ووصفته "بشكل يشبه العلاقة ما بين المنطقة اليهودية وجرمانيا بشكل مصغّر". ولأن نيتشه كان قد هاجم

"الفحش المتزايد في قيادة اليهود إلى المذبحة، كأكباش فداء عن كل سوء حظ عام وخاص يمكن تصوره".

في حزيران من العام 1879 استقال نيتشه من منصبه في الجامعة – بشكل متأخر وليس مبكراً، لأنه كان مريضاً بشكل خطير في ذلك الربيع، وتوجّب عليه إلغاء 118 محاضرة. كانت آلام رأسه تستمر لأسابيع في المرة الواحدة، إضافة إلى نوبات إقياء وفترات من شبه العمى. وقد كتب ملاحظة في كانون الأول من العام 1880 يقول فيها: **"إن الألم المستمر لعدة ساعات في اليوم، هو شعور أقرب ما يكون إلى دوار البحر، كما أنه حالة شبيهة بالشلل تجعل من الصعب عليّ أن أتكلم"**. ربما كانت تلك النوبات، نوبات ألم الشقيقة، ربما لم تكن بسبب السفلس أصلاً، كونها كانت قد بدأت قبل سنة من الوقت المحتمل للعدوى. خمّن نيتشه أن أمراضه الجسدية قد تكون مرتبطة باضطرابات عقلية، لكن بما أنه يعيش الآن من أجل الكتابة فقط، لم يكن بوسعه الارتداد إلى حالة الهدوء الفكري. ومع ذلك، بتشكيك من هذا النوع، ازداد وثوقه بشكل غريب بعلاجات الدجالين. وقد تضمّن ذلك حمية غريبة – الحليب والفواكه فقط، أو الكاكاو والخبز الجاف – المعالجة المائية والاستحمام بالماء البارد، وكانت جميعها بلا فائدة.

حاول أن يسخر من مرضه، بل أن يستغلّه. **"الحرب اليومية ضد ألم الرأس، والتنوع المثير للضحك لأمراضي المتعددة يتطلب الكثير من الانتباه لأني أصبحت في خطر أن أصبح ساذجا– لكن هذا يعدّل من.... نزعات التحليق في الأعالي التي تسيطر علي بحيث إني سأصبح أحمقَ من دونها"**. كانت تلك شجاعة بدلا من أن تكون دقّة بالتوصيف. وبكونه أصبح مجبراً على العودة إلى رفقته الخاصة، خاطر بأن يصبح – وقد أصبح في نهاية المطاف –

أنانياً. إبان تلك الفترة، عاش حياة الترحال **"للشخص الهائم مع ظلّه"**، باحثاً عن مكان يساعده على تحسين وضعه الصحي.

كان له تلميذ مخلص واحد هو بيتر غاست، الملحّن الشاب الذي اهتمّ به خلال إقامته في فينيسيا في ربيع العام 1880، مدوناً الملاحظات التي وردت في كتابه الثاني "الفجر". كانت فينيسيا قد عملت على جعله يسترخي لبعض الوقت، وقد كتب لأخته قائلاً: **"أنام بشكل جيد في ذلك السكون وتلك الغرف العالية، كما يصلني نسيم البحر قبل أن يتلوث عبر مروره في فينيسيا"**، هاجم كتاب "الفجر" الأخلاقية الجنسية المسيحية بشكل عنيف. **"تصبح العواطف شريرة عندما يتم اعتبارها وجهة نظر شريرة شيطانية. كانت المسيحية قد نجحت في تحويل (إيروس وأفروديت) — مثلين نبيلين عظيمين — إلى عفاريت وأشباح"**. إن قلة فقط ممن (هم خارج الأصولية البروتستانتية) لا يوافقون على هذه المقولة، لكن نيتشه مضى في مهاجمة أسس الأخلاق كلها:

أنا أنكر الأخلاق كما أنكر الخيمياء، وهذا لا يعني أنني أنكر وجود خيميائيين كانوا قد آمنوا بتلك الفرضيات وتصرّفوا بما يتناسب معها..... (غني عن القول) إنني لا أنكر وجود العديد من التصرفات التي سمّيت لا أخلاقية ويجب تجنّبها أو مقاومتها، أو العديد من التصرفات التي سمّيت أخلاقية ويجب القيام بها..... لكني أعتقد أنه من المفترض تشجيع الفئة الأولى وعدم تشجيع الثانية لأسباب أخرى غير الموجودة الآن. علينا أن نتعلم التفكير بشكل مختلف... أن نشعر بشكل مختلف.

لم يكن يحتفل بالانهيار الوشيك للأخلاق، بل يحذّر من نتائجها المرعبة.

في العام 1882 اكتشف منطقة سيلس ماريا، على ارتفاع 6000 قدم في أعلى جبال الألب السويسرية، **"المنطقة الأجمل على وجه الأرض... لم أجد أي مكان آخر بهذا الهدوء"**. لقد أصبحت مقرّه الصيفي، بينما يمضي الشتاءات في إيطاليا أو في الريفيرا الفرنسية، كانت أقل برودة، لكنها تبقى باردة بما يكفي عندما لا يمكن لهذا الفيلسوف الهائم تحمّل تكاليف التدفئة. وفي شهر تشرين الثاني من العام 1881، حصل على وحي آخر وهو يستمع لأوبرا كارمن للمرة الأولى. لقد بدا شغفها المتوسطي الترياق الأفضل لفاغنر. لقد ألهمته واستمر بالكتابة بحالة المزاج السامي ذاته. حمل كتابه التالي "العلم المرح" معه إعلانه الأكثر شهرة، وهو موت الله:

ألم تسمع بالمجنون الذي أضاء فانوسه في الصباح المشرق وذهب إلى السوق، وبدأ يصرخ بشكل مستمر: "أنا أبحث عن الله! أنا أبحث عن الله!" مما جعل المارّة يسخرون. قال أحدهم: "هل فقدته إذن؟" وسأل آخر: "هل أضاع طريقه مثل طفل؟" لكن ضحكاتهم تلاشت عندما اخترقتهم نظرات هذا المجنون. إذ صرخ بهم قائلاً: "أين ذهب الله؟". "سوف أخبركم. لقد قتلناه – أنت وأنا. نحن جميعاً قَتَلَته. لكن كيف فعلنا ذلك؟ .... من أعطانا إسفنجة لنمسح بها الأفق بأكمله؟ ما الذي فعلناه عندما حررنا هذه الأرض من شمسه؟ .....على أي مدار هي الآن؟، على أي مدار نحن؟ بعيداً عن كل الشموس.... ألسنا ننجرف عبر فراغ؟.... ألم نصبح أكثر برودة؟ ألا تُطبق علينا ليلة لا تنتهي؟ ألن نحتاج إلى فانوس في الصباح؟.... ألم تصل رائحة تعفن الله إلى أنوفنا؟" وبعدها سحق المجنون فانوسه معلناً أنه أتى مبكراً جداً: "الحدث

الهائل لا يزال في طريقه – هو لم يصل حتى الآن إلى مسامع الناس.... مع ذلك، فقد فعلوا هذا بأنفسهم".

حتى شوبنهاور لم يصل إلى هذا المستوى من القتامة. لقد توقّع نيتشه هموم القرن العشرين التي لا تنتهي. لكن تفاؤلاً ديناميكيا محدداً أتى لتحقيق التوازن: **"أريد أن أتعلم أكثر وأكثر لأرى الضروري جميلا، ولذلك سوف أصبح واحداً من أولئك الذين يجعلون الأشياء جميلة. (حبّ القدر): ليكن ذلك حبي من الآن فصاعدا. لا أريد شنّ حرب على البشاعة. لا أريد اتهامات.... بالإجمال، أريد ذات يوم أن أكون (Ja-sagender)!"** لكن سرعان ما تعرض تصميمه لاختبار مرّ.

في روما في شهر نيسان من العام 1882، قابل نيتشه (لو سالومي) ووقع في حبها: فتاة جذابة عالية الذكاء وتصغره بسبعة عشر عاما، تنحدر من عائلة روسية ألمانية من الطبقة الراقية، وهي تُشبع لديه حالة الزهو الكامنة وحالة الارتياب من الألمان المتنامية. كانت مثله، قد فقدت إيمانها الديني في وقت مبكر. كانت (لو) معجبة بالفيلسوف الشاعري، المهيمن فكرياً، لكنه الفقير نصف الأعمى. قالت لاحقاً إن كلماته الأولى لها كانت: **"أية نجوم أرسلتنا ليدور أحدنا في فلك الآخر؟"** على أية حال، كانت عُصابية تجاه حالة عذريتها، ربما بسبب ارتباطها المحرّم بوالدها. ونشأت حينها فكرة أن يعيش (بول ري ونيتشه ولو) ويدرسوا معاً في ذلك الشتاء – لكن بعفة. لم يكن نيتشه يعرف أن بول ري، الذي اعتبره صديقه الأفضل، قد تقدم عبثاً لخطبتها.

كان نيتشه، الواقع بالحبّ فعلاً وللمرة الأولى –والأخيرة– يتحدث إليها حول أفكاره الناشئة عن "زرادشت" وقد تقدم لخطبتها على قمة جبل، وكان مستعداً لقبول زواج عذري. كان لامتناعه عن الجنس

جاذبية واضحة لرجل لديه السفلس. وعلى الرغم من رفض (لو) لعرضه، فقد التقى "الثالوث" كما وصفته هي، مرة أخرى في لوسيرن في شهر أيار. قاموا برحلة حجّ إلى فيلا فاغنر السابقة في تريبشن حيث انهار نيتشه وبكى، كما أوضحت (لو). كما أنهم اتخذوا وضعيات محددة في استديو لتُلتَقط لهم صورة. تلك الصورة المشهورة السيئة السمعة والمخيّبة للأمل بشكل عميق. وبدلاً من إظهار الصورة لجماعة من الأشخاص الأقوياء، فقد أظهرت مجرّد عربة ريفية مُقلدة صغيرة "يقودها" ري ونيتشه، وفيها (لو) تلوّح بسوطها بفتور، وتظهر وراءهم خلفية لجبال الألب. من الواضح أن السوط والعربة، كانت من تحضير استوديو التصوير، وإن كانت هذه الفكرة فكرة نيتشه — كما قالت (لو) — فمن الواضح أنها دُعابة. لاحقاً، أظهرت (لو) الصورة إلى العلن على أنها كذلك.

لكن نيتشه، الذي اعتقد أنه حصل في النهاية على شريك "**لتحليق الروح**"، أصبح الآن مبتهجاً. وأمضى شهر آب مع (لو) في غابة تاوتنبيرغ، مقدماً نصائحه حول كتاباتها الخاصة، التي تتضمن أشعاراً مشابهة جداً لأشعاره، وشارحة أفكاره. لقد كتب لاحقاً: "**أنا أتساءل ما إذا كان انفتاح فلسفي كهذا الذي بيننا قد وُجِدَ مثله من قبل**". ثعبانان حطما هذا الفردوس: أوحى (ري) بخبث لـ (لو) أن نيتشه كان مهتماً بها فقط من أجل استغلالها جنسياً، وتشاجرت إليزابيت أخت نيتشه، التي كانت ترى (لو) على أنها المغوية النموذجية، بعنف مع كل من (لو) ونيتشه. وفي ذلك الخريف، أصبح نيتشه الذي كان يثق بـ (ري ولو) بالمطلق، غاضباً. لقد أدرك في شهر تشرين الثاني في ليبزيغ، أن الاثنين الآخرين قد ذهبا معاً دون أن يخبراه، وانتهت العلاقة الثلاثية[1].

[1] العلاقة الثلاثية: التعبير الفرنسي لها (ménage à trios) وهي ترتيب معيّن يتقاسم فيه ثلاثة أشخاص علاقة جنسية، والشكل النموذجي لها يتألف من ثنائي متزوّج ينضمّ إليه

استمرت (لو سالومي) بنشر الروايات ودواوين الشعر، ونالت المديح حينها .في العام 1889 تزوجت من الأكاديمي فريد أندرياس، وبشكل مثير للاهتمام بقي زواجها غير مكتمل، حتى موتها في العام 1930. كان لديها "علاقات ثلاثية أخرى"، وعلى نحو معروف مع الشاعر النيتشي (راينر ماريا ريلكي)، الذي حملت منه ولكنها أجهضت الطفل. ولاحقاً أصبحت تلميذة فرويد، مختصة في العلاقات الجنسانية الشرجية[1]. واختفى (ري) من المشهد، وبقي نيتشه، يغلي بحقد لا جدوى منه – على إليزابيت وعلى (ري) وعلى (لو) – وتُرِكَ مهجورا وحزيناً أكثر من أي وقت مضى. كتب في يوم عيد المَيلاد في عام 1882 إلى (فرانس أورباك): **"هذه اللقمة الأخيرة من الحياة كانت اللقمة الأقسى التي كان عليّ أن أمضغها... لو كان بإمكاني النوم فقط! لكن أقوى عقاقير النوم (كان يتناول خمسين غراما من هيدرات الكلور في اليوم) لا تفيدني بأكثر مما تفيدني به ست ساعات أو ثمان أمشيها في اليوم. إن لم أجد الصيغة السحرية لتحويل كل هذه القذارة إلى ذهب، فقد انتهيت"**.

كان شعار نيتشه: (تُستعاد القوة من خلال الجراح). وقد ظهر من خلال إحباطه، أطول وأعظم عمل له، وهو الأوبرا المكتوبة نثرا "هكذا تكلم زرادشت"، والتي كُتِبَت في طفرات من الإلهام الهوسي، تردد غالباً صدى من الإنجيل أو تسخر منه، وانتهى الجزء الأول من الكتاب في العام 1883. يبدأ الكتاب بهبوط رنّان إلى العالم:

حبيب أحد الطرفين، لكنها تشير إيضاً إلى علاقة مساكنة بين ثلاثة أشخاص دون أن يكون بينهم علاقات جنسية. المترجم.

[1] يقسم فرويد مراحل تطوّر الإنسان إلى المرحلة الفموية والمرحلة الشرجية والمرحلة التناسلية. المترجم.

عندما بلغ زرادشت الثلاثين من عمره، ترك منزله... وذهب إلى الجبال. استمتع بروحه وعزلته ولم يضجر منها لعشر سنوات. لكن سريرته تبدّلت في النهاية، فنهض من نومه صباحٍ أحد الأيام مع طلوع الفجر، وانتصب أمام الشمس يناجيها قائلا: أيها النجم العظيم! ماذا ستكون سعادتك إن لم يكن لديك من تشرق من أجله؟ إنظر إلي! لقد سئمت حكمتي، وأصبحت كالنحلة التي أتخمها ما جمعت، فهل لي بالأيدي تمتد وتأخذه. أودّ أن أهبه وأتشاركه حتى يَسعَدَ الحكماء من الناس بجنونهم، يَسعَدَ الفقراء منهم بثروتهم....ٍ بارك الكأس الذي يريد أن يفيض، بحيث يتدفق الماء منه ذهبيا، ويحمل انعكاس فرحك على العالم كله!

كتاب هائل متدفق يمكن قراءته أكثر من مرة، يهيمن عليه مبدآن هائلان جداً، والأكثر شهرة هو المتعلق بـ (Übermensch) (تعني هذه الكلمة السوبرمان بشكل حرفي، لكن من غير الممكن ترجمتها بشكل فعلي)، كلمة هربت من مُبدعها لتكسب حياة خاصة بها، وغالباً ما تكون مشبوهة. لم يعن نيتشه بهذه الكلمة فصيلة مختلفة بيولوجياً عن البشر الحاليينَ، ولا نوعاً محسناً جينياً، بل كياناً أرقى نفسياً وأخلاقياً وجمالياً، والذي كان "عظماء الماضي" – يوليوس قيصر، بيتهوفن، غوته – مجرّد أشباه له. **"ما هو القرد بالنسبة للبشر؟ مهزلة أم عار مؤلم. كذلك سيكون البشر بالنسبة إلى السوبرمان... في السابق كنتم قروداً، ولم يزل البشر حتى الآن، أكثر شبهاً بالقرود من أي قرد ...... اصغوا إلي، أنا أعلمكم من هو السوبرمان، إن السوبرمان هو معنى هذه الأرض".** مع موت الله، يجب على السوبرمان أن يملأ الفراغ النفسي والأخلاقي، لكن ما سيفعله السوبرمان في حالته السامية تلك، هو فقط تركه نيتشه غامضاً.

تكمن تتمة هذا الأمر في عقيدة التقمّص الأبدي، كل شيء – حرفياً كل شيء – سوف يعود ويعود في دورات هائلة. "**هل قلتِ يوماً نعم للحظة سعادة؟ ... إذن فقد قلت نعم، لكل محنة أيضاً. الأمور كلها متشابكة ومتداخلة ومعشّقة بعضها ببعض.... كل متعة تريد الخلود!**" إنها فلسفةٌ تسبب ألم المعدة. يقدم نيتشه رسالة حيوية أخرى: "**ابق وفياً للأرض، ولا تؤمن بأولئك الذي يتحدثون إليك عن آمال من عوالم أخرى .... إنهم يحتقرون الحياة، إنهم أشخاص ضامرون ونصف مسمومين، تضجر الأرض منهم**". كانت تتمتّع نظرته للحياة بالأهمية نفسها، وتقوم على أنها حياة مذهلة ورائعة ووفيرة، وهي نظرة كامنة في كتاب "زرادشت" وأصبحت واضحة لاحقاً. ومع كل قبوله للمعاناة الوجودية، رأى حالة الكون الطبيعية على أنها "**هي حالة من الوفرة والإسراف تصل إلى درجة تنافي العقل. أما بالنسبة للصراع الشهير من أجل الوجود .... فهو يحدث كاستثناء فقط، لكن الجانب العام من الحياة، ليس الجوع والمحن، بل بالأحرى، ثروة ورفاه، بل حتى تبذير عبثي**". كان هذا اختلافه الرئيس مع الداروينيين، الذين يدعون معرفة كليّة شبه بابوية للبيولوجي العظيم داروين.

كان نيتشه قد أنهى الجزء الأول من كتاب "زرادشت" عندما سمع بموت فاغنر في 14 شباط من عام 1883. وقع في المرض مجدداً، وبعدها شعر بارتياحٍ كبير: "**كان من الصعب عليّ البقاءُ لست سنوات، معادياً للشخص الذي كنت أحترمه كثيراً**"، لكن هذا تركه أكثر عزلة حتى. إن كتاب "زرادشت" هو جزئياً، نشيد للعزلة. وقد ارتبطت أخته إليزابيت، المهتمة به منذ مدة طويلة لدرجة يشكّ المرء بأن لديها ولعاً سفاحياً به، بـ (بيرنارد فورستر) المعادي للسامية بشكل مسعور. شكّل

فورستر حزب الشعب الألماني، وأسس الأسلاف غير الفعالين للنازية قبل الهجرة إلى البرغواي لتأسيس مستعمرة (أريانية). تزوجته إليزابيت في شهر أيار من العام 1885 رغم عدم موافقة أخيها، لكنها كانت في الأربعين من العمر وكانت يائسة. أبحر الزوجان إلى البرغواي في العام 1886، لكن مستعمرة جرمانيا الجديدة كانت سيئة الطالع، انتحر فورستر في العام 1889، بعد أن ظهرت قضية اختلاسه، وعادت إلزابيت إلى أوروبا. كان نيتشه قد فقد صبره مع "هذا الساذج المنتقم المعادي للسامية" قبل مدة طويلة من هذا الحدث.

كانت مبيعات كتبه القديمة تزداد سوءاً. وعلى الرغم من دهشته لإهمال العالم **"لأعلى الكتب الموجودة سموّاً"** كان عليه أن يدفع من أجل نشر القسم الأخير من كتاب "زرادشت" في العام 1885. كان المال مشكلة متزايدة بالنسبة للبروفسور المتقاعد، على الرغم من مساعدة المعجب الأرستقراطي العجوز (ميتا فون ساليس) له في بعض الأوقات. لكن كما لو أن كتابة "زرادشت" قد أشبعت حاجات البذخ بالتنبؤات لديه، فقد كتب الآن بشكل أسرع، بشكل شفاف وأفضل من كل ما سبق. كان كتاب "ما وراء الخير والشر– تمهيداً من أجل فلسفة المستقبل" الذي نُشِرَ في العام 1886، مهتماً بالحقيقة في الواقع. كان يسأل: **"هل تعتقد أننا نريد الحقيقة؟ لماذا لا نفضّل الكذب وعدم اليقين وحتى الجهل بدلاً منها؟ لدى معظم الناس بالأحرى، رغبة غريزية نحو ما هو سطحي"**. (ربما كان هذا أقل عبارات نيتشه إثارة للجدل). أشاد الآن بالثقة بالنفس، وبجشع الأرستقراطيين في الواقع، قائلاً: **"تتشكل الحياة بحد ذاتها بشكل جوهري، من الاستلاب والأذى وسيطرة ما هو خارجي وغير فعال"**. كان يفكر بأمراء النهضة من أمثال سيزار بورجيا، الذين ألهموه كما ألهموا

(ميكافيللي). كان بيركهارت قد جادل بأن "طغيان النهضة ....عزز الفردانية المتطرفة، ليس لدى الطاغية فقط بل لدى ..... الكاهن والوزير والشاعر والرفيق أيضاً". كان عمله التالي هو "أصل الأخلاق وفصلها"، حيث قدّم مفاهيمه حول اختلاف أخلاقيات السيد والعبد. لقد أعلن أن الأخلاقيات اليهودية المسيحية[1] هي بشكل جوهري أخلاقيات العبد. وهي نتيجة استياء طبقة المحاربين النبلاء "**استياء من هم غير قادرين على التصرف، يجعلهم يعوّضون عنه باستخدام الانتقام المتخيّل**"، وذلك بالعقاب في الجحيم. لقد رفض الاشتراكية والفوضوية كأحد أشكال المسيحية الوضعيّة المعلمنة. لقد مقت روسو والثوريين الفرنسيين بشكل خاص، ومَقَتَ أفكارهم المثالية السامّة عن المساواة. لكن السياسة نادراً ما كانت تهمّه بالمقارنة مع الأدب وعلم النفس. وقد قَبِلَ الزهد كشيء جوهري لمعرفة الذات التي تمنح السوبرمان "الرغبة بالسلطة" – عبارة أخرى ليُساء استعمالها بعد موته. لكن الزهد كان مجرد مرحلة، قبل أن نستطيع "**إزالة مفهوم الخطيئة من الدنيا...... إنه مرض، الضميرِ السيئ الذي لا جدال فيه، لكنه مرضٌ كما يكون الحملُ مرضاً**". تتجاوز مملكة السوبرمان محناً كهذه، وتمتد حتى ما وراء نيتشه.

في أوائل العام 1887، اكتشف ديستوفسكي وأشادٍ به على أنه "**عالم النفس الوحيد....الذي تعلمت منه شيئاً**". بالكاد احتاج نيتشه لقراءة الروايات الروسية الكبرى، ليعرف كما لو أنه من خلال الغريزة، عقلية القاتل (راسكولنيكوف) أو الأمير الأحمق المقدس مايشكين. وقارن لاحقاً "**العالم المريض الغريب**

---

[1] Judaeo-Christianity: العبارة باللغة الإنكليزية هي (Judaeo-Christianity)، وهي مصطلح يستخدم للتأكيد على المعايير الأخلاقية المشتركة بين الديانتين المسيحية واليهودية، مثل الوصايا العشر. وقد أصبح جزءاً من الدين المدني الأمريكي وغالباً ما يُستخدم لتعزيز التعاون بين الأديان. المترجم.

الذي عرفتنا به الأناجيل" مع "الرواية الروسية التي تلتقي فيها حثالة المجتمع مع الأمراض العصبية، و(الحماقة الطفولية).... من المؤسف أنه ما من ديستوفسكي، يعيش قرب هذا المتهور الأكثر إثارة للاهتمام (يسوع)". لم ينكر نيتشه أبداً، أن حياة نكران الذات المسيحية كانت ممكنة، لكنه شكك بوجود أي شخص يرغب بذلك فعلاً. **"كان هناك في الحقيقة شخص واحد مسيحي وقد مات على الصليب..... وقد عاش كما كان قد علّم – ليس ليخلّص الناس، لكن ليريهم كيف يجب على الإنسان أن يعيش.... هو لم يقاوم ولم يدافع عن حقه، لم يقم بأي شيء ليدرأ ما هو أسوأ، بل على العكس، فقد استفزهم.... يجب عدم المقاومة وعدم الغضب، وعدم مقاومة حتى الشخص الشرير، بل محبته".** لقد رأى أن عدم المقاومة هو جوهر حياة المسيح وتعاليمه، وقد انحرفت بسبب بولس الرسول وجميع المسيحيين لاحقاً.

بدا العام 1888 يمنح الأمل لنيتشه بشكل مفاجئ في الدنمارك، أشاد الناقد جورج برانديز "بتطرّفه الأرستقراطي" الذي أسعده، وبدأ يعطي محاضرات عن نيتشه في جامعة كوبنهاغن. وفي السويد بعدها بقليل، بدأ الكاتب المسرحي (أوغست ستريند بيرغ) مراسلاته قائلاً إنه ينهي كل رسالة بعبارة: "اقرأ نيتشه!" وبدا أن صحة نيتشه تتحسن، وعزا ذلك إلى اكتشافه لمنطقة تورين في ذلك الربيع. لقد أحب شوارعها ومقاهيها وأماكن بيع الكتب وبيوت الأوبرا الملكية كلها، مطلقاً عليها اسم **"مكان كلاسيكي... كل شيء فيها أكثر فخامة مما كنت أتوقعه. أجمل مقاهٍ رأيتها على الإطلاق".** المدينة كلها تنضح بـ **"الهدوء الأرستقراطي .... ليس هناك من ضواح قذرة".** كان نيتشه الذي يدّعي الآن انحداره من (النيزكي)، أو الأرستقراطيين البولنديين، مسحوراً وملهماً

ومنتعشاً. وقد كتب إلى والدته في شهر أيار "**أعجوبة فوق أعجوبة، كان لدي ربيع رائع مرح حتى الآن. الأول منذ عشر سنوات أو خمس عشرة**". واستمرّت هذه النشوة المثمرة على الرغم من الصيف القذر في سيلز ماريا، ولدى العودة إلى (تورين) في الخريف، تكاثفت النشوة إلى إحساس ذهبي بالرفاهية.

أصبح الآن يكتب بسرعة أكبر، وكان خط يده غير مقروء لدرجة أن مسؤول المطبعة لم يستطع قراءته. ربما كان كتابه "قضيّة فاغنر" الكتاب الأقل إنصافاً والأكثر إمتاعاً على الإطلاق، من كل ما كتِبَ عن الموسيقى. إنه عبارة عن رثاء مقلوب مكثّف جداً، بقي يشكّل هاجساً له بالمعلّم الموسيقي المتوفى. يبدأ الكتاب بأنشودة ثناء لأوبرا كارمن لبيزيه — "**تبدو هذه الموسيقى رائعة بالنسبة لي. إنها تصل بخفة وبأدب**" — وبعدها وضع اللوم على فاغنر كشخص منحط "**بعيد خمس خطوات عن المستشفى**"، الذي قدّم "**المحفزات الثلاث العظيمة للعقم — الوحشي، الزائف، البريء (الأحمق)**". ومع ذلك، وكما اعترف نيتشه: "**لا يمكن مقارنة الموسيقيين الآخرين مع فاغنر**"، كان برامز مجرد "**معلّم في التقليد**". إن كان فاغنر منحطّاً، فهو يناسب العصر المنحط. (غير قادر على ترك الآلهة النائمة تستلقي، عاد للهجوم مرة أخرى في تلك السنة في الكتاب الموجز (نيتشه ضد فاغنر.) إنه يدين الآن الموسيقى الألمانية بشكل عام على أنها "**مصابة بالإمساك وتسبب الإمساك**" — مثل البيرة والدين الألمانيين.

كتاب "أفول الأصنام"، يسخر في هذا العنوان من فصل أفول الآلهة، الفصل الأخير من أوبرا (الخاتم) لفاغنر. أسلوب الكتاب من حيث النبرة، معاكس تماماً لأسلوب فاغنر، بليغ، بارع، رشيق الخطا، منجذب لثقافات الشعوب الأجنبية وأدبها. أعلن في مقدمته: "**لا شيء ينجح إن لم تلعب فيه الأرواح السامية دورا**".

هاجم نيتشه العديد من الأمراض العصرية كما لو أنه يهدف إلى إزعاج الجميع: الفلاسفةِ والثوريين واختصاصيي التغذية، النساء والنساء الأديبات تحديداً، الناس وخاصة الشعب الألماني. لكنه ركّز أولاً على بشاعة سقراط التي تغاضى عنها المفكرون قبله إلى حدّ ما. "**البشاعةٍ... بين الإغريق تكاد تكون فطريّة. هل كان سقراط إغريقيا ....؟**" على أية حال، "**كان سقراط من الرعاع.... مع سقراط خضع ذوق الإغريق لتغيير في صالح الجدلية .....إنها فوق كل شيء، هزيمة لذوق أنبل. ومع الجدلية، يصل الرعاع إلى القمة**". ومع ذلك، لا يزال نيتشه لا يستطيع أن يحسم أمره في سقراط أو فاغنر أو حتى يسوع.

على أية حال، لم يكن هناك من لبس حول بطل واحد وهو غوته.

" لم يكن حالة ألمانية، بل كان حالة أوروبية.... ما كان يطمح إليه هو الكليّة. حارب ضد الفصل ما بين العقل والشهوانية والإرادة...... إنسان ليس لديه شيء محرّم بِاستثناء الضعف. روح كهذه أصبحت حرّة، تقف وسط الكون بقدَريّة سعيدة وواثقة، بإيمان أنه .... في الكلّية، كل شيء قد تم افتداؤه وتأكيده – هو لم يعد يُنكِر.... إيمان كهذا هو أسمى من أي إيمان ممكن. لقد عمّدته...... باسم ديونيسوس."

لقد وجد نيتشه السوبرمان الخاص به.

جاء بعده كتابٍ "عدو المسيح" مكرراً المهاترات السابقة مع أنها ليست دينية دائماً. "**التقدم هو مجرد فكرة حديثة.... فكرة زائفة. الأوروبي اليوم هو أقل قيمة بكثير من أوروبي عصر النهضة**". لكن المسيحية تبقى هدف نيتشه الأساسي. "**إن أزاح شخص ما مركز الثقل من الحياة إلى "الماوراء" – إلى الفراغ –**

فسوف تتجرد الحياة من مركز ثقلها. **إن الكذبة الكبيرة المتعلقة بخلود الإنسان تحطم المنطق كله، كل الطبيعة الغريزية – كل ما هو مفيد**". وقدّم ثناءً نصف ساخر للبوذية "**أكثر واقعية مئة مرة من المسيحية..... إن موقعها حسب رأيي، وراء الخير والشر**". حتى الإسلام "**والعالم الثقافي الرائع للأندلس**" تمت الإشادة به بشكل عابر – "إنه يقول نعم للحياة". وينتهي الكتاب بلعنة، "**لقد أسميت المسيحية، اللعنة الكبيرة الوحيدة، والفساد المتأصل الأوحد، والغريزة العظيمة الوحيدة للانتقام الذي لا توجد وسيلة سامّة وسرّية وتافهة بشكل كافٍ له**".

رأى نيتشه تلك الكتب كمقدمات فقط لكتابه الذي خطط لكتابته وهو "إعادة تقييم كل القيم" الذي كان بحدّ ذاته بديلاً لكتابه الأطول وهوٍ "إرادة القوة"، الذي نشرت إليزابيت ملاحظاته غير المكتملة لاحقاً بشكل مضلل ناتج عن خبث. لكنه كتب عملاً واحداً آخر وهو الأكثر أصالة بين السير الذاتية كلها، وقد بدأ به في عيد ميلاده في شهر تشرين الأول من العام 1888: ("هذا هو الإنسان"، إشارة إلى محنة المسيح). يحتوي الكتاب على عنوان فرعي هو (كيف يصبح المرء ما هو عليه) ويحتوي بدوره على عناوين – "**لِم أنا على هذا القدر من الحكمة**"، "**لِم أكتبُ كتبا جيّدة**" – تجعل البعض يهربون وهم يدمدمون: "الشلل العام للمجانين". لكن نيتشه لم يكن مجنوناً، وبالأحرى ليس تماما حتى الآن، على الرغم من أن بكتيريا السفلس كانت تنتقل إلى دماغه، حيث أصبح المرض في المرحلة الثالثة الكارثية. وعلى الرغم من أن السيرة الذاتية لأفكاره في كتاب "هذا هو الإنسان"، تبدأ بتأبين لحياته:

في هذا اليوم الذي بلغ الاكتمال، حيث الأشياء جميعها في أوج النضج، وليس العنب وحده هو الذي يتخضّب بالسمرة،

وقع على حياتي شعاع شمس: نظرت إلى الخلف، ونظرت إلى الأمام، وإذ أمام عيني من الأشياء الكثيرة الجيدة ما لم أر مثله من قبل، هكذا دفعة واحدة. ليس عبثاً إذن أن أكون قد دفنت اليوم السنة الرابعة والأربعين من عمري، فقد حقّ لي أن أدفنها....... كيف لا أكون ممتنّاً لحياتي بكليتها إذن؟

بالنسبة لشخص كانت حياته الفعلية عبارة عن سلسلة من المعاناة والرفض والفقر والعزلة، فإن هذا الكلام خال من الشفقة على الذات بشكل بطولي. كان الأقل جدارة بالثناء، هو هذا التملق الذاتي الذي يزيّن خلاصاته السريعة لأعماله السابقة. لم يكن الثناء على الذات شيئاً جديداً — الكتابة لوقت طويل من دون قراء، جعلت ذاته متضخمة — لكن التأثير الجانبي للسفلس كان تدمير المَلَكَات العقلية النقدية.

تم إنجاز كتاب "هذا هو الإنسان" بعد أن عاد إلى تورين في شهر أيلول من العام 1888، وكان سعيداً من جديد بالمدينة "**الرائعة والمفيدة بشكل غريب**". كان ذلك الخريف جافاً وصافياً بشكل غير طبيعي، وهذا جعله يفكر (بشكل خاطئ) أن لتورين هذا المناخ المنشّط مثل أثنيا وروما. وقد كتب إلى أوفربيك قائلاً: "**ينتشر الضوء الأنقى لتشرين الأول في كل مكان، الطريق الرائع الذي تحيط به الأشجار... على طول مجرى نهر (بو)، بالكاد لامسه الخريف حتى الآن. أنا الآن أكثر الرجال امتناناً في العالم، ذو اتجاه خريفي بكل المعنى الجيد للكلمة إنه وقت الحصاد العظيم بالنسبة لي**". لكن كانت أوهام العظمة تظهر فجأة. "**أختبر سحراً رائعاً هنا في تورين. ينظر الجميع إلي وكأني أمير — هناك تميّز خاص بالطريقة التي تُفتحُ فيها الأبواب، أو يُقدّم فيها الطعام لي**". لقد طلب من والدته إرسال ملابس أنيقة تناسب أميراً يعيش باسم مستعار. في الواقع، ذكر

المالك لاحقاً وضع المستأجر لديه، ووصفه بأنه كان وحيداً بشكل مفرط وكان يمضي الساعات يعزف على البيانو في غرفته، وما كان يعزفه هو موسيقى فاغنرية.

أوهام عن العظمة، أوهام عن الصحة، أوهام حتى عن الشباب... بالنظر إلى نفسه في المرآة، اعتقد أنه يبدو أكثر شباباً وأفضل صحّة من كل وقت مضى. كان يكتب الآن ديوان (ديونيسوس أو أناشيد ديونيسوس)، قصائد مجزّأة لكنها جميلة غالباً، استبقت الشعر الحر في القرن العشرين. لقد بدأ بشكل متزايد يعتقد بأنه ديونيسوس وقد عاد إلى الأرض، وبأنه الإله الذي سيغيّر كل القيم - ويسحق الرايخ الألماني. كتب إلى (ستريندبيرغ) بعد عيد الميلاد مباشرة، **"طلبت اجتماعاً للأمراء في روما. أريد أن أطلب قتل القيصر فيلهلم الثاني"**. في الثالث من كانون الثاني في العام 1889، انهار وهو يحاول معانقة حصان يتم سوطه في الشارع. وعندما صحا، كان مجنوناً بشكل واضح. كتب إلى (ميتا فون ساليس)، **"لقد تغيّر مظهر العالم لأن الله على الأرض. ألا ترى كيف تحتفل الجنان كلها؟ لقد استوليت للتو على مملكتي وألقيت "البابا" في السجن"**. وقد وقّع هذه الرسالة باسم ديونيسوس. ثم تلقى فرانز أوفرباك رسالة في (بازل) والتي تنتهي بـ: **"أنا أطلب قتل جميع المعادين للسامية"**، وذهب على الفور إلى تورين، حيث وجد صديقه العجوز يرقص عارياً في غرفته، التي كانت كما أعلن هو، معبد ديونيسوس. لقد أقنع أوفرباك نيتشه بالعودة إلى بازل. وهناك سلمه إلى مركز صحي حتى جاءت والدته وأخذته إلى نامبيرغ لتعتني به.

عاش نيتشه إحدى عشرة سنة أخرى بحالة من الاعتماد الطفولي، واختفى ذكاؤه الشديد تماماً. والمفارقة الصارخة أن الشهرة والثروة اللتين استعصتا عليه عندما كان عاقلاً، حدثتا في

النهاية. وكان المستفيد منهما أخته إليزابيت، التي لدى عودتها من البرغواي في العام 1893، اعتنت به بعد موت والدتها، واستغلته بشكل كبير، إذ اشترت منزلاً في نومبيرغ وحوّلته إلى متحف، وكان المعروض الرئيس هو الفيلسوف المجنون. مرتدياً روباً أبيض مثل كاهن أعلى آري، واتسع شاربه أكثر من أي وقت مضى، كان يحدّق ببلاهة بالزوار الذين أعجِبوا بصمته الذي يشبه الكاهن. وبينما انهمرت العائدات على إليزابيت، بدأت تعيش بترف، حيث استقدمت الخدم واشترت عربة نقل. وتوفي نيتشه بالسكتة الدماغية في 25 آب من العام 1900 وقد حظي بجنازة لوثرية — وهو ما كان سيكرهه بالضبط. لقد أساءت إليزابيت فهم أفكار أخيها، وربما عمداً، بنشر كتاب "إرادة القوة" الذي تم تجميعه من ملاحظاته بعد الوفاة، وحوّلته إلى قوميّ ألماني معادٍ للسامية، ورسول ألمانيا الإمبريالية. وبلغت هذه المهزلة ذروتها في زيارة قام بها هتلر إلى متحف نيتشه في العام 1934، عندما صافحت إليزابيت يد الدكتاتور. لكن خلافاً لزيارات هتلر الدورية للأضرحة الفاغنرية — وهي أماكن حجّ لفنان كان الفوهرر معجباً بأفكاره وموسيقاه بشدة — كانت هذه زيارة لمرة واحدة. لم يكن هتلر معجباً بنيتشه.

بعد أكثر من قرن على وفاته، تبقى الأسئلة — الثقافية والنفسية والأخلاقية — التي كان أول من سألها، مهمّة جداً، وتبقى الطريقة التي سأل بها، مغوية. لقد أثبتت وجهة نظره عن الحياة كحالةٍ جمالية، بدلاً من كونها تحدّياً أخلاقياً، أو على الأقل، كتحدٍ يمكن فهمه من خلال الحالة الجمالية فقط، أنها ملهمة بشكل خطير تقريباً، للكتّاب والفنانين أكثر منها للفلاسفة. ومن الواضح أن الفرح المأساوي ليتس، وملائكة ريلكه، وأفكار لورنس عن الحياة الأعظم، مدينة لنيتشه. من المكن رؤية نيتشه

أيضاً كتحذيرٍ من التفاهات والاستياء والشفقة على الذات، لعصرنا الشعبي ثقافياً. لقد كان بشكل لا جدال فيه، رائداً في تدمير الذنب المسيحي – الجنسي وخلافه – كما اعترف فرويد على مضض. لكن إن كان الحدس الفكري لنيتشه، جعله يتجاوز السبر الحذر لطبيب فيينا، فإن حياته الخاصة لم تؤدِ به إلى أي شيء.

لقد أعلن هيراقليطس، الفيلسوف الغامض ما قبل السقراطية، والذي كان نيتشه مُعجباً به بشدّة، أن"الشخصية هِي القدر". وبالنسبة لنيتشه، فقد قادته الشخصية والتكوين بعيداً عن الحياة الخارِقة. هو لم يقترب من تجسيد شخصية السوبرمان أبداً، وبقي دائماً بروفسوراً سابقاً رثّاً قصير النظر، بصحة بالغة السوء. لكن حتى لو سمحت صحته وثروته بذلك، فإن تربيته البروتستانتية كانت من الممكن أن تعيقه عن متعة التحرر من ذنب العربدات الديونيسوسية. لقد بقي بشكل دائم، تحت المواقف البطولية للسوبرمان، ابن القس نوعاً ما. في هجومه على المسيحيين الأوائل، على "**صومهم المبالغ فيه، امتناعهم المستمر عن ممارسة الجنس، انسحابهم إلى البريّة أو تسلّقهم الجبال أو على العمود .... وهم لا يفكرون بإصرار سوى بما يستحضر النشوة والتشوش العقلي**"، كان يصوّر نفسه – ولكن بشكل غير مقصود هذه المرة– إن كان قد أخذ معه السوط عندما زار امرأة، كانت هي من ستسوطه ليعود إلى العمل، وليس لاكتشاف شواطئ الجنس الأكثر جموحاً معاً. لقد أوشكت نزعة التقشف لديه أن تصبح مازوشية. لكن خلافاً لميشال فوكو، الذي كان في إطار الفلسفة، وتلميذه الأكثر حرفية بشكل يدعو للقلق، فقد كانت مازوشية نيتشه فلسفية وليست جنسية، وتكاد تكون مسيحية بطبيعتها، وهذا غريب بالنسبة إلى رسول ديونيسوس والسوبرمان.

نيتشه والنازية

لم يؤذِ نيتشه شيء أكثر من صِلاته المزعومة بالنازية، لقد حاول نازيٌ مثل (ألفريد بوملر)، أستاذ الفلسفة في برلين، إدراج نيتشه بين رواد النازية. إن العبارات المختلفة لنيتشه التي تم إخراجها من سياقها – "الوحش الأشقر"، "إرادة القوة"، إلخ.... تبدو نازية بما يكفي. ومع ذلك، فقد عانى مفكرون مختلفون من أمثال هيغل وشوبنهاور وحتى كانط، الذين شكّلوا دعامة الاستنارة، مصائر مماثلة. تشير نظرة واحدة حول ما كتبه نيتشه فعلاً عن الرايخ الثاني، إلى ما سيكون رأي الكاتب الذي أعجبته الثقافة الفرنسية، واحتقر بشدة مواطنيه بحيث ادعى أنه بولندي، بالرايخ الثالث. كان نيتشه سيحتقر موقف النازيين من يهود أوروبا المتحررين حديثاً أكثر من أي شيء آخر. لقد أُعجِبَ نيتشه بسبينوزا، اليهودي العبقري الأول الذي هرب من حي اليهود، واعتبر أن هاينريش هاينه اليهودي، "**بخبثه الإلهي الذي بدونه لا أستطيع تصوّر المثالي**"، أعظم شاعر ألماني في القرن التاسع عشر، كما وضع نفسه بالمرتبة الثانية بكل تواضع. وعرف أن معشوقه بيزيه، كان لديه أسلاف يهود، وقد أشاد بأوفن باخ، مؤلف الأوبرات اليهودي، على أنه "**الشهواني الأكثر رقياً وغزارة في الإنتاج، والذي حافظ على التقليد العظيم كموسيقي**". وهاجم بوضوح معاداة السامية الألمانية في كتابه "إنسان مفرط بإنسانيته" المنشور في عام 1878. وكانت آخر كلماته بينما كان

يسقط بالجنون في العام 1889، **"طلبت قتل جميع المعادين للسامية"**. على صعيد شخصي مكثف، ولمدة عقد من الزمن تقريباً، كان أقرب صديق له هو اليهودي (بول ري)، الذي دمّر فرصته الوحيدة بحالة من السعادة الرومانسية مع (لو سالومي). لو كان نيتشه قد أخفى أثراً من معاداة السامية، لكانت ستظهر حينها. لم يحدث شيء من هذا القبيل.

ولئن تبرأ من اتهامات معاداة السامية ومن ريادته للنازية، فإن إعجاب نيتشه "برجال عظماء" من أمثال يوليوس قيصر، نابليون، وسيزار بورجيا، الطاغية الأكثر قسوة في عصر النهضة، يبقى الأكثر إثارة للجدل. يوحي هذا بأنه ربما كان لديه - كما كان لكتّاب آخرين من أمثال لويجي بيرانديلو، إزرا بوند، ووليم بوتلرٍ يتس لاحقاً – تعاطف كامن مع الفاشية، وهذا شكل أقل بغضاً بقليل من معاداة الديمقراطية. لقد قرأ بينيتو موسوليني، المثقف بشكل غريب كدكتاتور، نيتشه، وجعل شعاره هو العيش بخطر. عليٍ أية حال، الدكتاتوريون القدماء أو الجدد، لم يكونوا بحاجة يوما لفلاسفة، وكانت السياسة، ثغرة بتفكير نيتشه، اعترف بوجودها – لقد دعا نفسه مرة **"آخر الألمان المعادين للسياسة"**. كان نيتشه بالتأكيد نخبوياً بكل المعاني. إن إعجابه بـ "الأرستقراطيات القوية" ورفضه التعاطف (اليهوديٍ المسيحي) و(الرواقي والبوذي) مع الضعفاء، أضاف جانباً قاسياً بشكل منفر لبعض كتاباته. لكن إن كان من بين معجبي نيتشه متعاطفون مع النازية من أمثال هيدجر، فإن النيتشيين اليساريين مثل هيربٍرت ماركوس، وكارل غاسبرز أو جان بول سارتر، يفوقونهم عددا.

4/ بيرتراند راسل (1872 – 1970):

رياضيات السلوك الإنساني

"وجدتُ فرحة عظيمة في الرياضيات.... وأمِلت أنه مع الوقت ستكون رياضيات السلوك الإنساني بمستوى دقّة الرياضيات".

بيرتراند راسل

كتاب (صور من الذاكرة)

في أواسط القرن العشرين، أصبح بيرترانٍد راسل بالنسبة للكثير من المحيطين به "الفيلسوفٍ"، تماماً كما كان أنشتاين "العالِم". لقد بدا مناسباً تماماً لهذا الدور، بشعره الأبيض وملامحه الصلبة النبيلة، ينفخ دخان غليونه، ويخطب بحكمة عن المواضيع الاجتماعية والسياسية. كان قد قدّم أول محاضرة

على راديو (بي بي سي)[1] في العام 1949، وأصبح كتابه "تاريخ الفلسفة الغربية" أول كتاب عن الفلسفة يحقق أعلى المبيعات. وجعل هذا اسمه مألوفاً، وهذه مكافأة كبيرة بالنسبة لفيلسوف، لكنه كان كتاباً واحداً من بين كتب كثيرة بدأت بكتاب "الديمقراطية الاجتماعية" سنة 1896، وانتهى بعد إحدى وسبعين سنة بكتاب "جرائم الحرب على فيتنام". لم يكن راسل فيلسوفاً على مستوى ضيّق، كما أن منحه جائزة نوبل للأدب في العام 1950، حيث لم تكن هناك جائزة خاصة بالفلسفة، بدا وكأنه في محله.

كما كان في محله أيضاً، توقيع بيان مع إنشتاين وخمسة آخرين من الحاصلين على جائزة نوبل، أصدروا عبره أول تحذير من التأثيرات الكارثية للحرب النووية، كما شارك في الحملات اللاحقة ضد الأسلحة النووية مع حملته لنزع السلاح النووي وشارك بتأسيس لجنة المئة. وفي العام 1961، وفي عمر التسعين تقريباً، تحمّل السجن بسبب احتجاجات "مشاركته باعتصام". إن عملاً بطولياً كهذا جعله يبدو كرسول للسلام ومنارة للاستقامة والعقل. كان يدعي أنه مقود بـ "**مشاعر ثلاثة بسيطة، لكنها قوية غامرة..... التوق للحب، البحث عن المعرفة، والشفقة التي لا تُطاق لمعاناة الإنسان**". وهذا بالضبط ما يتوقعه الناس من فيلسوف.

حقق راسل أيضاً توقعات العالم الأكاديمي، وبشكل رئيس من خلال كتابه "مبادئ الرياضيات" المكوّن من مجموعة من المجلدات، وقد ألّفه بالاشتراك مع ألفريد نورث وايتهيد. كان هذا هو عمله العظيم الذي أسس لشهرته بين أقرانه حول العالم.

---

[1] كان هناك برنامج في راديو بي بي سي، باسم محاضرات "ريث" وهي عبارة عن سلسلة محاضرات سنوية قدمتها شخصيات بارزة جداً في ذلك اليوم. المترجم.

فمن خلال تطبيق المنطق الرياضي على اللغة، ساعد كتاب "المبادئ" على وضع أسس الفلسفة التحليلية التي أصبحت النموذج المهيمن في العالم المتحدث بالإنكليزية لفترة طويلة من القرن العشرين. كان لودفيغ وتغنشتاين قد أحبّ الفلسفة بسبب كتابات راسل. لكن، عندما انتهى راسل من كتاب المبادئ في العام 1913، شعر بالإرهاق فكرياً على الرغم من كونه فقط في الأربعين من عمره. وعندها أيضا، قوّضت انتقادات وتغنشتاين لأفكاره، ثقته الفكرية بنفسه. لقد قادته نشاطاته ضد الحرب، في الحرب العالمية الأولى، لخسارة زمالته في كليّة ترينتي في كامبريدج ومن ثم إلى السجن. وتَبِعَ ذلك زواج ثانٍ وأطفال وضغوطات مالية لا نهاية لها.

وكنتيجة نهائية، لم يكتب راسل فلسفة "حقيقية" مرة أخرى لباقي حياته، رغم أنه عاش حتى السابعة والتسعين وتوفي في العام 1970. وفي جولة محاضرات قام بها في أمريكا الشمالية، تلقى سؤالاً من رئيسة تجمّع الفتيات الذكيات، وكان السؤال عن سبب تخليه عن الفلسفة الرسمية، فأجاب بسرعة: "لأنني وجدت أنني أفضّل ممارسة الجنس". كما أنه، ومن أجل دفع متطلباته المالية، كتب بغزارة خلال كامل حياته وبحدّ يصل إلى 2000 كلمة في اليوم. وبالتأكيد كانت بعض كتاباته سطحية، لكنه في كتابات أخرى، دعا لأفكار راديكالية حول الجنس والزواج والطلاق والتعليم والعناية بالأطفال، بالإضافة للحكومات العالمية ونزع السلاح. ولم يكن يتفرّد بوجهات النظر هذه، لكنه كان قد اقترحها بطريقة متألقة مُقنعة، اخترقت العقل الغربي منذ ذلك الحين لتصبح جزءاً من وعيه الليبرالي، وتم قبولها بشكل واسع جداً حتى لتبدو وكأنها أصبحت من التركيبة الداخلية للعقل. إن كتاباته الشائعة هامة بشكل غريب، لأنه توقّع عبر منشوراته،

العديد من المواقف والتوجّهات التي حدثت لاحقاً. إن الكهنة والمحافظين الذين هاجموه بسبب "لا أخلاقيته" كانوا على حق بطريقة ما. لقد كان يدعو إلى ثورة "أخلاقية" اجتماعية (من الناحية الجنسية)، وقد حدثت بعد وفاته. ونحن، الذين نعيش الآن بحالة أعلى نسب الطلاق ارتفاعا، ورثة (بيرتي القذر) نوعا ما، وهذا واحد من ألقابه الأقل إطراء. لقد تزوج في حياته أربع مرات وكان له عدد لا يُحصى من العشيقات، ولم يصدر منه أي اعتذار عن هذا الموقف.

أفضت كتاباته الشائعة، والمسلية بشكل كبير غالباً، إلى تسميته "فولتير القرن العشرين". إنها مقارنة مشروعة لأن فولتير، وعلى الرغم من أنه لم يكن مفكراً عميقاً، فقد كان أرستقراطياً ليبرالياً مثل راسل، وقد ناصر كلاهما قضايا غير شعبية وخطيرة أحياناً. لكن، بينما أنهى فولتير حياته مكرّماً من أوروبا كلها، والابتسامة الحميدة تطبع ملامحه الثمانينية، أنهى راسل حياته الأطول، وسط حالة من النزاعات العائلية وتبادل الاتهامات، وخلفه تنتشر "سلسلة طويلة من الحطام العاطفي"، كما قال كاتب سيرته الذاتية الرئيسة (راي مونك)، بينما بدا غالباً هو ذاته وكما وصّف نفسه بعبارته الخاصة: "**مسكوناً بأشباح المهووسين**". كمثال على ذلك، لم تذكر وصيّة راسل في العام 1966، ابنه الأول جون، الذي كان قد بنى عليه آماله كلها، وهو ابنه الذي حاول لاحقاً أن يضعه في مصحّة للمجانين. وبدلاً من ذلك، أوصى بأملاكه إلى سكرتيره الصحفي الشاب رالف شونمان، مع أنه تشاجر في النهاية حتى مع شونمان.

كان لديه رغبة كبيرة بالأطفال، لكن الأفكار المستنيرة العقلانية، لم تمنعه من أن يكون أباً كارثياً وجداً كارثياً، إذ كان غالباً زوجاً أو عاشقاً. إلى أي مدى أبطلت إخفاقاته الشخصية،

أفكـاره؟ وإلى أي مـدى تعكـس تلـك الإخفاقـات، شخصـيته المضطربة؟ هذان ليسا سؤالين أكاديميين. لقد تصرّف بقسوة مـع الناس الآخرين، بدلاً من إلقاء المواعظ حـول الإنسـانية، ونقتبس كلمات صديقه مونك مجدداً إذ اقترح وجود سمتين أساسيتين لهذا التصرف هما: "الخوف العميـق مـن الجـذورٍ وحالـة مـن الغـرور الضخم جداً"، وقد جاءت السمة الأولى جزئياً من أسلافه، وكانوا من بعض أعظم الشخصيات في البلاد، أما الغرور، فقد تم تعزيـزه من خلال الانتصارات الأكاديمية.

تم انتخابه زميلاً في كلية (ترينتي) وهو لا يزال في الثالثة والعشرين من عمره، وأصبح عضواً في المجتمع الملكي في الثامنة والثلاثين، لعمله على الرياضيات والمنطق. من تلك القمم الاجتماعية والفكرية، نظر راسل نحو الإنسانية بتعالٍ نبيل. كان من النادر جداً أن يسقط قناع النزعة الإنسانية المتحـرّرة، لتظهر النبالة الإسبانية المتغطرسة بدلاً عنه، كما حدث عندما صرّح بأن: " **داروين كان يساوي أكثر من ثلاثين مليون إنسان عادي**".

وُلِدَ بيرتراند راسل في 18 أيار من العام 1872. كان جده (إيرل راسل الأول) المعروف باللورد جون راسل، قد أصبح رئيس وزراء لمرتين تحت حكم الملكة فيكتوريا وكان قد ساعد في وقت سابق على توجيه مشروعٍ قانون الإصلاح العظيم في العام 1832 عبر البرلمان (كان مشروعاً أقل راديكالية مما يوحي به اسمه). لكن ارتقاء السلالة للسلطة والثروة الهائلة، كان قد بدأ في القرن السادس عشر مع (إيرل بيدفورد الأول)، أحد أتباع الملك هنري الثامن. كان لآل راسل تعاطف راديكالي منذ وقت طويل، إذ تم إعدام اللورد وليام راسل في العام 1683 لدوره في مؤامرة (راي ستريت) لاغتيال (تشارلز الثاني). اعتنق فيسكونت أمبرلي، والد

راسل، تلك الرؤى الراديكالية — كان لا أدرياً[1] ومطالباً بالحقوق المتساوية مع النساء — وقد دمّر مهنته السياسية، فقد عملت دعوته للحد من النسل تحديداً، على نفور الناخبين منه. لقد أصبح صديق أمبرلي، والفيلسوف الليبرالي (جي. إس. ميل)، عراب بيرتراند، مما قوّى هذه الرابطة الراديكالية. وكانت والدة راسل كيت ستانلي أيضاً، أرستقراطية من الطبقة العليا، وراديكالية حادّة الذهن، ويمكن اقتفاء أثر شجرة عائلتها حتى العام 1066.

لكن سرعان ما ظلل الموت هذا الموروث الذهبي، إذ توفيت والدته وأخته راشيل بمرض الخنّاق في العام 1874. وغرق والده بالحزن ومن ثم لحق بهما إلى القبر بعد أقل من عامين، ودُفِن بطقوس غير مسيحية بشكل حاد، وكان قد عيّن وصيّين غير مسيحيين أيضاً. لم يكن الوصيّان مقبولين أبداً بالنسبة لجدي راسل، وخاصة عندما تم الكشف عن أن السيدة أمبرلي، قد سمحت لواحد منهما، وهو البيولوجي المُصاب بالسلّ (دوغلاس سبالدينغ) بالنوم معها، بدافع اللطف أو الشفقة، وقد قال راسل لاحقاً: **"لا أعرف أي دليل على أنها حصلت على أية متعة من القيام بهذا"**. وبدلاً من ذلك، ذهب بيرتراند ذو الأعوام الثلاثة وأخوه فرانك ذو الأعوام السبعة، للعيش مع جديهما في بيمبروك لودج في ريتشموند بارك، المبنى الطويل المنخفض ذو الإطلالات المذهلة على وادي التايمز.

كان اللورد راسل اللطيف العجوز جداً، قد زار نابليون في المنفى في إلبا، وتوفي في العام 1878، تاركاً بيرتراند بعناية

---

[1] لا أدرياً: هناك الإنسان المؤمن بوجود الله، والإنسان الذي ينكر وجوده أي الملحد، لكن هناك شخص آخر لم يصل إلى حالة التأكيد أو النفي وبذلك يعطي نفسه صفة "اللا أدري". المترجم.

جدته. لم تكن السيدة راسل من الرجعيات الشديدات — كانت تدعم الحكم الذاتي لإرلندا وقبلت بالداروينية — لكنها انحدرت من عائلة مشيخية سكوتلندية، وكانت الحياة في بيمبروك لودج إسبارطية. حين غادر فرانك إلى مدرسته في وينشستر، بقي بيرتراند الصغير في المنزل ليصبح، وبحسب توصيف جورج سانتانيا، الفيلسوف الذي أصبح صديقاً فيما بعد: "نقياً ومتديناً وحنوناً..... ويصبح مستعداً ليأخذ منصب جدّه كرئيس وزراء ويكمل عمل الإصلاح المقدّس". لم تكن الحياة سهلة هناك، يبدأ كل صباح بحمام بارد، يتبعها تدريب العزف على البيانو في غرفة غير مدفأة، كانت الفاكهة والسكر والشوكولا والكراسي المريحة أيضاً من المحرمات، لكن الصلوات كانت إلزامية بل كانت تتكرر أكثر حتى من معظم الأسر الفيكتورية. كانت السيدة راسل متدينة بشكل خانق، ومن النوع الذي يحفز الشعور بالذنب. وقد تلقى راسل منها في عيد ميلاده الثاني عشر، إنجيلاً منقوشاً عليه نصوصها المفضّلة: "لا تتبع الكثيرين لفعل الشر.... لا تخف ولا تشعر بالفزع، لأن الرب إلهك، معك حيثما ذهبت". كانت النتيجة غير المقصودة تقوية راسل جسدياً وعقلياً، لكنها جعلته شبه عاجز عاطفياً.

لم يلتق بالكثير من الصبية في مثل سنّه عندما كان صبياً، وكان أبناء أخواله مجموعة الصاخبين الجامحين الذين أُعجب بهم أخوه فرانك، لكنهم أشعروه بالخوف أكثر مما فتنوه. وبدلاً من ذلك، وفرت له خالته العانس العصبية أغاثا وخاله رولو الذي كان يكتب المزامير، الصحبة المناسبة المنوّرة في ريتشموند. لم تُذكر الكثير من المواضيع في ذلك المنزل الهادئ، لم يُذكر شيء عن المال أو الجنس، ولا عن مصير العم ويلي، الذي وُضِعَ في مصحّة عقلية لأنه قتل رجلين. اجتاحت راسل مخاوف كبيرة استمرت طوال

حياته من أن يتبين أن هذا الجنون وراثي. لكن كان هناك مربّيات ومعلمون خاصون – لقد أصبح متعلقاً جداً ببعض المربيات – وكان يستطيع أن يتحدث معهن بحرية أكثر، وسرعان ما كشف عن وعد فكري. وببلوغه الحادية عشرة من عمره، شرع فرانك بتعليمه ألغاز الرياضيات. كان راسل مسحوراً، إن لم يكن مصاباً بخيبة أمل لكون فرانك لم يقدم الدليل على بدهيات إقليدس، مصراً على أنها يجب أن تُؤخذ كمسلّمات. لقد اكتشف راسل عالماً جديداً على أية حال وقد كتب لاحقاً: "**كان هذا من أهم الأحداث في حياتي، وكان مُبهراً كما هو الحبّ الأول. لم أكن أتخيل وجود شيء أشهى منه في العالم**". ولمدة شهرين، كان لديه معلم خاص (لا أدريٌّ)، تم استبعاده تجنّباً لتقويضه إيمان راسل، ولكن عبثاً، لأن هذا الطفل اللامع، وعلى نحو متزايد، لم يأخذ أي شيء بوصفه مسلمات. وعندما عبّر عن شكوك كهذه لجدّته، سخرت منه بضحكة مجلجلة وقالت: "ما هو العقل؟ لا يهم. وما هي المادة؟ لا تهتم!" قال راسل: "**بعد أن تكررت هذه العبارة من خمس عشرة إلى ست عشرة مرة، لم تعد مسليّة**". ومن حينها فصاعداً، أبقى شكوكه حول الأخلاق والعقلانية لنفسه، كاتباً يومياته بأحرف يونانية لإرباك أعين المتطفلين.

كان في الحياة في بمبروك لودج بعض العزاء، إذ تمكّن راسل من العثور في مكتبة جدّه على بعض المفكرين الأحرار من أمثال: ميكافيللي، سويفت، جيبون، بايرون، وعرابه جي. إس. ميل وفوق كل ذلك، شيلي، الذي أحبّ أشعاره دائماً. كما كان هناك زوار مميزون. وجد نفسه في إحدى المرات مستضيفاً رئيس الوزراء (غلادستون) وحده، بعد أن انسحبت السيدات بعد العشاء. (الرجل الكبير العجوز تحدث فقط ليسأل: "هذا مشروب جيد جداً، لكن لماذا كان عليهنّ تقديمه لي بكأس أرجواني؟"). إنهم

زوار أجلاء لكنهم معمّرون، ومن النادر أن يعوّضوا نقص الرفقة الحيوية على أي حالٍ. كتب راسل لاحقاً: "**منذ المراهقة وما تلاها، كنت مقوداً بتعاسة الوحدة التي أعرف أن الحب سيكون علاجها الوحيد**". لكن الأصدقاء لاحظوا أن هذا المتمرد مدى الحياة، تحدّث أيضاً عن الحكومة البريطانية باستخدام الضمير "نحن"، وليس "هم".

في العام 1883 تزوج الخال رولو واتخذ مسكناً قرب هيندهيد في هضاب سيري. وخلال زيارة راسل له وهو في السابعة عشرة من عمره، التقى بآل بيرسال سميث، وهم من الكويكرز[1] الأمريكيين الأغنياء الذين استقرّوا في الجوار في (فرايدي هيل). كانوا عائلة متعددة الألوان. كان الأب روبيرت قد تخلّى عن الوعظ بسببٍ حبّه لبعض نساء رعيته، وكان حبّاً جسدياً أكثر منه روحانياً، كانت زوجته هانّا، خليطاً من السادية الساكنة والحماس الديني، وقد اقترحت في العام 1895، إخصاء أوسكار وايلد بعد محاكمته. وبينما أصبح الابن لوغان هاوياً للفنون الأدبية، أوشكت الابنة الكبرى ميري، على أن تترك زوجها الأول من أجل مؤرخ الفنون (بيرنارد برينسون). لكن راسل وقع في حبّ الابنة الصغرى الخجولة أليس، ذات القوام المشوق والطباع اللطيفة والعينين الزرقاوين، والأكبر منه بخمسة أعوام، ذات السوية الفكرية العالية والحائزة على شهادة من كلية براينِ ماور للفتيات في أمريكا. وعلى الرغم من عدم استجابتِها لحبّه فوراً، إلا أنها حين استجابت، لم يتلاشَ إخلاصها أبداً، لقد أصبحت في الثمانينيات من عمرها وهي لا تزال تنتظر عودته عبثاً. لكن راسل لم يفصح عن مشاعره في ذلك الوقت.

---

[1] الكويكرز: ينتمون إلى الطائفة البروتستانتية عادة، وهم أعضاء في حركة دينية، تشير إلى نفسها بمجموعة الأصدقاء المتدينين. المترجم.

في العـام 1890، غـادر هـذا "**الشـاب الخجـول المتزمـت المنعزل**" (بحسب توصيفه هو)، إلى كليـة تـرينيتي في كامبريـدج، مـع منحــة في الرياضـيات. (اختــار راســل الرياضـيات لأنهــا استحوذت عليـه. وكمـا كتـب في العـام 1907 : "**لـيس بسـبب الصدق فقط بل الجمال الخارق – جمال بـارد ومتقشّـف، كـذلك الذي لتماثيل منحوتة**"). لقد زودته كامبريدج "**بعالم جديـد مـن البهجة التي لا تنتهي**". كان هناك أشخاص آخرون مهتمـون بــ "**العالم الكلي من المغامرة العقلية**"، يستطيع الحديث معهم طوال الليل. ومن بين معارفه الجدد، كان الأخـوة (ترافيليـان)، أحـدهم المؤرخ جورج الذي أصبح رئيس كلّية ترينيتي، وقـد سـاعد راسـل بالعودة إلى الكليّـة، وكـذلك فيلسـوف النزاهـة الأخلاقيـة الفكريـة المُبهرة (جي. إي. مور). وسرعان مـا حصـل راسـل علـى احـترام (مور) لكنه لم يحصل على مودته، لأن (مور) كان الأول باستشعار النقص غير الطبيعي للمشاعر الإنسـانية لراسـل. وقـد تم انتخـاب راسلٍ إلى (أبوستل) – النادي الحصـري للمنـاظرات– وكـان لا زال متقشفاً في ذلك الوقت ويوزّع فقـط شـطائر السـردين الـتي يسـميها "الحوتٍ"، ويفتقر إلى جـو المثليـة الجنسـية، الـذي أُضـيف إليـه لاحقاً عندما انضمّ إليه ليتون ستراشي و جون ماينارِد كينيـز. لقـد ناسبته كامبريدج بشكل عام "مثـل القفـازات" وتخلّـص مـن آخـر بقايا مسيحيته الطفولية واستبدل بها الجو الإلحادي المرح. أما مـا لم يستطع التخلّص منه لوقت طويل فقد كان الشغف بــ "**إزاحـة الستارة عـن أهـم السـمات العامـة للواقـع**". إن حمـاس الشـباب لفيثاغورس، بشير أفلاطونٍ في الرياضيات الملغّزة، اختفـى بـبطء في "التراجع التدريجي بعيدا عن فيثاغورس". لقد أسس توقه للـيقين العقلي، سعيه اللاحق للأساس المنطقي للرياضيات.

بعد حصوله على المركز الأول في العام 1893، لم يرضَ راسل عن المادة التي كانت تُعلم حينها على أنها "**الخدع الماكرة و الوسائل العبقرية**" واستبدل بها الفلسفة التي كانت بحسب توصيفه "**أرض ليس فيها إنسان ... التوسط بين الدين والفلسفة**"، وحاز على المركز الأول في السنة اللاحقة مرة أخرى. كانت الفلسفة البريطانية حينها تحت هيمنة المثاليّة الهيغيلية التي اعتبرت أن الكون كله، بتركيبته من العقل والمادة، يشكّل كلاً لا يتجزأ، كما أنه يشبه الهلام: قم بهزّ جزء منه وسوف يرتعش الباقي كله. كان راسل لفترة من الزمن قد آمن بها نوعاً ما.

في العام 1894 ورث راسل مبلغ عشرين ألف جنيه، (مبلغاً ضخماً في ذلك الوقت)، واستطاع أن يُعلن الاستقلال. كان قد كشف في الصيف السابق عن مشاعره نحو أليس. بعد الكثير من التودد الجاد، ونزهات القوارب أو النزهات سيراً على الأقدام، وحالات الجدال الدائم، وقد شارك أليس وجهات نظرها الراديكالية حول الكثير من الأشياء - خاصة حق النساء بالمساواة، لكنه لم يشاركها نفورها من الاتصال الجنسي — وقد وافقت أليس أخيراً على الزواج منه، وتبادلا أول قبلة لهما في يوم ثلجي في كانون الثاني من العام 1894. كانت أليس المرأة الثانية التي يقبّلها راسل وهو في عمر الحادي والعشرين، أما المرأة الأولى فكانت خادمة في منزل بيمبروك لودج. وبعد ذلك بقليل، وتحت تأثير إلحاحه وضد رغباتها، تركته يقبّل نهديها.

إن كان لدى والدي أليس بعض الشكوك حول الخطوبة، فإن السيدة راسل كانت مذعورة من " أن هذه الفتاة المغامرة، خاطفة الأطفال، من الطبقة الدنيا" ستقوم بخطف طفلها المحبوب بيرتي. هكذا باشرت بحياكة الخطط لإفشال خططهما، وتم استدعاء

الطبيب لإخبار راسل شيئاً عن تاريخ الجنون في عائلته، فأجاب راسل المصدوم ببساطة، بأنه وأليس سيستخدمان مانع حمل بشكل دائم. حاولت السيدة راسل بطريقة أخرى، وطلبت إليه أن يتبع أسلافه بدخول الحياة السياسية، وكان لهذا تأثير أكبر. وافق راسل، المشتت دائماً ما بين السياسة والأكاديمية، على أن يصبح الملحق الثقافي في السفارة البريطانية في باريس لمدة ثلاثة أشهر. أملت العائلة بفتور حماسته نحو الأمريكية بسبب الغياب، ولكن عبثاً. مع شعوره بالقرف من قضاء نهاية القرن في باريس، تاق فقط ليكون مع أليس. لم يفتنه العمل الدبلوماسي وتجادل مع مكتب الشؤون الخارجية الفرنسي، حول ما إن كان من المفترض تصنيف جراد البحر مع الأسماك أم لا. وقد مزجت رسائله المتعددة مع أليس، ما بين التعالي وحماسة ما قبل الزواج، وكتب في 15 تشرين الأول: "**لا تخافي، سأحاول تحويلك إلى مفكرةٍ تجريدية، وهذا ليس طبيعيا لديك...... عليك أن تقرئي كتبا تاريخية واقتصادية، لبضع ساعات كل يوم**".

كانت أليس تبكي أحياناً لدى تلقيها رسائل كهذه، لكن في 13 كانون الأول من العام 1894 تزوجا كما ينبغي – يبتلع راسل إلحاده من أجل مراسم الزواج (الكواكرية) التي تجنّب حضورها معظم أقربائه – وأمضيا شهر العسل في هولندا وألمانيا. يستطيع راسل الآن أن يمارس الجنس بضمير صافٍ – كان هذا من بين أقوى أسباب الزواج لديه، كما كان للعديد من الرجال في ذلك الوقت – وعلى الرغم من ذلك، وجد أن عباءات نوم أليس الصوفية، قاتلة للشغف. لم يكن راسل، الواثق من نفسه مالياً وعاطفياً، بحاجة للقيام بأي عمل، حتى بعد انتخابه عضواً في كليّة ترينتي في تشرين الأول من العام 1895. لكن الكسل لم يكن واحدا من رذائله. وقد أدت زيارته الأخرى إلى ألمانيا، إلى

صدور كتابه الأول "الديمقراطية الاجتماعية الألمانية" الذي صدر في العام 1896. قال لاحقاً: "لم أهتم به بشكل كبير لأنني عقدت العزم على تكريس نفسي للفلسفة الرياضية". لكن الكتاب كان يوصّف الماركسية بشكل مدهش (كان الديمقراطيون الاجتماعيون نصف ماركسيين في ذلك الوقت). لقد اعتبر أن نظريات ماركس الاقتصادية تحتوي على عيوب، لكنّه أشار إلى أن جاذبية الماركسية الحقيقية، تنبع من تركيبتها المكونة من الهيبة الفكرية للعلم (الزائف) بالإضافة للجذب العاطفي لأسطورة عظيمة أو دين — كان هذا قبل عقود من سطوع نجم لينين أو ستالين. فيما بعد، صدر مُلحقٌ للكتاب أسمته أليس: "قضية المرأة في ألمانيا"، وجعلا منه عملاً مشتركاً لهما.

على مدى الأربع والعشرين سنة التالية، احتلت الدراسة السياسية المركز الثاني لدى راسل، ليستطيع تكثيف عمله في الرياضيات والمنطق. كانت سنوات شهدت إنتاج راسل لتحفته الفنية "مبادئ الرياضيات"، كان يحاول تطوير أساس منطقي كاملٍ وجديد للرياضيات. في العام 1898، رفض المثالية الهيغلية شاعراً كما قال: "**بتحرر عظيم، كما لو أني هربت من بيت حار إلى منطقة تعصف فيها الرياح**"، وانتقل نحو قبول وجهة نظر مور التجريبية حول أن العالم "**يشبه كومة من نار**". كتب المبادئ بسرعة، منهياً المسودة الأولى المكونة من 200.000 كلمة في العام 1900، لكنه أصبح بعمل من هذا النوع، مدركاً للمشكلات الفكرية الواقفة أمامه، وخاصة "**تناقضات راسل**". (وتمثّل هذا ببساطة وليس بطريقة رياضية، بلغز (إيبمندس)[1]، الكريتي الذي أعلن أن جميع الكريتيين كاذبون).

[1] إيبمندس: شاعر وفيلسوف يوناني عاش بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد. المترجم.

اشترك في عمله الأعظم التالي على المنطق الرياضي، مع ألفريد نورث وايتهيد، معلّمه السابق وصديقه الحالي، واعتقدا أنه سيأخذ منهما سنة أو سنتين، لكنه احتاج منهما عقداً كاملاً. في بعض الأحيان، كان يمضي يوماً كاملاً يحدّق في صفحة بيضاء فارغة، غير قادر على الكتابة. كانت الثلاثية الرياضية التي ظهرت أخيراً بين الأعوام 1910 – 1913 ثقيلة جداً لدرجة كان يجب دحرجة مخطوطاتها إلى جامعة كامبريدج بعربة نقل تملؤها كميّة مخيفة من الرياضيات ذات المستوى العالي، والتي قال عنها راسل مازحاً، إن ستة أشخاص في العالم قد قرؤوها وفهموها. لم تجلب المخطوطة لمؤلفيها أية عائدات مالية، لكنها أكدت سمعتهما الفكرية حيث تم اعتبارها أعظم مساهمة في المنطق منذ أرسطو قبل 2200 عام مضت. ومع شجبه أي ارتباط ما بين فلسفته "الحقيقية" وكتاباته العامة، فقد استقرت سلطته كناقد سياسي واجتماعي، على هذه الأعمال الهامة على الرغم من قلّة الناس الذين قرؤوها بالطبع، لم يحصل على جائزة نوبل لكتابته عناوين مثل "من سيستخدم أحمر الشفاه؟" و "هل يدخّن الاشتراكيون سجائر جيدة؟" فقد كُتِبَتا من أجل صحافة (هيرست) في الثلاثينيات من القرن العشرين. كان يشعر بأنه مؤهل للحديث عن جميع المشاكل الإنسانية تقريباً.

كان عمله الشعبي الأول "عبادة الإنسان الحر"، وقد كُتِبَ أثناء إقامته مع آل بيرنسون – الآن أقرباؤه من طرف الزوجة، إذ تزوجت ماري من بيرنارد بيرنسون – في إيطاليا في العام 1902 و "**يهدف الكتاب إلى تأمين عزاء مقبول عقلانيا لغير المتدينين**". كانت نبرته الشعرية الغنائية المهيبة، تشبه نثر بيرنسون الباتري[1] "**أن تتخلى عن الصراع من أجل السعادة الخاصة، أن تطرد التوق لرغبة مؤقتة، أن**

[1] الباتري: كتب راسل بطريقة قريبه برينسون المتأثر بدوره بطريقة الشاعر باتر. المترجم.

تحترق بالشغف للأمور الأبدية.... تلك هي عبادة الإنسان الحر" لكنه أشار أيضاً إلى العذاب في حياة راسل الخاصة. فبينما كانت مهنته الفكرية تزهر، كانت حياته العاطفية تذبل. لقد عاش وايت هيد مع زوجته إيفلين، المرأة الجميلة الحيوية، والأكثر شباباً من زوجها، في غاندتشيستر، وكان راسل يزورهما غالباً عندما يكون في كامبريدج، وحظي هناك بتجربة صوفية. بعد عودته من استماعه لقراءة مأساة (هيبوليتوس) لأيريبيدس في العام 1901، وجد إيفلين تعاني ظاهرياً من أزمة قلبية:

بدت معزولة عن الجميع داخل جدران من العذاب، وغمرني شعور بعزلة روح كل إنسان ...... فجأة، بدت الأرض تنفتح تحتي، ووجدت نفسي في منطقة مختلفة تماماً... وجدت نفسي مليئاً بمشاعر شبه صوفية عن الجمال..... ولدي رغبة بعمق رغبة بوذا تقريباً، للعثور على فلسفة ما، تجعل حياة الإنسان محمولة.

لم يذكر راسل مشاعره نحو إيفلين، التي حتى وإن لم يُعبّر عنها لفظياً، كانت قريبة جداً من حالة الشغف. لقد حلت هذه المشاعر محل حبّه لأليس. **"كنت أركب دراجتي عصر أحد الأيام، وفجأة...... أدركت أني لم أعدّ أحب أليس أبداً. لم تكن لدي أية فكرة حتى هذه اللحظة، عن أن حبي لها كان في حالة تناقص. كانت المشكلة التي أتى بها هذا الاكتشاف خطيرة جداً"**، لقد دوّن ذلك في سيرته الذاتية، عمله الأقل صراحة بكثير مما يبدو. بدا هذا الوحي المترافق مع ركوب الدراجة للكثير من الناس بأنه غير مقنع، لكن أصبح زواجه الآن لا يُحتَمل للشريكين كليهما. صار راسل يصارع للتحكم بنفوره المتزايد من صحبة أليس، ورفض النوم معها — يبدو وكأنه يصبح عنيناً عندما يحاول— وكان يتجنّبها قدر المستطاع. لقد عانى عقداً كاملاً من

العزوبية[1] والجفاف العاطفي وهو في الثلاثينيات من عمره، وقد ساعده عمله في تلك الفترة على البقاء عاقلاً أو حماه من الانتحار.

أصبحت أليس تعيسة أيضاً، كانت تتوق إلى الموت، واستاءت لاكتشافها أن الورم الموجود في صدرها لم يكن سرطانياً. كان راسل صادقاً معها بشكل بارد ولا يرحم، إذ اقتنع الآن أن الفيلسوف يجب أن يكون كذلك. كتب بقلب متحجّر: **"في اليوم التالي، عادت أليس (من علاج يفرض عليها أن ترتاح)، وكان السؤال المباشر والإجابة عنه تفيد بأن الحب قد مات، وفي غرفة النوم، كنت أسمع صوت نشيجها الصاخب بينما كنت في مكتبي في الغرفة المجاورة.... أوه، يا للشفقة! ..... وكيف تصلب قلبي، وتركتها تبكي!"**

لم يفقد راسل الاهتمام بالسياسة، التي قدمت له هروباً من المشاكل الزوجية. وبما أنه صديق طويل العهد للاشتراكيين، بياترس وسيدني ويب، فقد أصبح زميل (فابيان) بالسفر، رغم بقاء وجهات نظره ليبرالية أكثر منها اشتراكية. وقد وقف في البرلمان في العام 1907، كداعم وحريص على حقوق المرأة بالاقتراع، وفشل بالفوز بمقعد ويمبلدون، بعد الحملة التي أفلتت فيها الفئران من عقالها، وقَذِفَ البيض على أليس. ورغم إيمان بعضهم، بأن عمل راسل بالسياسة كان أشبه "باستخدام موس الحلاقة في تقطيع الخشب"، فقد شارك مرة أخرى وبشكل قوي بحملة انتخابية في كانون الثاني من عام 1910، لمصلحة فيليب موريل، الليبرالي الذي يشاركه وجهات نظره، والذي كان متزوجاً من الأرستقراطية اللامعة، السيدة أوتولاين. كانت أتولاين وراسل يعرف أحدهما الآخر اجتماعياً منذ مدة، وكتبت أوتولاين في

[1] العزوبية: المقصود بالعزوبية هنا، الامتناع عن ممارسة الجنس مع زوجته إذ أصبح لديه مشكلة معها. المترجم.

مذكراتها في أيلول من العام 1909، "لا أعتقد أني قابلت شخصاً أكثر جاذبية، لكنه مثير للقلق جداً، سريع البديهة جداً وصافي النظرة وخارق فكرياً". ولاحظ راسل وجهها الأشبه بالفرس، وشعرها الجميل بالإضافة إلى "الإفراط" باستخدام البودرة والعطور لكنه كان مفتوناً بها.

بطريقه لحضور مؤتمر في باريس في آذار من العام 1911، تناول العشاء في منزل موريل في لندن، وكان فيليب بعيداً. وبعد مغادرة الضيوف، استمرّ راسل بالحديث لساعات ليكتشف أنه "**وبشكل مفاجئ، انهار الكبت الطويل مثل انهيار سد. وجدت نفسي في الحب على نحو ساحقٍ وشغوف**". قالت أوتولاين من جهتها، "لم أكن مستعدة تماماً لفيضان العواطف الذي سكبه علي..... كان الأمر كما لو أنه بُعِثَ من القبر..... فتن مخيلتي، لكنه لم يفتن قلبي". عندما عاد بالقطار في اليوم التالي إلى باريس، كتب لها أول رسالة من بين 2000 رسالة أخرى، يفصّل فيها ليس حبّه فقط، بل علاقاته مع رجال مثل وتغنشتاين.

أصبحت أوتولاين المحبوبة الأعظم والأروع. شاهقةً فوق الفيلسوف الصغير البنية، برزت مكانتها من خلال القبعات الكبيرة، والأوشحة والملابس الرومانسية، عاشت وسط ضيوف من العالم الفني والأدبي، من بينهم مجموعة البلومزبيري. ومنذ عام 1915 استقبلت ضيوفها ببذخ في مزرعة غارزينغتون في أوكسفورد شاير بكعبيها العاليين، حيث كان (لايتون ستراتشي)[1] يترنح حولها. بادل العديد من الضيوف كرمها بطريقة عضّ اليد التي أطعمتهم وجاملتهم، وقد سخر منها دي. إتش. لورانس في

---

[1] لايتون ستراتشي: كاتب وناقد انكليزي. وهو عضو مؤسس لمجموعة البلومزبيري، ومعروف بإنشائه لشكل جديد من أشكال كتابة السيرة الذاتية تجمع ما بين البصيرة النفسية والتعاطف، بنوع من الاستهتار وخفة الدم.

روايته "نساء عاشقات"، وسخر منها ألدوس هاكسلي في كتابه "تلك الأوراق الجافّة". كان من الواضح أن بإمكان أوتولاين أن تكون ساحقة، لكن بالنسبة لراسل، فقد كانت انعتاقاً كما تكشف رسائله التي كتبها في كل ساعة تقريباً، "**أتألم من أجلكِ يا قلبي. أشعر كما لو أنني لا أستطيع تحمّل انتظار قبلتك غداً.... أينما ذهبت ومهما أفعل، تكونين دائماً معي مثل الموسيقى في الذاكرة.... يضيء إشعاع حبك العالم لي في كل مكان**". لم تكن أوتولاين متأثرة يوماً بهذا الشكل. بحسب تعبير كيت، ابنة راسل: "لقد سخرت منه. أحاطت نفسها بالأشياء الجميلة والعطور الزكية التي عملت على حواسه بشدّة، منذ أن تجاوز رفضه لتلك الأشياء...... كانت أوتولاين مختلفة عن حبيباته الأخريات لأنه كان لديه رهبة منها".

كانت أوتولاين حينها على علاقة بالرسام هنري لامب والناقد الفني روجر فراي — لقد عشقت الفنون — بينما كانت لاتزال تنام مع زوجها المتسامح. إن توقعات راسل المبكّرة بأنها ستترك كل شيء خلفها، حتى ابنتها، أصيبت بخيبة أمل. وقد حافظت أوتولاين، التي كانت قوية الإرادة مثله تقريباً إن لم تكن أنانية، على زواجها سليماً. كانت على النقيض منه بالعديد من الطرق بحيث واجه حبهما المشاكل. كانت إحداها عندما كان يرتجف من الرغبة بها ولا تجده هي جذاباً من الناحية الجسدية. لم يكن وسيماً أبداً — كان نحيلاً وليس طويلاً وذا أنف كبير– وكان لديه رائحة فم كريهة في ذلك الوقت. لقد سحرها عقله وهذا أمر هام جداً لأن علاقتهما كانت تحدث عن طريق الرسائل وليس بشكل شخصي غالباً.

الفرق الرئيس بينهما كان الدين. أوتولاين، المسيحية التقيّة في طفولتها، بقيت لديها بعض الميول الصوفيّة، الشيء الذي

كان من الصعب على راسل، "صاحب الماكينة المنطقية في عقله" كما أسمتها هي، القبول به. ومع ذلك، تصرّف معها كعاشق عادي، يعدُّ الدقائق لوصولها أو يتألّم على فراقها. لم تكن عبارة "جبين عال، ومغبن منخفض" التي ألّفها ألدوس هوكسلي وهو يفكّر براسلٍ على الأرجح، في محلّها. لقد أعاد راسل أيضاً اكتشاف الشعر والموسيقى، كما فكّر حتى بالتخلي عن الفلسفة ليصبح روائياً. لكن محاولته في رواية "حيرة جونٍ فورستس" كشفت عن عيوبه الأدبية، وتخلى عن الأمر تماماً. إن كتابه الذي أصبح أكثر رواجاً بكثير هو كتاب "مشاكل الفلسفة"، وقد ألّفه من أجل مكتبة جامعة هوم في العام 1912. يبدأ الكتاب بسؤال على الشكل التالي: "**هل هناك أية معرفة تكون مؤكدة بشكل لا يستطيع إنسان منطقي أن يشكك بها؟ هذا السؤال الذي لا يبدو صعبا للوهلة الأولى، هو بالفعل واحد من أصعب الأسئلة التي يمكن أن تُسأل**". لقد تمكن هذا الكتاب الصغير من مناقشة الدافع الحقيقي وراء أعمال راسل الكبرى، ألا وهو سعيه لليقين، إضافة إلى مواضيع فلسفية أخرى، كما جعله شعبياً دون أن يقلل من قيمته.

في كامبريدج في تشرين الأول من عام 1911، قابل راسل شاباً نمساوياً حادّ الذكاء، كان له الأثر على أعماله بقدر ما كان لأوتولاين أثر على حياته. إنه لودفيغ وتغنشتاين، الذي يدرس الهندسة في مانشستر، دون أن يكون سعيداً بها، وكان مذهولاً بقراءة مبادئ الرياضيات لراسل. وبعد نصائح من الفيلسوف الألماني غوتلوب فريغ، بحث عن راسل بتردد مؤلم، لأن التخلي عن الهندسة من أجل الفلسفة، سيغضب والده، رجل الأعمال القوي. وقد عامل راسل وتغنشتاين في البداية ببعض التعالي المسلي حيث كتب إلى أوتولاين: "**إنه محصّن ضد أي**

هجوم يتعلق بالمنطق. إن الحديث معه مضيعة للوقت". لكن سرعان ما تحوّل ذلك إلى تقدير، حيث قال: "**إنه مثقّف، موسيقي جداً.... وأعتقد أنه ذكي فعلاً"**. وكتب وتغنشتاين مقالة خلال عطلة عيد الميلاد في فيينا، واستطاع بها إقناع راسل بذكائه. وسرعان ما كتب راسل: "**بالنقاش معه، بذلت كل جهدي لمجرّد مضاهاته فقط..... أنا أحبّه وأشعر بأنه سوف يحل المشاكل التي أصبحت كبيرا جدا على حلها (لم يبلغ راسل في تلك الأثناء، الأربعين من العمر). لديه شغف نظري قوي جداً.... هو لا يريد إثبات هذا وذاك، لكن يريد اكتشاف كيف تكون الأمور فعلاً"**. لقد تأثر بتقدير وتغنشتاين للبنية الجمالية لكتاب المبادئ، وهذا ردّ فعل نادر جدا. وفي شهر تموز من العام 1912، قال راسل لهرمين، أخت وتغنشتاين التي كانت تزور كامبريدج: "**أتوقع أن الخطوة الكبيرة التالية في الفلسفة، ستتم من خلال أخيك"**.

ارتقى وتغنشتاين من كونه محميّ راسل ليصبح أستاذه تقريباً – حقيقة اعترف بها راسل ضمنيا عبر توقفه عن العمل على كتابه الجديد "نظرية المعرفة" في العام 1913، بعد أن انتقده وتغنشتاين. وقد كتب لاحقاً: "**رأيت أنه كان على حق.... وأني لا أستطيع أن آمل مرة أخرى، بالقيام بعمل أساسي في الفلسفة"**. وتم تأكيد هذا الاعتراف، عندما قرأ كتاب وتغنشتاين "المفاوضات" عام 1920، الذي ساعده على نشره بكتابة المقدّمة التي هاجمها وتغنشتاين لافتقارها للفهم، حيث كان يفضل الحقيقة على اللباقة.

إذا كان هذا الانفتاح قد أظهر كرماً فكرياً هنا، فقد غدت تصرفاته في كل مكان آخر، تزداد سوءاً بشكل سريع، وربما كان ذلك نوعاً من التعويض. كان حبه لأوتولاين قد أطلق العنان لطاقة

جنسية مستعرة مكبوتة منذ زمن، لكنها أرادت لعلاقتهما أن تكون أفلاطونية بشكل أساسي. ولم يكن ذلك جذاباً جداً، ولهذا بدأ بسلسلة من العلاقات. قام بجولة محاضرات في أثناء زيارته لأمريكا في ربيع العام 1914، وشكل انطباعاً محبباً بشكل عام. لكن بالنسبة للشاعر الشاب (تي. إس. إليوت)، الذي كان يدرس الفلسفة في هارفرد حينها، فقد بدا راسل شخصاً شهوانياً أكثر منه حكيماً. وخلّد إليوت برتراند راسل بهذه الأبيات:

بريابوس[1] بين الشجيرات

يفغر فاه للسيدة في الأرجوحة.

كان يرفض العيش في أمريكا بشدّة، وكانت هارفرد "مكاناً محدوداً"، لكنه أحبّ على الأقل أحد أفرادها. هيلين دودلي، ذات الثمانية والعشرين عاماً، والمجازة من براين ماور و إكسفورد، وابنة مضيفه في شيكاغو، وقد وقعت بغرام هذا الفيلسوف الشهواني. ومارسا الجنس معاً وصدّقت هيلين بأنهما مرتبطان، على الرغم من أنه كان لا يزال متزوجاً من أليس. وشجّعها على اللحاق به عبر الأطلسي — لم يكن سهلاً ولا قليل التكلفة عبور المحيط في تلك الأثناء — فوصلت إلى لندن بينما كان يحاول إعادة علاقته مع أوتولاين. ولأن هيلين لا تملك ما يكفي من المال، اقترح عليها الإقامة مع (آل موريل). لم تكن في بداية الأمر، تعرف شيئاً عن علاقته مع أوتولاين، التي وجدت نفسها مُجبرة على العناية بمنافستها العُصابية. وقد اعترف راسل أنه أراد فقط "**الهروب من هذا التشابك الشخصي المريع**". لكنه استمر بالنوم مع هيلين — على الرغم من أنه أخبر أوتولاين بأن كل شيء قد انتهى بينهما – وائتمنت هيلين أوتولاين على

[1] بريابوس: هو طاقة الإنجاب في المثيولوجيا الكلاسيكية، وهو ابن ديونيسوس وأفروديت. المترجم.

أسرارها. كانت هيلين تأتي وتطرق باب شقة راسل في بلومزبيري، بينما تكون أوتولاين وراسل في الداخل. لم يفتح الباب لها سوى مرة واحدة، حيث قدّم لها كوباً من الماء، ولم يدعها تدخل أبداً. في النهاية، لقد عادت هيلين إلى أمريكا حيث عانت من انهيار عصبي تطوّر إلى حالة جنون. وقد كتب راسل بإيجاز في سيرته الذاتية: "لقد حطمت قلبها".

لقد بدا أن هناك مشاعر خاصة كانت قد حُجِبَت جزئياً، خلال ثوران الكراهية الشعبية، في أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى في شهر آب. وكان ما أدهش راسل وغيّر وجهات نظره عن طبيعة الإنسان بشكل كامل، هو التحوّل المفاجئ للناس المسالمين سابقاً، إلى متحمسين لذبح الألمان، بمن فيهم الكلاب الألمانية، التي يخشون منها الآن كطابور خامس. وبسبب إعجابه بالثقافة الألمانية، لم يستطع أن يصدّق في البداية، أن الغالبية العظمى من البريطانيين كانوا مؤيدين للحرب. لم تكن تلك الغالبية تتضمّن أصدقاءه القدامى من أمثال وايتهيد ومعظم أعضاء هيئة التدريس في ترينيتي، الذين جرّدوه من عضويتها في العام 1916.

لكن بعدها، كان يعمل على مسألة رفض التجنيد الإلزامي (تم إدخال التجنيد الإلزامي في كانون الثاني من عام 1916)، وذلك من خلال تحرير مجلة "تريبيونال". وقد كتب مسجّلاً تغيراً في الموقف: **"بينما أراقب شباباً يافعين يصعدون إلى قاطرات القوات، ليتم ذبحهم على نهرٍ سومي..... شعرت بشفقة مؤلمة.... ووجدت نفسي متحداً مع العالم الفعلي في اقتران غريب للألم"**. وقد قدّم في أوائل العام 1916، ثماني محاضرات، تم نشرها بكتاب "مبادئ إعادة البناء الاجتماعي"، ولم تكن تعالج مسألة الحرب فقط، بل كانت تعالج دور الدولة، والغريزة مقابل المنطق – مشدداً على الغريزة أكثر من أي وقت

مضى – والتعليم والزواج والعائلة. لقد كانت كتاباته الأكثر بلاغة وإدراكاً. إذ اعتقد أن الرأسمالية وكذلك القومية هي مسببات الحرب، وأيّد حكومات العالم الاشتراكي – لكنه لم يقدّم أية أدلة حول كيفية إمكانية تحقيق ذلك – واقترح استبدال القوات الدولية بالقوات البحرية البريطانية والألمانية، الاقتراح الذي أغضب الملايين. وقد أسعدته مقالة ساخطة في صحيفة "سبيكتيتر"، شجبت الكتاب ووصفته بأنه "مؤذٍ تماماً".

كاشفاً عن المواهب غير المتوقّعة كمناضل، أصبح من أشدّ منتقدي الحكومة، وأصبح أقرب إلى السجن بشكل مؤكد. اعترف في العام 1916 بكتابة منشور يدافع فيه عن رافضي الخدمة العسكرية الإلزامية، وحُكِمَ عليه بالغرامة أو السجن – أخبر أوتولاين رافضاً أن يدفع: **"هذا ما أردته تحديدا"**. أصدرت المحكمة قراراً بالحجز على أملاكه بدلاً من الدفع، لكن أصدقاء له، اشتروا جميع كتبه وأعادوها له. على أية حال، أصبح مقيداً في تحركاته، ولم يستطع زيارة أمريكا، وبعض الأماكن في بريطانيا. لكن هذا جعل منه بطل المعارضين للحرب، وكان السبب وراء سجنه الفعلي، تافهاً تقريباً.

في أثناء إقامته في غارسينغتون من أجل عيد الميلاد في العام 1917، اقترح نصف مازح، استهداف القوات الأمريكية التي تصل إلى أوروبا الآن، لأهداف بريطانية، ومن ثم كرر هذه السخافة في صحيفة "تريبيونال". تمت محاكمته هذه المرة بتهمة الإساءة "للعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية" وحُكِم عليه بالسجن لستة أشهر. لكن، كنتيجة لسلسلة الوساطات لديه، فقد تم سجنه في القسم الأكثر راحة، حيث كانت لديه زنزانة خاصة يقوم بتنظيفها سجين آخر، واستطاع خلالها أن يكتب عن مواضيع غير مثيرة للجدل. (على الرغم من معارضته لما رآه صراعاً

بين الأصدقاء، فهو لم يكن من دُعاة السلام بالكامل، وتقبّل ضرورة حدوث حروبٍ في بعض الأحيان - كالحرب الأهلية الأمريكية والبريطانية مثلاً — أو إمكانية الدفاع على الأقل، حيث إن تلك الحروب التي أدّت لإبادة السكان الأمريكيين الشماليين المحليين، مكنت من انتشار الحضارة الغربية. لقد اعتبر الحضارة الغربية، هي الإنجاز الإنساني الأعظم، ولم تكن وجهة النظر هذه غير عصرية في حينها.

عندما خرج من السجن، كانت الحرب في نهايتها تقريباً. سار بين المشاغبين المحتفلين بيوم الهدنة شاعرا بعزلة أكبر. لم تكن مشكلته وهو في السادسة والأربعين من عمره، ما الذي سيفعله لاحقاً على صعيد العمل والعائلة، أو مع من سيقوم بهذا، ولم يكن عازباً تماماً في سنوات الحرب. ففي العام 1915، كان قد قابل فيفيان إليوت، زوجة الشاعر إليوت، وأغواها. على الرغم من حداثة الزواج، كانت علاقة إليوت وزوجته عالقة في المشاكل مسبقاً، وكان إليوت يعاني نقصاً شديداً بالمال. وقد ساعدهما راسل مالياً — يستطيع أن يكون كريماً بشكل لافت للنظر — وبعدها، وليس كمقابل، نام مع فيفيان التي تركها إليوت بلا مبالاة في رعايته. حتى إنه عاش في شقة إليوت في لندن عندما كان إليوت مسافراً، وبحسب أقوال أوتولاين: اشترى لفيفيان "ملابس داخلية حريرية، وأشياء كثيرة مسلية". كانت فيفيان جذّابة بشكل كبير حيث وصفها ألدوس هاكسلي بأنها "الاستفزاز بعينه" لكنها لم تكن مستقرة عاطفياً، إن لم يكن عقلياً. وكان تعليق غراهام غرين عليها: "ظهر جنون السيدة إليوت، بسبب إغوائها ومن ثم هجرانها من بيرتراند راسل"، وهذا تبسيط مُبالغ فيه للحقيقة. وقد انقطعت علاقة راسل مع فيفيان عندما تعب منها، ولم يستطع القيام بشيء بما يخص صحتها العقلية الهشّة. لقد أمضت

فيفيان سنواتها الثماني عشرة الأخيرة محتجزة بشكل إلزامي في مصحّة من قِبَل أخيها وزوجها.

بالتزامن مع فيفيان، ومع بقاء أوتولاين ضمن الصورة العاطفية، كان لراسل تعلّق أكثر جديّة بكثير مع السيدة كونستانس ماليسون، التي كان اسمها الفني كممثلة كوليت أونيل: جميلة أرستقراطية أخرى ويرافقها زوجٍ لطيف. كان لكوليت جاذبية شهوانية عظيمة، لكنْ لديها غالباً عشاق آخرون. لقد كتب عنها بسخط: **"لدى كوليت مقدرة مدهشة على الوقوع بحبّ عدة أشخاص في وقت واحد"**، لكنهما حافظا على التواصل لعقود، وكانا يجددان علاقتهما كل حين.

لكن رغبته بوجود ذريّة له أصبح مسيطراً عليه وهو يقارب الخمسين من العمر. أراد امرأة تكون أماً لأولاده، والمرأة التي اختارها في النهاية كانت دورا بلاك: أكاديمية من كامبريدج، ذكية وحازمة وتصغره باثنين وعشرين عاماً، اشتراكية لكنها غير متحمسة للزواج. وعلى أية حال، كانت ترغب بالأطفال، وأصرّ راسل على الزواج، لحماية اسم العائلة من بين أشياء أخرى، وعلى الرغم من عدم رغبتها بأن تصبح كونتيسة، فقد وافقت. كان يجب أن يكون زواجاً مفتوحاً، وكان ذلك أمراً غير عادي حينها. كتب راسل: **"اعتقد كلانا أن الزواج يجب أن يكون متلائماً مع وجود حريةٍ في حفاظ كل منا على علاقاته الجانبية الصغيرة.... كتبنا عقداً بهذا المعنى.. لكني اشترطت أن إنجاب طفل من غيري أثناء زواجنا، سيؤدي إلى الطلاق"**. وافقت أليس، السهلة الانقياد جداً، على رفع دعوى الطلاق، وتزوج راسل من دورا في 27 أيلول من العام 1921.

كان راسل قد زار روسيا والصين، حيث أمضى سنة وهو يقدّم محاضرات في الصين، ووقع في حب ثقافتها العتيقة المتحضرة

الأرستقراطية، رغم أنه كان واقعاً تحت تهديدٍ كبير حينها. كانت مشاعره نحو روسيا البلشفية مختلفة تماماً. بعد وصوله في العام 1920 مع بعض التفاؤل الحذر – كان قد رحّب بكتباً بالثورتين[1] كلتيهما في العام 1917 – فقد غادر شاعراً بالاشمئزاز. لقد مُنِحَ ساعة واحدة لمقابلة لينين، ولم يجد **"أي شيء يشير فيٍ أسلوبه أو سلوكه إلى رجل لديه سلطة .... إنه يضحك كثيرا، يبدوِ ضحكه في البداية مجرّدٍ نوع من الودّ والمرح، لكن تدريجيا، يجده المرء متجهّماً"**. لم يستطع راسل مشاركة مرح القائد السوفياتي بتقارير إعدام مالكي الأراضي على أقرب شجرة. أخبر أوتولاين مرّة، ما إن رحل من روسيا: **"البلشفية هي بيروقراطيٍة مستبدّة مغلقة، لديها منظومة جواسيس أكثر دقة ورعبا من القيصر والأرستقراطية من حيث الوقاحة وعدم الإحساس"**. لقد هيمن رفضٍ راسل للشيوعية البلشفية، على نظرته نحو العالم لأربعين عاماً، وكان رفضه في ذلك الوقت، حالة استثنائية بين المثقفين الغربيين، ولم تشاركه بذلك دورا التي قامت برحلة حجّ إلى الاتحاد السوفياتي.

جون هو أول طفل لراسل، وُلِدَ في تشرين الثاني من العام 1921، وملأه ببهجة أبوية ترتبط بحفظ السلالة، وأحيا العادات الأرستقراطية القديمة بقيادة عربة مكشوفة حول لندن لعرض زوجته ومولوده الجديد. كان يفكر بشدة بطرق تربية الطفل في العصر الحديث. انتقد كتاب "إميل" لجان جاك روسو، وأعجِبَ بأفكارٍ مونتيسوري، وأفكار إيفان بافلوف. ومع الأسف، كان الأشد تأثيراً، عالم السلوك الأمريكي جي. بي. واتسون،

---

[1] الثورة الأولى في شهر شباط عام 1917، وانتفاضة تشرين الأول من العام نفسه والتي أطاحت بالحكومة المؤقتة ووضعت السلطة بيد السوفييت، مع افتتاح المؤتمر الثاني لسوفييت عموم روسيا. المترجم.

الذي هيمنت أفكاره على كتاب راسل "في التربية" في العام 1926. ويوضح فيه:

يجب أن تبدأ تربية الشخصية عند الولادة، ويتطلّب هذا تغييراً لمعظم ممارسات الأمهات والمرضات الجاهلات.... ترغب جميع الأمهات بنوم أطفالهنّ لأنه أمر صحيّ ومريح ....وقد طوّرن تقنيات خاصة: هزهزة سرير الطفل وغناء التهاويد. تُرك للذكور الذين استقصوا الأمر بشكل علمي أن يكتشفوا أن هذه التقنية خاطئة جداً.... إنها تخلق عادات سيئة ... الرضّع أكثر دهاءً مما يفترضه الراشدون، إن وجدوا أن البكاء يعطي نتائج مرغوبة، فسوف يبكون .... قد تبدو بعض هذه المبادئ قاسية، لكن التجربة تُظهر أنها مفيدة لصحة الطفل وسعادته.

تساءلت كيت راسل بعد سنوات: "تجربة من؟ ليست تجربتي لا بوصفي رضيعة ولا أماً". لقد شعرت طفلة راسل الثانية (كيت) التي وُلِدَت في العام 1923، بأنها مهملة دائماً، لكن تبين فيما بعد أنها الأقوى بين الإثنين.

على الرغم من هذه المحاولات لبناء الشخصية، كانت سنوات الطفلين الأولى سعيدة على الأغلب. كانت العائلة تقضي فصول الصيف في كارن فويل، وهو البيت المجاور للبحر في كارنوال، والذي أسمته كيت لاحقاً جنة عدن. لقد أمضى راسل هنا كل صباحاته يكتب المقالات والكتب. (كان ميراثه قد ذهب إلى عائلة إليوت وآخرين). نشر في بعض الكتب مثل "ألف باء الذرّة" مواضيع كان مطلعاً عليها بعمق، بينما كشفت كتب أخرى مثل كتاب "في التربية"، جهلاً أكثر مما كشفت فهماً. تذكرت كيت أنه كان يكتب بسرعة، وينهي صفحة تلو الأخرى بخطه الأنيق، دون أن يشطب شيئاً. كانوا يمضون فترة بعض الظهر على

الشاطئ، حيث يبتهج **"بنشوة مراقبة الطفلين السعيدين المتمتعين بالصحة، يتعلمان متع البحر والصخور والشمس والعاصفة"**. كانت تلك من بين أسعد اللحظات في الحياة. لكن حتى هنا، لم يستطع راسل التخلي عن سعيه لخلق **"جيل جديد يكبر بحرية بعيداً عن الخوف"**. انطلق بتقنيات سلوكيّة، للتغلب على مخاوف جونٍ الطفولية من البحر، وكتب بفخر: **"كل يوم ولمدة أسبوعين تقريبا، نغرقه في مياه البحر حتى عنقه، على الرغم من صراعه ومخاوفه من هذا. كل يوم يصبح الخوف أقل... لم يتوقف الخوف مرة واحدة، لكن تم قمعه جزئيا من خلال الكبرياء"**. وكتبت كيت لاحقاً: "كان والدي رجلاً طيباً، مع أن طرقه في التربية تبدو مليئة بالاعتداءات الوحشية على العقل الطفولي".

وبينما كان الطفلان يكبران، قررت عائلة راسل تأسيس مدرستها الخاصة – عمل غريب لفيلسوف لكنه النتيجة المنطقية لطوباوية راسل الحالية. استأجر لهم أخوه فرانك، مكاناً في "تلغراف هاوس" في أعلى مبنى "ساسيكس داون" وانتقلوا إليه في العام 1927، آملين منح الأطفال تربية، لا يتم التضحية فيها بالحاجات العاطفية على حساب التطور الفكري. كان ذلك ما حدث بالفعل، حيث يأسر راسل، المختفي في غرفة عالية، جمهوره الشاب بالحديث عن الرياضيات والتاريخ والعلوم أو عن الدين. لقد استطاع بشكل مذهل أن يتواصل فكرياً، حتى مع الأطفال الصغار. وباختياره المعلمين المبدعين غالباً، كانت معايير التعليم في مدرسة تلغراف، ممتازة بشكل عام. لكنه كان عديم الفائدة في الواجبات الإدارية، وفي التعامل مع الواقع المقرف لسلوك الأطفال.

تذكّرت كيت: "كنت مجرّد واحدة من الأطفال، ليس لدي موقع خاص ولدي شعور غامض بعدم السعادة". لكن أخاها عانى الأسوأ. كان صغيراً بالنسبة لعمره، ويرى الآخرون أنه المفضّل لدى والديه وبشكل غير منصف، وقد قادته حالة من الإغاظة والتنمّر الذي لا رادع له إلى وضع هستيري، ومن ثم إلى حالة انسحاب صامت أكثر سوءاً بكثير. وكما اعترف راسل لاحقاً: "إن جعل الأطفال ينطلقون أحراراً، عبارة عن تأسيس حالة سيطرة الرعب، حيث يتم المحافظة فيها على القوي قوياً ويرتجف فيها الضعيف تعيساً". لقد وجد نفسه مجبراً على اتخاذ الدور البغيض كمدير مدرسة، وليس رسول حرية الأطفال الذي كان قد توقّعه. كان العديد من الأطفال مسببين للمشاكل بكل بساطة، يصلون إلى مدرسة تلغراف بعد طردهم المتكرر من مدارس أخرى. وتابعت دورا إدارة المدرسة لاحقاً لمدة عقد وكانت أكثر صرامة بكل شيء. أصرّت على نوم الأطفال في مهجع بنوافذ مفتوحة، و من دون وجود أكثر من بطانيتين على كل سرير، ويُطبّق هذا في أي طقس كان. لم يكن مفاجئاً حالة المرض الدائم للأطفال، وقد أوشك جون أن يموت تقريباً في العام 1929.

حاجة مدرسة تلغراف إلى موارد مالية أخرى غير رسوم التلاميذ فيها، دفعت راسل للعودة إلى جولة من المحاضرات بالإضافة إلى الكتابة. لكن مع مؤسس مشهور كهذا، وأطفال عراة يقفزون على الأرض، سرعان ما أصبحت المدرسة سيئة السمعة. واشتُهرَ أن محققاً صحفياً هتف مستغرباً: "يا إلهي!" وذلك عندما فتح البَاب له طفلٌ صغيرٌ عار، ودخل ليُقال له إنه ليس هناك من إله. انتشرت شائعات حول ممارسة جنسية بين التلاميذ، لكن لم يكن لها أساس من الصحة. كان الأكثر أهمية هنا، هو ازدياد الضغط على زواجه. كانت دورا تؤسس حياتها السياسية الخاصة،

عندما كان في جولة محاضراته في أمريكا في العام 1924، كان قد ترشّح مرتين لانتخابات حزب العمل، الذي نقل ولاءه المشروط إليه بعد العام 1914. وترشّحت هي الآن للمقعد نفسه، والذي لا يمكن الفوز به في تشيلسي، (حصلت على أصوات أكثر منه)، ثم بدأت تدير حملات انتخابية للترويج لوسائل منع الحمل بشكل رئيس، وكانت لا تزال غير قانونية في تلك الأثناء. قابلت خلال عملها هذا، الناشط العمالي دوري راندال، وبدأت تنام معه، لأن حريّة الحبّ كانت واحدة من معتقداتها الرئيسة.

على الرغم من غيرة راسل المستعرة، لم يكن هذا التصرّف كارثياً في البداية، لقد أصبح عاجزاً جنسياً مع دورا منذ العام 1925 – وهي علامة على نقص حماسه وليس على ضعف صحته – ثم بدأ بعلاقة مع معلمة سويسرية شابة لامعة، وهو سلوك قلّده أعضاء آخرون من الطاقم. ومع أن أبواب غرف نوم تلغراف، كانت تُفتَح وتُغلق طوال الليل، لكن حاول السيد والسيدة راسل، المحافظة على استمرار زواجهما من أجل مصلحة الطفلين. كتب راسل في كتابه "الزواج والأخلاق" في العام 1929: "برأيي، يجب ألّا يكون الزنا أساساً للطلاق"، وحاول أن يرتقي إلى مبدئه بأن الغيرة هي المدمّر للزواج وليس الزنا. (ومع أن الكتاب لا يمجّد الممارسة غير الشرعية للجنس، فإنه يهاجم وبشكل أساسي، المواقف المسيحية من الجنس، ويؤكد على أن ممارسته خارج العلاقة الزوجية، تخفف الخلاف بين الزوجين. ولم يذكر بكتابه أي شيء عن المودّة المتبادلة والإخلاص والاستمتاع بالزواج، وهو أمر انتقده الروائي جون كاوبر باويز، عندما تناقش الرجلان بهذا الشأن في العام 1928، وكان باويز يمدح الإخلاص).

بينما كانت دورا تقدّم محاضرات بنفسها في الولايات المتحدة في العام 1929، وقعت بغرام غريفن باري، المغامر المتعاطف مع الشيوعية والثنائي الجنس، والذي لحق بها إلى أوروبا وذهب معها إلى الريفيرا. وقد أوصل هذا التصرف تسامح راسل إلى نقطة الانهيار، وهو أمرٍ تجاهلته دورا. لكنه لم يستطع تجاهل أن تصبح زوجته حاملاً بطفل باري. وُلِدَت هاريت في تموز من العام 1930، ومنحتها كنية راسل مما أغضبه بشدّة، حيث أمضى سنوات محاولاً إزالة اسمها من دوبريت، ويشير هذا إلى شعوره العميق بانتمائه الأسري. وتَبِعَ ذلك مولود آخر لباري، وتمت مهاجمة دورا من قِبَل بول غيلارد، عشيق باري السابق العاجز، الذي ادعى بأنه عمَيل شيوعي، لكنه أمضى وقته زاحفاً في الحانات. كان راسل مستعداً لمحاولة مسامحة باري، لكنه احتقر هذا "**الجاسوس المثلي المخمور**"، وانهار الزواج بكراهية مريرة.

في الوقت نفسه، كان راسل واقعاً في حب باتريسيا سبينس، المدعوة بيتر، الفتاة الجامعية من أكسفورد والتي ساعدت بالعناية بولديه الأكبر سناً في العام 1930. بيتر الطويلة المشوقة المشرقة ذات السنوات العشرين، والأصغر منه بثمانية وثلاثين عاماً، أسعدت ابنته كيت التي وصفتها بأنها: "واحدة من أجمل النساء اللواتي رأيتهن في حياتي.... مليئة بالفرح والحيوية والحياة". لقد تزوجت من راسل في العام 1936. وبدت بيتر وكأنها الزوجة التي يستعرضها (الإيرل) الجديد ويفتخر بها — كان راسل قد ورث اللقب في العام 1931 عند وفاة فرانك — لأنه وبينما كانت تساعده في أعماله أحياناً، نالت إعجاب أصدقائه بأناقتها وليس بعقلها. وبالتأكيد، عانى الطفلان من رحلاتهما المكوكية بين بيوت الأسر، ومن قسوة الطلاق الذي لم يُظهِر فيه الأبوان نوايا حسنة،

ناهيك عن اللطف المنطقي الذي وعظا به. لقد تولّدت لدى راسل كراهية تتضمن شيئاً من الاحتقار لزوجته السابقة، وتفوّق عليها بالمسائل القانونية وحاول استخدام الولدين ضدّها متى استطاع ذلك. وازدادت عزلة جون المخلص لوالدته، بينما فضّلت كيت، رغم وجود بعض الإحساس بالذنب، الأناقة في تلغراف هاوس، حيث يعيش راسل وبيتر، على فوضى منزل أمها دورا. وعرفت بيتر كيف تعرض أثاث المنزل الذي كان معظمه من تصميم وتغنشتاين، وذلك لإحداث أثر جيد، على الرغم من حالة التقشف. دخل الطفلان مدرسة داردينغتون في ديفون في العام 1934، وأحبّتها كيت وعبّرت عن ذلك قائلة: "لقد حافظت على سلامة عقلي، وهذّبت تفكيري، ووفرت لي بيئة مستقرة".

كان عقد الثلاثينيات قاتماً بالنسبة لراسل، كما تكشف كتبه. اتخذ كتابه "التثقيف والنظام الاجتماعي" في العام 1932، وجهة نظر نصف استبدادية حول التثقيف، تدافع تقريباً عن تقسيم أفلاطون للجنس البشري إلى حكّام ومحكومين، وتُظهر تحرره من الوهم بسبب المدرسة التي أسسها هو. وفي كتاب "النظرة العلمية" المنشور في العام 1931، تنبأ بشكل كئيب بعالم محكومٍ من التكنوقراطيين، حيث تتلاشى حرية الإنسان كلها. لاحقاً، تبنى كارل بوبر أفكاره حول احتمالية الخطأ العلمي، كما تبنى أفكاره المؤيدة للاستبداد التكنوقراطي، بعض معلمي الستينات الراديكاليين من أمثال هربرت ماركوس، وجارغن هيبرماس. (في ذلك الحين، اتهم راسل ألدوس هاكسلي بسرقة أفكاره من كتاب "عالمٍ جديد شجاع"، لكن رواية هاكسلي (الخلخلة)، هجت جيلاً من الطوباويين. وإن كان هناك من سلف لهذه الرواية، فسوف تكون رواية "نحن" لـ يفجني زامياتين المنشورة في العام 1920). ولكونه أصبح مثقلاً بأعباء الطلاق

ونفقاته، ولأنه سئم من كتابة مقالات لا نهاية لها، وبتلاشي استثماراته في أزمة انهيار (وول ستريت) في العام 1929، حاول راسل العودة إلى الفلسفة الأكاديمية، في كامبريدج أولاً، حيث تجاهله مور كليّاً، وبعدها في هارفرد ومن ثم في إكسفورد، حيث قدم بعض المحاضرات ما بين العامين 1937 - 1938. وللمفارقة، بينما أصبح كتابه "المبادئ" مؤثراً جداً بين الحربين، بدا الآن وكأنه عتيق الطراز، لأنه كان قد تجاهل التطورات الأخيرة. وأخيراً، مُنِحَ منصباً في شيكاغو، فأبحر إلى أمريكا مع بيتر وطفلهما كونراد في أيلول من العام 1938 في أثناء أزمة ميونخ. لقد دافع راسل مسترضياً هتلر، حتى توقيع الاتفاق النازي السوفياتي في آب من العام 1939، كان حبّه للسلام يقوم على أهوال الحرب وجهله بألمانيا النازية. وحثّ في العام 1936 على مقاومة النازية بطريقة اللاعنف الغاندي، وذلك في كتابه "أي طريق للسلام؟" وهو الكتاب الوحيد الذي تبرأ منه فيما بعد.

انتهت إقامته في أمريكا بشكل غير سعيد. كان يشعر بالاستياء الشديد من التهديد الموجّه للبريطانيين - كان راسل وطنياً بطريقته الخاصة - وتمكن من إحضار كيت وجون إلى كاليفورنيا في العام 1939، حيث كان يقدّم محاضرات في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. أحب راسل هذه الجامعة لكنه لم يحب رئيسها، وقدّم استقالته بسعادة عندما عُرِضَ عليه منصب في جامعة نيويورك سيتي. وقد تبين أن هذه كانت حركة مهنية متسرعة. وقبل أن يتم تعيينه، انتشرت حملة لإيقاف هذا "الجاف المطلق المنحطّ المدافع عن الفسق الاجتماعي" - كما وصفته مجلّة (أميريكان) الكاثوليكية - عن تدمير الشباب، بتقديمه محاضرات عن المنطق والرياضيات. وقامت جوقة الضباع من المتعصبين الدينيين، برميه بأكثر عباراته شيطانية، والمأخوذة

بشكل رئيس من كتاب "الزواج والأخلاق"، وتم الإعلان قضائياً بأنه غير مستحقّ لأن يكون أستاذاً في الفلسفة. لقد أصبح مفلساً بشكل فعلي وبدون عمل، ثم تدخّلت العناية الإلهية بصورة ألفريد بارنز، المليونير الغريب الأطوار، مؤسس شركة بارنز، حيث عيّن راسل ليحاضر عن تاريخ الفلسفة، ودفع أجور انتقاله مع عائلته إلى بنسلفانيا.

إذا كان راسل قد ظهر لفترة وجيزة، كسقراط عصريّ يدافع ببطولة عن الحريات الفكرية والجنسية، فقد كشف الآن تعصّبه، لم يكبر الطفلان الأكبر سناً "كطفلين سعيدين وحرين" بل أصبحا مراهقين مضطربين، أصبح لدى جون مشكلة كبيرة بسبب مثليّته، وحاول أن يكشف الأمر للعائلة بشكل غير مباشر من خلال (لوح ويجا)[1]، حيث كتب عليه في إحدى الليالي "إن جون مثليّ". لكن راسل تعامل مع الأمر على أنه مزحة وتصرّف بشكل بليد، ربما عن عمد. كان يتبنى حينها المعقدات العامة حول أن المثلية كانت مجرّد نتيجة لتربية الأهل السيئة، ولهذا فمن المستحيل أن يكون ابنه مثلياً. وسرعان ما ابتهجت كيت وجون بمغادرتهما المنزل، الذي كان الزواج فيه تحت حالة من التوتر. فبيتر التي تعبت من حياة الفقر مع رجل يكبرها بثمانية وثلاثين عاماً، أصبح لديها علاقات مع رجال آخرين، وكانت ردّة فعل راسل عليها، حالة من اللطف الجليدي. عندما طرد بارنز راسل– شعر المليونير بالإهانة من خلال مقال يقارن بينهما– حوّل راسل محاضراته إلى كتاب بعنوان "تاريخ الفلسفة الغربية" وتم نشره في العام 1946. وقد تعرض لهجوم من قِبَل بعض الأكاديميين

---

[1] لوح ويجا: هو لوح خشبي قديم مطبوع عليه الأحرف والأرقام ومزوّد بمؤشر متحرك، وعليه كلمتا "نعم، لا" ويفترض أنه يُستخدم في الجلسات الدراسية للإجابة عن الأسئلة المطروحة. المترجم.

لاعتماده على مصادر ثانوية وتعبيرات عامة جامحة غالباً – الفصول المتعلقة بكانط، هيغل ونيتشه، كانت منحازة بشكل مشين ولا تلائم شخصيات عظيمة مثلهم، كما أنها تتضمّن فصلاً أساسياً عن بايرون، الأدنى فكرياً بين الشعراء – هذا الكتاب ممتع بشدّة، يتألق بمفاهيم وأحكام مسبقة حادة، وقد عرّف الكثير من الناس بالفلسفة أكثر مما فعل أي كتاب آخر.

فجأة، أشرقت شمس التأييد الرسمية من جديد على الفيلسوف العجوز، إذ عرضت عليه جامعة ترينتي عضوية جديدة، وأبحر نحو وطنه في عام 1944. بكل معنى الكلمة، أصبح الآن محبوب المؤسسة، يتم عرضه دورياً على شاشة الـ بي بي سي، ويقدم محاضرات في المركز الثقافي البريطاني في بلجيكا وسويسرا والنرويج وأستراليا، وقد نجا من حادثة اصطدام جوي، لأنه كان يرغب بالتدخين في الجزء الخلفي من الطائرة. وتلقى في العام 1949 وسام الاستحقاق، وهو شرف اقتصر على أربعة وعشرين شخصاً فقط. لكن راسل، الذي حذّر منذ فترة طويلة، من التهديد السوفياتي للحرية، وجد المؤسسة توافق معه الآن على أن الستار الحديدي، يشطر أوروبا. وكان قد تجاوز جميع الصقور في البنتاغون، باقتراحه أن على الولايات المتحدة أن تستفيد فوراً من احتكارها للأسلحة النووية، لإطلاق حرب نووية استباقية. وقد أعلن في تشرين الأول من العام 1945، بعد شهرين من تفجير القنبلة الذرية في هيروشيما: "**علي من جهتي أن أفضّل كل الفوضى والدمار الناتج عن حرب وسائلها القنابل الذرية، على أن تهيمن على الكون حكومة لديها الخصائص الشيطانية للنازية**". وافق لاحقاً على أن حرباً كهذه يمكنها أن تقتل 500 مليون إنسان وتعيد الإنسانية قروناً إلى الوراء، لكنه اعتقد أن هذا الثمن

يستحقّ الدفع . لكن تفجير السوفييت لأول قنبلة ذرية لديهم في العام 1949 ، غير رأيه بشكل جذري، وانحرفت أفكاره إلى اتجاه آخر، وسرعان ما أنكر أنه أيّد الحرب الذرية يوماً.

لم يُبهر راسل أنداده المثقفين بهذه التصريحات العامة ولا بمحاضراته في كامبريدج، ناهيك عن كتابه "التاريخ".

توقفت صداقته مع وتغنشتاين، الذي أصبح الآن أستاذاً للفلسفة، منذ لقائهما الأخير في عام 1921 في النمسا، على الرغم من أنه وافق على مضض، مشاركة مور في اختبار راسل لنيل شهادة الدكتوراه في العام 1929. اعتبر وتغنشتاين جميع أعمال راسل منذ العام 1913 كشيء مقيت، وصرّح بأن على كل فيلسوف، قراءة أعمال راسل الرياضية العظيمة، بينما لا يجب قراءة أي شيء من إنتاجه اللاحق. لم يقبل راسل فلسفة وتغنشتاين اللاحقة ولم يفهمها بشكل كامل. هذا الازدراء المتبادل كان الخلفية لحادثة البوكر المشهورة في العام 1946. كان الرجلان يتجنّب أحدهما الآخر عادة كما أن راسل لم يكن يرى مور إلا قليلاً أيضاً، لأنه كان معزولاً فكرياً في كامبريدج، على الرغم من أن الطلاب لا يزالون يتزاحمون في محاضراته.

أصبحت حياة راسل الخاصة مضطربة بعمق مرة أخرى. تركته بيتر أخيراً في العام 1948 في نوبة غضب سببها الغيرة، إذ عادت كوليت للظهور في حياته العاطفية، لكن هذا كان سبباً واحداً من أسباب رحيلها. كانت غاميل برينان، زوجة الكاتب جيرالد، قد أصبحت ضمن اهتمامات راسل في ذلك الوقت، على الرغم من عدم توفر الحظ له معها ولا مع زوجة أحد المحاضرين الشبان في كامبريدج، واللتين أمطرهما برسائله العاطفية بشكل متزامن. لقد حافظ على سمعته "كفيلسوف خليع" حتى سن متقدمة، حيث كان لا يزال يبحث عن الزوجة المثالية. وكما علّق

أحد أصدقائه، "كان يبحث عن مزيج مستحيل من كليوباترا وأسباسيا ...... عن بوديسيا وجان دارك". لقد أخذت بيتر كونراد معها ولم يرِ راسل ابنه الصغير لعشرين سنة.

في الوقت ذاته، أعاقت كراهية راسل المتجددة دوماً لدورا، إمكانية التعاون معها للتعامل مع المشاكل المتنامية لابنها جون. كان جون قد تزوج بحالة من الاندفاع، من سوزان ليندسي في العام 1946، وربما كان زواجه جهوداً منه "ليتغلب" على مثليته. وبسرعة، أصبح لديهما ابنتان إضافة إلى الطفل الأول لسوزان. وتبين عدم قدرته على كسب لقمة عيشه — كان لديه طموحات أدبية — وهكذا زودهما راسل بمكان لعائلتهما كلها في بيته في ريشموند في بداية الخمسينيات.

بحسب أقوال سوزان التي بجلّت البطل "ديدي" كما كانت تدعو راسل، مع أنها بطريقة ما، فهمته بطريقة جيدة جداً وبشكل غريب، فقد أغوى الفيلسوف الثمانيني زوجة ابنه. ومع أن الأدلة غامضة حول هذا التصرّف، لكن لا يمكن أن يكون تقاربهما مساعداً لجون، الذي تخلّت عنه سوزان من أجل الكاتب كريستوفر وورد سوارس. لقد أصبح جون مجنوناً تماماً في أواخر العام 1954 وعادت جميع مخاوف راسل القديمة حول الجنون الوراثي إلى السطح. وكانت ردّة فعله هي عدم رؤية جون الذي تُرك أمر محاولة إنقاذه لوالدته دورا المفلسة تماما. لقد أراد راسل وثيقة إثبات جنون لجون، من خلال الحجز عليه في مصحّة ضد رغبته، ولم ينجح هنا أيضاً. وبقي جون دون شهادة إثبات، لكنه بقي غير مستقر أيضاً لباقي حياته، وعاش معظم الأحيان مع والدته. على أيةِ حال، بقي راسل يرى حفيدتيه، ووجد أن لوسي الأصغر سناً هي الأذكى والأكثر جاذبية.

لم تلطخ الكوارث المنزلية الشخصية هيبة برتراند راسل العامة. وتأكدت مكانته لدى حصوله على جائزة نوبل، واستمع العالم لـه متحدثاً على الراديو في العام 1954، حولِ التهديد المتزايد الناتج عـن الأسـلحة النوويـة، الـذي ازداد سـوءاً مـع تفجـير أول قنبلـة هيدروجينية. وقد أنهى برنامجه الإذاعـي (خطـر الإنسـان) بقولـه ببلاغة مستعجلة: **"أناشدك من إنسان لإنسـان: تـذكر إنسـانيتك وانسَ الباقي. إن كان باستطاعتك القيام بهذا، فسـيمتد الطريـق مفتوحاً أمامـك إلى فـردوس جديـد، وإن لم تسـتطع، فلـن تـرى أمامك سوى الموت الكوني"**. كلمات جميلة تم إلحاقها بإجراءات. خاطب رئيس وزراء الهنـد (نهـرو) أثنـاء مـروره في لنـدن في العـام 1955، وسبب الكثير من التعاطف، كما جعل إنشـتاين إضـافة إلى خمسة آخرين من الحائزين على جـائزة نوبـل، يوقّعـونٍ بيـان (راسل – إنشتاين) الذي كان العمل الأخير لإنشتاين تقريبـاً. وقـد دعـا هـذا البيـان للحلـول السـلمية للأزمـات العالميـة، كمـا دعـا لاجتماعـات للعلمـاء مـن طـرفي السـتار الحديـدي. كليهمـا بـدأت الاجتماعات في العام 1957 في بـاغواش في كنـدا – ولهـذا كـان اسمها مـؤتمرات بـاغواشٍ – وكـان راسـل أول رئـيس لهـا، وقـد تواصلت بشكل مفيد جداً منذ ذلـك الحـين ممـا أسـهم في تحقيـق معاهدة حظـر التجـارب جزئيـاً في العـام 1964. وأصـبح راسـل حينها أول رئيس لحملة نزع السلاح النووي في العام 1958 لكنه وجد مسيراتها البهيجة في ألديرواستون، بما تحتويه مـن معـاطف مـن القمـاش الخشـن واللحـى الطويلـة وآلات الغيتـار والنوايـا الحسنة، غير كافية لأزمة وصفها بتعابير كارثيـة بشـكل متزايـد. وقد انضـمّ في العـام 1960 إلى لجنـة المئـة الـتي كانـت مكرّسـة للنشاط المباشرٍ غير القانوني، واستقال من رئاسة حملة نزع السلاح النووي، تماماً عندما بدأت تؤثّر على الرأي العام البريطاني.

اقترح تلك اللجنة رالف شونمان، الطالب الأمريكي الشاب الملتحي بشكل غريب — لم يكن لديه شاربان — الذي حضر إلى بيت راسل في العام 1960. أبهر شونمان راسل بسحره أكثر مما أبهره بفكره، وأصبح سكرتيره الصحفي مما جعله المتحدث باسمه في كل القضايا السياسية تقريباً. بدا شونمان للكثيرين بأنه عبقري راسل الشيطاني — "أفعى راسل" كما اصطلحت العائلة على تسميته — لكنه كان بالفعل ابنه البديل باتخاذه الدور الذي تخيّله راسل لابنه جون. ربما يتمثل سّر سيطرته على راسل، بالطريقة التي أطرى بها غروره بوصفه فيلسوفاً معمّراً. في عيد ميلاد راسل التسعين في العام 1962، نظّم شونمان حفلاً في قاعة الاحتفالات الملكية (Royal Festival Hall) ومدح فيه "صفات بيرتي الجميلة، لأن لا شيء يؤثر عليه، لا لؤم الرجال المثيرين للشفقة ولا وضاعتهم ولا عدوانيتهم". ابتسم راسل ابتسامة متكلفة حيال هذا التأبين.

راسل الذي كان مستعداً سابقاً، للتوجّه للجانبين كليهما على حد سواء — كما بدا في رسالته الافتتاحية إلى القادة السوفييت والأمريكان، في "التصريح الجديد" في العام 1957 — أصبح الآن يعتبر أمريكا هي المعتدي العالمي. وظهر هذا الاستنتاج جزئياً لكونه تلقى استجابات متكررة وأكثر حرارة لاقتراحات سلامه من الشيوعيين، أكثر مما تلقى من الأمريكيين، لكنها عكست أيضاً، قبوله المتنامي لوجهات نظر شونمان اليسارية الجديدة، التوليفة العصرية من الماوية والتروتسكية. وظهرت أول ملاحظة مغالية له عندما وصف كلاً من هارولد ماكميلان، وجون إف كينيدي بأنهما "أكثر شرّاً من هتلر" وذلك في أثناء تجمّع في العام 1961. لكنه أصلح سمعته في شهر أيلول ذاك، لأنه سُجِنَ بسبب العصيان المدني،

لـدى اعتصـام حشـد مـن الجمهـور في سـاحة (ترافالغـار). في الواقع، أمضى أسبوع سجنه في جناح المستشـفى، يقـرأ روايـات بوليسية والسيرة الذاتية لـ "مدام دي ستيل"، لكن هذه القضـية جعلت الفيلسـوف الـذي قـارب التسـعين مـن عمـره بطـلاً أمـام العـالم كلّـه. وقـد شـجّعه هـذا النجـاح علـى التـدخّل في أزمـة الصواريخ الكوبيـة في تشـرين الأول مـن العـام 1962، الأزمـة التي اقترب العالم فيها أكثر ما يمكن من حدوث حـرب نوويـة. أرسل برقيـات إلى قـادة الولايـات المتحـدة والقـادة السـوفييت، واستجاب لها خروتشوف وحده، كما نشر منشوراً، ربمـا تمـت كتابتـه علـى يـد شـونمان، مبتـدئاً ايـاه بــ "أنــت توشـك أن تموت... لمـاذا؟ لأن الأمـريكيين الأغنيـاء، لا يحبّـون الحكومـة التي يفضّلها الكوبيون؟ لا يمكـن تقـدير تـأثير جهـود راسـل في نــزع فتيـل هــذه الأزمــة، لكــن الأصــدقاء القـدامى وزمـلاءه في باغواش مثل جوزيف روتبلات، صُدِموا بهـذه الـدعايات الفظّـة من واحد من أعظم العقول في العالم.

بدون أية مخاوف، ومدركاً لكون جدّه كان رئيس وزراء مرتين، وبتشجيع من شونمان، قـرر أن اسـتمرار نجـاة الإنسـانية، اعتمـد على نشاطاته. وللمساعدة على دفع تكاليف تلك النشاطات، أنشـأ مؤسسـة برترانـد راسـل للسـلام في العـام 1963، طالبـاً المـال لتشغيلها. وقرر أيضاً نشر كتاب "السيرة الذاتية"، المختمرة لوقـت طويل، كما قـرر بيـع مقالاتـه ورسـائله، حيـث اشـترتها جامعـة ماكماستر في هاملتون، كندا.

على الرغم من أن هدفه الأساسـي كـان الأمـريكيين في فيتنـام، فقد مدح جميع أعداء الولايات المتحدة، إذ دعـم نظـام مـاو تسـي تونغ في الصين، ونظام كاسترو في كوبـا، وحـرب عصـابات تشـي غيفـارا في أمريكـا اللاتينيـة. ولتركيـز اهتمـام العـالم علـى فظـائع

الولايات المتحدة في فيتنام، وافق على إنشاء محكمة جرائم الحرب الدولية. واجتمعت المحكمة في استوكهولم في 1967، لتعلن أن الأمريكيين مذنبون بارتكاب جرائم حرب إبادة جماعية على مستوى الجرائم الهتلرية، بشكل لم يفاجئ أحد. (لم يحضرٍ راسل اجتماعاتها. وشونمان الذي حضرها، وجد نفسه مهزوماً أمام غرباء يتمتعون بصفاء ذهني أكبر، من أمثال جان بول سارتر). كان ذلك يدعو للسخرية في ذلك الوقت، ومع ذلك، تبين أن بعض الاتهامات كانت دقيقة بشكل غريب. وبشكل عام، إن نبرات الصوت التي استعملوها، نفّرت معظم الغربيين بمن فيهم كيت ابنة راسل. وقد برز الانحدار في صورة راسل الشعبية — من الحكيم إلى المعتوه العجوز — من خلال مقالة "العين الخاصة" في 15 آب من العام 1966:

برتراند راسل يسبح في المحيط الأطلسي: بمأثرة مذهلة..... الفيلسوف ذو الأعوام الأربعة والتسعين، و"الحاج السعيد من أجل السلام" سبح البارحة في المحيط الأطلسي لمدة ساعتين. تم الكشف عن هذا الخبر عبر برقية خاصة مُرسلة من المكتب الصحفي لرالف شونمان.

كانت حياة راسل الخاصة أكثر سعادة. كان قد تزوج في العام 1952، للمرة الرابعة والأخيرة. إيديث فينش، الأمريكية التي كان قد عرفها لسنوات، وزودته بالاستقرار والدعم الذي كان بحاجة ماسة له. وقد انتقلا إلى بلاس بينراين، بيت قرب بورتميريون في نورث ويلز، المنطقة التي أحبها بسبب بحرها وجبالها. وهناك وفرا الحياة المنزلية لحفيدتيه. لكن الحفيدتين عانتا الانقسام الكارثي نفسه للولاءات — ما بين الجد المعشوق وجون ودورا، أبيهما وجدتهما — وهذا ما أشقى حياة كيت وجون. (رأى راسل ابنه جون مرة واحدة بعد العام 1958). وفي

تشرين الثاني من العام 1969، إيديث التي سئمت منذ وقت طويل، من سلوك شونمان السيء— تم ترحيله من عدة بلدان، كان يسافر الآن بوساطة جواز سفر مزور — أقنعت زوجها بتوقيع مذكرة براءة من كل تصرفات سكرتيره منذ منتصف العام 1966. لكن هذا لم يكن صحيحاً، إذ كان راسل يعرف بتصرفات شونمان، كما وافق عليها كلها، لكن راسل في وقت لاحق، استثناه من وصيته.

انتهت حياة راسل بسلام في الثاني من شباط عام 1970، لكن التعاسة التي كان قد خلقها قد استمرت. ترك خلفه زوجتين سابقتين تشعران بالمرارة، وابناً مصاباً بالفصام، لم يعد إلى حالته العقلية السليمة أبداً، وحفيدة اسمها سارة، مصنّفة على أنها مصابة بالفصام، وأخرى اسمها لوسي، والتي كانت تُبشر بالخير لبعض الوقت وأحبت جدها لفترة طويلة. لكن في دارتينغتون أُصيبت لوسي بمشاكل عاطفية وفشلت في جميع امتحاناتها، جزئياً لأنها تدرس الرياضيات رغم مواهبها الأدبية، بينما كانت الانقسامات العائلية هي السبب الرئيس. لقد فقدت مودّة جدها بشكل كامل بسبب وقوعها في غرام شاب مغربي سارق للكتب، كما أنه قطع اتصاله بها بشكل كامل في العام 1966، وأوقف كل دعم لها. أصبحت لوسي مشرّدة تماماً، ومرفوضة من باقي أعضاء عائلتها، قبل وصولها لسن الثامنة عشرة من عمرها. وانتهت حياة تشردها وتشوشها ونوباتها في مستشفيات الأمراض العصبية، بانتحار مروّع في العام 1975، إذ أحرقت نفسها حتى الموت في مقبرة كورنيش. ولم ينجُ بشكل كامل من مصير راسل، سوى ابنه الأصغر كونراد، الذي ذهب، متصدياً لوالدته التي لاتزال غاضبة، إلى (بلاس بينراين) في أواخر العام 1968 وأبهج راسل بمعرفة فلسفية غير متوقعة، وزوده في النهاية بالابن الذي

يستطيع التحدّث معه. وفي النهاية، كان الزواج السعيد (للإيرل الخامس، بعكس زواج والده.

كتب لأوتولاين موريل نادباً في تموز من العام 1915 : **"عندما أتحدث إلى شخص عادي، أشعر بأني أتحدث لغة الأطفال، مما يجعلني أشعر بالوحدة"**. لكنها لم تكن متعاطفة، ولديها أسبابها. كان راسل في غارسينغتون، يخالط العقول الأكثر ذكاء في تلك الأيام، وكان لايتون ستراتشي وألدوس هاكسلي، وتي إس. إليوت وجون مينارد كاينز، من ضيوفه، لذلك لا يمكنه التذمّر من قلّة التحفيز الفكري. أما سبب بقائه منعزلاً فينكشف من خلال الصور الملتقطة في تلك الأثناء، والتي تُظهره بوصيّة متخشبة متصلبة في حدائق غارسنغتون، في بدلة داكنة مؤلفة من ثلاث قطع وياقة قاسية، بينما يتسكع باقي الضيوف بملابس خفيفة أو ملابس السباحة. ولم يتغير لاحقاً، وكما تُظهرُ صورته مع عائلته المنتشرة على الشاطئ في هينداي في فرنسا من العام 1932، شكله المتصلّب في بذلته الداكنة وربطة العنق مع بقاء الآخرين بملابس الاستحمام. كان التنازل الوحيد الممكن في فصل الصيف، هو ارتداء قبّعة من القش. لقد بقي فيكتورياً بشكل غريب، متميزاً بسلوكه المكتمل القديم. وقد سُئل مرة لماذا ينحني من منطقة الخصر عندما يتم تقديمه لشخص ما، وأجاب بأنه لا يعرف مكاناً آخر ينحني منه. لكن حتى الفكتوريين استرخوا، وراسل كان بعيداً عن الفيكتوريين في معتقداته. كانت الكثير من الحريات الجنسية والاجتماعية التي أصبحت الآن مسلمات، عملاً رائداً جزئياً من قِبَله. لقد أتت عزلته وقساوته من شيء آخر.

وكما اعترف في النهاية، كان مُطارداً طوال حياته بمخاوف لا واعية. كتب في "السيرة الذاتية" : **"النوع نفسه من الخوف، سبب لي ولسنوات عديدة، تجنّب كل العواطف العميقة قدر**

استطاعتي، وجعلني أعيش حياة الفكر التي تحتوي الكثير من التهكم". لقد تحسّرت كيت لكون والدها لم يقرأ أكثر لفرويد، لربما شجّعه بالبحث عنِ دوافعه اللا واعية، الشيء الذي ربما كان أكثر خوفاً أو غروراً من أن يجرّبه. ربما كان التحليل الأكثر ذكاءً لحالة راسل، قد أتى على يد دي. إتش. لورنس. كان الرجلان على طرفي نقيض في الكثير من الطرق، لكنهما تقابلا في غارسينغتون، وجذب أحدهما الآخر ووافقا في العام 1915 على التعاون لإنجاز كتاب. لكن، كان لورنس يشعر بالقرف مما كان يراه في حياة كامبريدج – كينيز في روب النوم لسبب خاص به، كان بالنسبة له حالة من الفساد – ثم تحولٍ بعنف ضدّ راسل، كاتباً رسالة دمرت الفيلسوف المضطرب سلفاً:

أنت ببساطة مليء بالرغبات المكبوتة الهمجيّة والمعادية للمجتمع. وتبرز هذه الرغبات بزيّ الحمل الوديع عبر الدعاية لمعاداة الحرب. وكما قالتٍ لي إحدى النساء التِي حضِرت إحد لقاءاتك: "بدا أمراٍ غريبا بالنسبة لي، غريبا جدا، بوجهه الذي يبدو شيطانيا وهو يتحدث عن السلام وعن الحبّ. لا يمكن أن يكون قد عنا ما قاله"........... أنت مليءٍ جداٍ بالعواطف الشيطانية المكبوتة ولا يمكن أن تكون إلا شخصاً شبقاً وقاسيا.

حقاً، كما عرف هذا التلميذ الإنكليزي جداً من خلال الحدس، فإن الإعلانات المتكررة عن السلام والحب العالميين، قد أتت بشكل غريب من رجل يستعر بنزاعات داخلية، ولا يمكن لأية حسابات للسلوك الإنساني أن تأمل بالسيطرة عليها.

5/لودفيغ وتغنشتاين (1889– 1951): الغضب والزهد

"لقد وصل الله: جاء بقطار الساعة الخامسة والربع"

جي. إم. كينز، 1929

"لا تفكر، بل انظر".

عـرض لودفيـغ وتغنشـتاين هـذه العبـارة في كتابـه "تحقيقـات فلسفية" [1]، وكان الهدف تطبيقها علـى اسـتخدام الكلمـات، لكـن ربما يتم تطبيقها بالوقت نفسه، لفهم حياته الخاصة و تـأثيره. إن التفكير بوتغنشتاين يشبه التفكير بالله: يغمرنا إغواء بالسجود أمام

[1] كتـاب تحقيقـات فلسـفية: العنـوان الإنكليـزي للكتـاب هـو (Philosophical Investigations) وقد تم نشره في العام 1953، أي بعد وفاة وتغنشتاين بعامين. المترجم.

هذا الفكر الشاهق. من الممكن أن يكون النظر إلى الرجل نفسه مجزياً أكثر.

لودفيغ وتغنشتاين هو بدون شك، الشخصية الأكثر تأثيراً في الفلسفة الحديثة، وربما المفكر الأعظم والأكثر راديكالية في القرن العشرين. لكنه أيضاً، الشخص الذي يجب علينا مقاربته بحذرٍ شديد. من المعروف أن كل فيلسوف عظيم، يعطي الفلسفة اتجاهاً جديداً: لقد نجح وتغنشتاين بالقيام بذلك مرتين، وكان يودّ في نهاية حياته القصيرة نسبياً أن يقوم بذلك مرة ثالثة. كان كتابه "الأطروحة المنطقية الفلسفية"[1] الصغير، الذي يحتوي على حكم وأقوال عن الفلسفة، والذي صدر في العام 1922، ذا تأثير كبيرٍ على الحلقة الفلسفية في فيينا وعلى الحركة التي أصبحت معروفة باسم "حلقة الفلسفة الوضعية المنطقية"، على الرغم من صبره القليل على أتباعه الفلسفيين. ولكونه افترض أن كتابه قد حلّ جميع المشاكل الفلسفية، فقد مضى للقيام بأعمال أخرى، وعمل بأوقات مختلفة أستاذ مدرسة أو بستانياً أو معمارياً.

لقد عاد إلى الفلسفة فوراً عندما تم إدراك عبقريته بها. وفي العام 1911، وبعد أسبوعين فقط، من تعرّفه على بيرتراند راسل – أستاذه الخاص اللامع في كامبريدج، ومن ثم زميله المذهول به، وأخيراً عدوه اللاذع – وصفه راسل بأنه: "من بين الذين أعرفهم، ربما يكون المثال الأكثر كمالاً للعبقري كما يتم تخيله تقليديا، شغوف عميق وحادّ ومهيمن". كما وصفه بكلمات مختصرة، مينارد كينيز، رجل الاقتصاد العظيم الذي لم يكن أخرق فكرياً قائلاً: "لقد وصل الله: جاء بقطار الساعة الخامسة والربع". استمرّت

---

[1] الأطروحة المنطقية الفلسفية: عنوان الكتاب باللغة اللاتينية هو (Tractatus Logico-Philosophicus) والترجمة الأصلية الإنكليزية بعنوان (Logical-Philosophical Treatise). المترجم.

شهرة وتغنشتاين بعد وفاته بالنمو حتى أصبحت مرادفة للعبقري الكارزمي الذي لا يساوم حتى بين الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن أفكاره. وقد استمرّ إصدار كتب عنه بأعداد متزايدة، كما عُرِضَ فيلم خارق لديرك جيرمان، يتحدث عن سيرة حياته المزَعومة. لم يكن هناك تأثير كبير لفلسفته الثانية بكتاب "تحقيقات فلسفية" إلا بعد وفاته، أما طوره الثالث الأقل شهرة، فلا يزال مؤثراً في العالم الفكريّ.

لاحت هيبته من قناعته بأنه على حقٍ بالمطلق، وأيٍ شخص لا يتفق معه، هو شخص مخطئ تماماً وضعيف فكرياً وروحانياً. يكمن الكثير من جاذبيته بالطبع، في قدرته الواضحة على الإقناع بفكره. إن العبارة الافتتاحية الشهيرة لعمله الأولِ والأكثر شهرة "الأطروحة"، التي تقوِل: (العالم هو كل ما يشكل الحالة)، تضع جدولاً للتعريفات المنظمة والدقيقة لوظيفة اللغة، وعندما أنهى ما يمكن التعبير عنه، أنهى الكتاب بعبارةٍ "أي شيء لا يستطيع الإنسان قوله، يوجب عليه أن يبقى صامتاً أمامه"، مانعاً بذلك الآخرين من نطقٍ أقوالهم أو المضي قدماً إلى ما وراء خطابه. لقد كان هذا جزئياً، نِتاج عقل رياضي يستطيع التحليل بمنطق لا تشوبه شائبة. مع أنه ترك الإمكانية مفتوحة، لكون اللغة لا تستطيع البدء بالتعامل مع الأسئلة الفعلية في الحياة، ويمكن اتخاذ عبارته النهائية كتحد للسماح بالغموض. وعلى العكس من ذلك، فقد اعتبر معجبو وتغنشتاين في حلقة فيينا، وحلقة الفلسفة الوضعية المنطقية الأنجلوسكسونية، أن ما لا يمكن أن يُقال، لا يستحقّ أن يُؤخذ بعين الاعتبار.

مع ذلك، فإن الجزء المهم من تأثير وتغنشتاين، خلال حياته وبعد وفاته، تم اشتقاقه مِن الرجل وليس من أعماله. عندما تكون معه شخصياً، يكون مثيراً للإعجاب بشكل مبهم كما تكون كتبه.

وعلى الرغم من هيئته الصغيرة الناعمة، فهو يهيمن دائماً على التجمعات، من خلال عينيه الزرقاوين العميقتين المحدقتين بحماس تحت جبينه الضخم المحتوي على تقاطعات مثل لوحة الشطرنج. هذه التجمعات التي كانت تراه باستمرار، شهدته مراراً يعبّر عن نفاد صبر ضخم، عندما يتعامل مع غباءات الآخرين. يمكن لهذا أن يتفجّر بحالة من الغضب الجسدي في بعض الأحيان، وقد يصلٍ إلى العنف. وقد اعترف وتغنشتاين قائلاً: **"عندما أكون غاضباً من شيء ما، قد أضرب الأرض أو الشجرة بعصاي أو ما شابه"**، حتى عندما لا ينتقد البشر، فهو يميل إلى إقناع – أو تغيير قناعة – المستمعين من خلال قوة شخصيته كما من خلال منطقه.

عندما كان في كامبريدج في الثلاثينيات والأربعينيات، محاضراً في البداية ومن ثم أستاذاً في الفلسفة، جذب حلقة من التلاميذ المكرّسين المذهولين، الذين لم يقبلوا تعاليمه فقط بل قلّدوا أزياءه أيضاً، كارتداء الحذاء القماشي الخفيف والجاكيت الصوفية، مع القمصان البيضاء المفتوحة الياقة، وتناول الطعام البسيط والنوم على أسرّة ضيقة. كما استنسخوا أيضاً طريقته ضرب يده على جبهته مع لفظة "جا!" عندما تخطر على باله فكرة. محاكاة كهذه كانت غير واعية على الأغلب، وكانت بالتأكيد أسهل من فهم أفكاره العويصة. (وصفي حجاب). الطالب الجامعي الذي اختار بحالة من التهوّر وتغنشتاين كمشرف عليه، كان مذهولاً أثناء لقاءاتهما الودّية، وقد تخلّى عن الفلسفة لحوالي نصف قرن، ووصف لاحقاً وتغنشتاين كإنسان بقوله "مثل القنبلة الذرية أو الإعصار". (جون فينالوت)، وهو تلميذ آخر من كامبريدج في تلك الفترة، وصف معلمه بعبارة "المتوهج بالشغف الفكري". شعر البعض الآخر واعترف بحالة من العشق المفتوح. تذكر (جي. إن. فيندلي) الذي

أصبح أكاديمياً لاحقاً: "لقد بدا في عمر الأربعين وكأنه شاب في العشرين، بجماله الإلهي.... مهيباً بصفائه السحري .... بدا مثل أبولو، الذي عادت الحياة له متجسدة بتمثاله، أو ربما بدا مثل الإله النرويجي بالدور..... لقد كان (فيلسوف الشمس)".

ولكن لم يكن البعض الآخر مذهولاً. ففي كامبريدج أيضاً، وفي أواخر الأربعينات، وجد (بيتر غراي لوكاس)، اللغوي اللامع الذي كان يعمل في بليتشلي بارك على برنامج ألترا لفك الرموز، أن وتغنشتاين عبارة عن "دجّال" بوصفه فيلسوفاً، لكنه اعترف بأنه "كان رائعاً في المحاكاة بشكلٍ مطلق. لقد أخطأ باختيار مهنته، وكان عليه أن يكون كوميدياً. يستطيع بلهجته النمساوية المضحكة، تقليد أنواع اللهجات كلها، وأساليب الكلام وطرقه". كما أن (رودولف كارناب)، الشخصية الأساسية في حلقة فيينا للفلسفة الوضعية المنطقية في العشرينيات، كان في وقت مبكّر جداً في فيينا، قد تحرر من الوهم المتعلّق بوتغنشتاين بوصفه مفكراً، وقال وهو يضيء من غير قصد على نزعة وتغنشتاين الدينية الخفية: "مواقفه نحو الناس والمشاكل، كانت أقرب إلى مواقف رسول متدين أو عرّاف، منها إلى فيلسوف".

من النادر أن يُعتبَر الفلاسفة رسلاً أو عرافين أو حتى زاهدين. ويستمتع العديد منهم بالحفلات والنبيذ الجيد والمحادثات، وحتى الجنس، بشرط أن يتمكنوا من التحكم بعواطفهم . لكن بعضهم، من نافذي الصبر أمام الضعف البشري، يتحدثون كما لو أنهم على منبر، يلعنون جميع من يتفقون معهم، ويبدؤون بالتشابه مع الرهبان مثل القديس (برنارد من كليرفو) في القرن الثاني عشر، مؤسس نظام سيسترسن الرهباني المتقشف، والمُعارض للزخارف الفخمة للكنائس والأديرة لدرجة اعتبارها جريمة، والمعتاد على النوم على سرير من الحجارة

تحت نافذة مفتوحة، مرتدياً ملابس خشنة فقط. برنارد الذي اضطهد بوحشية، معارضاً فكرياً مثل (بيتر أبيلارد)، احتفظ بغطرسة أتته من خلفية عائلته الأرستقراطية جداً. وكذلك فعل لودفيغ وتغنشتاين بطريقته الخاصة.

اشتهرت عائلة وتغنشتاين، الثلاثة أرباع يهودية بالأصل، والكاثوليكية بالإيمان، بالثروة الهائلة وبالتألق الثقافي المتميز حتى بمعايير فيينا في القرن العشرين — في فيينا ما لا يُعد ولا يُحصى من العباقرة والعُصابيين مثل فرويد وماهلر وشوينبرغ و هوفمانسال، وموسيلو و كلايمت وكوكوشكا. كان والد لودفيغ، كارل وتغنشتاين، رجل أعمال ناجحاً جداً. أنشأ شركة براغ للحديد والأعمال المعدنية، وأسس ما يشبه احتكاراً كاملاً لإنتاج الفولاذ في الإمبراطورية الهنغارية النمساوية، وأصبح بذلك أغنى رجل فيها، وواحداً من أغنى أغنياء العالم. بعد إنشائه لإمبراطورية الأعمال تلك، بضراوة تعلمها في أثناء سنوات عمله في أمريكا، تقاعد كارل. وبتصرّف يدل على بعد نظره الخارق، نقل الجزء الأكبر من ثروة العائلة إلى الخارج، وبشكل أساسي إلى الولايات المتحدة، وذلك قبل موته بمدّة قصيرة في العام 1913. وأثناء الحرب العالمية الأولى، اشترى لودفيغ، أخو كارل، أرضاً بباقي المال الموجود لدى العائلة. ضمنت هذه التدابير نجاة ثروة وتغنشتاين، وبشكل فريد تقريباً، من التضخّم الذي دمّر كامل وسط أوروبا بعد العام 1918، مُفقراً معظم عائلات الطبقة المتوسطة، ومحطماً النظام القديم بشكل مؤثر أكثر من الحرب ذاتها. عندما ورث لودفيغ حصته من الثروة في العام 1913، تم اعتباره واحداً من أكبر الأغنياء الشباب في أوروبا. وفي العام 1920 تم تقدير ثروة آل وتغنشتاين بـ 200 مليون دولار، وتساوي أربعين ضعفاً بحسابات هذه الأيام.

كان منزل وتغنشتاين الرئيس في (إلغاسي) في فيينا هائلاً جداً، منزلاً مؤثثاً بترف بالغ، يسميه الآخرون – لكن ليس أفراد العائلة الحذرون – قصر وتغنشتاين، كانت الغرف مفتوحة إحداها على الأخرى فوق سلم رخامي فخم. قال وتغنشتاين لاحقاً إن القصر يحتوي على سبع آلات بيانو، رغم أن معظم الناس يتذكرون وجود أربع فقط. كان الموسيقي (برامز) زائراً دورياً، وقد عُزِفَت مقطوعة الكلارينيت الخماسية التي ألفها، لأول مرة هناك في العام 1891، كما علّم (هانس)، أكبر الأخوة وتغنشتاين، العزف على الكلارينيت. لم يستطع لودفيغ المنافسة في هذا المجال، حيث تمّ اعتباره لفترة طويلة من الزمن، عالم رياضيات ومهندساً، وعُرِفَ عنه مقدرته على عزف كونشيرتوهات كاملة (عبر التصفير من فَمه)، وسط ذهول المستمعين، وقد أصبح عازف كلارينيت هاوياً. وكان من بين الزوار الموسيقيين أيضاً، غوستاف ماهلر، ريتشارد شتراوس، بابلو كازالس و برونو والتر، وكان مساعداً لقائد أوركسترا في أوبرا فيينا. لقد زار الموسيقيون العظام المنزل كما لو أنهم يدخلون إلى قصر أمير، وكما علّق (برامز) يوماً: "بدا أفراد العائلة كلها، يتصرف أحدهم مع الآخر كما لو أنهم في بلاط".

استمتع كارل وتغنشتاين، في بعض الأحيان بلعب دور المتمرّد ضد البلاط الرسمي في هابسبيرغ، ورعى حركة فيينا الفنية الانفصالية التي يقودها غوستاف كلايمت. في عام 1908، رسم كلايمت لوحة وجهية رائعة لـ مارغريت ستونبورو، أخت لودفيغ بعد أن تزوجت – اللوحة التي فاجأت مارغريت بدلاً من أن تسعدها والتي أخفتها بسرعة في مخزنها. امتلكت العائلة العديد من المنازل الأخرى في فيينا، بالإضافة إلى إن مساحات هائلة من الأراضي في الريف، ومنزلاً ريفياً في هوشريث، التي تبعد عن فيينا

مسافة تقدر بساعة في السيارة. آل وتغنشتاين، العالميون جداً بمظهرهم، والأنداد لعائلات صناعية كبرى مثل عائلة كارنجي أو عائلة كروبس — والأغنى بكثير من العديد من النبلاء النمساويين على الرغم من عدم وجود لقب لهم — أبقوا على الكثير من الأسرار ضمن العائلة. لكن يكمن تحت الأدب الذي لا تشوبه شائبة، غطرسة هائلة.

كان لهذا الثراء العائلي والذكاء المذهل ثمن كبير. كان الأب كارل، القوي قاهر الجميع، يهيمن على المنزل أيضاً ويتنمّر على أبنائه الخمسة في بعض الأحيان. كان لودفيغ، هو الأصغر بين هؤلاء الأبناء، وكان المدلل لدى العائلة التي تعشقه، وقد أدرك تدريجياً أنه الأكثر تألقاً بين تلك الفراخ الرائعة. ربما أراد الأب من أبنائه أن يتبعوه في اختصاص الهندسة والأعمال، لكن كان لكل منهم أفكاره المختلفة جداً. كان كبيرهم هانس، معجزة موسيقية، يعزف أمام الناس وسط هتاف عظيم وهو في عمر الثانية عشرة، ويتذكر لودفيغ أخاه وهو يتمرّن وحده إلى ما لا نهاية في قصر العائلة في ساعات الفجر الأولى، مصمماً بشكل كامل على أن يصبح موسيقياً محترفاً. لكن كان على هانس أن يدخل عالم الأعمال، تحت ضغط الوالد. أقدم هانس المتوتر جداً، وغير القادر على التأقلم مع متطلبات التجارة، على الانتحار في عمر السادسة والعشرين في العام 1902، بالقفز من باخرة. وبعدها بسنتين أيضاً، أقدم رودولف، الأخ الثاني على قتل نفسه. وفي يوم انتهاء الحرب العالمية الأولى، قام كورت، الأخ الثالث، بقتل نفسه، والسبب كما هو معروف، لأن جنوده لم يتبعوه في المعركة.

كان الانتحار غالباً في مقدمة تفكير وتغنشتاين، نابعاً جزئياً من غضبه على حالته الجنسية. ومثل أخويه اللامعين اللذين انتحرا— كان كورت الأخ المسترخي نسبياً، غير معذب بذكاء

استثنائي — كان وتغنشتاين مثلياً في الوقت الذي لم يكن فيه هذا خياراً مقبولاً. وبشكل واضح، لم يجد السعادة في هذا الفسق، لأن يومياته كانت تحتوي تصميما متكررا لتجنّب ذلك، وفشلا متكررا. من الممكن أن تكون طبيعته الحساسة، تميل إلى النكوص من أي اتصال جنسي، حتى عندما يكون منقادا له بشكل لا يُقاوم، لكنه احتفظ أيضا ببقايا قوية من الذنب المسيحي التقليدي. كان معمّدا كاثوليكياً مثل باقي أفراد عائلته— لتجنّب معاداة الساميّة المتنامية في ذلك الوقت — لم يحرر نفسه أبداً من المواقف السلبية الكاثوليكية المتعلقة بالجنس خارج الزواج. لكن الأمر الهام، أنه لم يتنصّل بصراحة، ولم يهاجم الكنيسة الكاثوليكية. (في العام 1919، قابله راسل في هاغو بعد سنوات الحرب الخمس، ووجد "أنه قد أصبح (صوفيا) بالكامل.... وهو يفكّر جدياً بأن يصبح راهباً"، وهذا ما أسّس للقطيعة بين الرجلين. كما أن وتغنشتاين، لم يحب مقدمة راسل التي كتبها بسرعة بعد صدور النسخة الإنكليزية من كتاب الأطروحة، معتقداً، وليس بدون سبب، أن راسل لم يستطع أن يفهمه).

على أية حال، لم يؤلّف أهمّ كتاب بالنسبة لوتغنشتاين الشاب، شخص كاثوليكي، بل ألّفه شابٌّ أصبح سيء السمعة في مطلع القرن في فيينا بعد أن انتحر في العام 1903: إنه أوتو فينينغر. كتب فينينغر كتاباً واحدا فقط، وكان عنوانه "الجنس والشخصية"[1]. تبدو قراءة كتاب كهذا الآن غريبة جداً، لكن في

[1] الجنس والشخصية: اسم الكتاب باللغة الإنكليزية (sex and character) كتاب مثير للجدل، تم نشره للمرة الأولى في فيينا في العام 1903، وكان مثالاً ساطعاً على الخطابات المتضاربة الأساسية في تلك الفترة من الزمن: معاداة السامية والعنصرية وكراهية النساء، وتفسير حياة الإنسان من وجهة نظر بيولوجية، أزمة الرجولة، الحركة النسائية وفكرة تحرر الإنسان. المترجم.

ذلك الوقت، كان يُعتبر بالنسبة للكثيرين، بمن فيهم أوسوالد سبينكلرٍ مؤلف كتاب "انحدار الغرب"، أنه يحمل بصيرة عميقة روحانياً وثقافياً وجنسياً. يفوح الكتاب برائحة كراهية النساء ومعاداة السامية، ومن المفترض أن يكون كلا الأمرين مبررين في معتقد فينينغر، المستمد بشكل ملتو من نظريات أفلاطون، والتي تقول إن البشر جميعهم، هم بشًكل أساسي ثنائيو العلاقات الجنسية أو مخنّثون. يجب تشجيع العنصر الذكري فقط لأنه متفوّق على الأنثى بالكامل. لا تستطيع المرأة الوصول أبداً إلى شيء إيجابي، أكثر من كونها أماً (و/أو) عاهرة، كما أن السُحاقيات مفضّلات على النساء غيريات الجنس، لكونهنّ ذكوريات، أما تصنيف الرجل المثلي اليهودي، فهو الأكثر احتقاراً بين الذكورٍ. كان فينينغر ذاته يهودياً ومثلياً، الأمر الذي يفسّر انتحاره وجزءاً من جاذبيته لوتغنشتاين. لكن لودفيغ الشاب كان أكثر انبهاراً بسبب رفض فينينغر للحب الجنسي – خاصة ذلك الذي بين الرجال والنساء – لأنه إلهاء عن حبّ الروح السماوية في "**الله الذي يسكن صدري**". الشيء الوحيد الذي يستحقّ الحياة هو أن تصبح عبقرياً، وما الانتحار سوى البديل المشرّف عنه. صنّف وتغنشتاين لاحقاً فينينغر، مثلما صنّف راسل، وغوتلوب فريغ وشوبنهاورٍ، على أنه واحد من المؤثرين الأساسيين في حياته. ولم يكن تأثيراً إيجابياً على المراهق المعذّب.

بعد فشل كارل وتغنشتاين، بجعل أحد أولاده الكبار، يصبح مهندساً، صمم على أن يكون لودفيغ على الأقل، من يتولى الأعمال. وبناء عليه، أرسل وتغنشتاين لدراسة الهندسة، في برلين أولاً ومن ثم في مانشستر في العام 1908، حيث كانت حينها مركز التميّز الهندسي. كان لودفيغ وبشكل واضح، قد ورث بعض جينات والده الهندسية، وتبين أنه طالب هندسة

ذكي لكنه مزاجي، وقد قام بعمل مهمّ على محركات الدفع الهوائية التي وضعت الأساس للمحرّك النفاث. لكنه وجد نفسه مهتماً جداً بالفلسفة أكثر من الرياضيات، واكتشف في مانشستر كتاب "مبادئ الرياضيات" الذي ألّفه بيرتراند راسل، والذي سعى لإظهار أن الرياضيات كانت تستند إلى المنطق بشكل أساسي. وكنتيجة نهائية، وبعد اقتراح من المنطقي الألماني العظيم، فريغ، قرر في خريف عام 1911، دراسة الفلسفة في كامبريدج، تحت إشراف راسل.

فاقم قراره بالتحول نحو الفلسفة، غير المفيد لأعمال العائلة، الصراع الموجود أساساً مع والده، كما زاد من عُصابه الموجود سلفاً بشكل واضح. سأل راسل وتغنشتاين يوماً، عندما رآه يدور مسرعاً حول غرفة راسل لمدة ساعات وهو يتمتم في نفسه: "هل تفكر بالمنطق أم بخطاياك؟" وأجابه بصراحة نموذجية: "كلاهما". عندها أصبح راسل قلقاً، من كون أكثر طلابه تألّقاً، والذي رأى فيه خليفة له، والذي اعتبره لفترة كابن له، يتجه نحو الجنون. كتب راسل في كانون الثاني من العام 1921: "وتغنشتاين على حافة انهيار عصبي، وليس بعيداً عن الانتحار"، مضيفاً لاحقاً أن النمساوي يفتقر إلى "الفضول الواسع بما فيه الكفاية، أو الرغبة الكافية من أجل دراسة موسعة للعالم. لن يفسد هذا عمله بالمنطق، لكنه يجعله دائماً اختصاصياً ضيّق الأفق". في الواقع، صرف وتغنشتاين نفسه إلى كوخ في النرويج ليمضي شتاء العام 1913 – 1914 وحده، يفكر بطريقة هوسية، لكنه كتب القليل جداً.

أتت تعليقات راسل في رسالة إلى أوتولاين موريل، عشيقته الأكثر تحرراً. وقد قامت أوتولاين جزئياً بأنسنة الفيلسوف القاحل، الذي تحمل العديد من سنوات العزوبية التعيسة قبل بدء علاقتهما، كما ساعدته في تقدير ما هو أكثر بكثير من

الحياة، بما في ذلك الفن والموسيقى، والأكثر من هذا كله، العيش المشترك الإنساني. ولئن كان قد كشف في رسائله لأوتولاين، عن دفء نادر في حياته العاطفية الجليدية، فإنها لم تشعر برهبة الوقار معه، كما أن إعجابها بعقله قد سار متوازياً مع تحفظات أخرى، ولأنها كانت نصف أخت لدوق، فقد كانت توازيه في سويته الاجتماعية. لم يستطع وتغنشتاين إيجاد أي شخص يشابهه نسبياً من الناحية الفكرية أو الاجتماعية. قبل العام 1914، كان منجذباً بقوة إلى الطالب الإنكليزي جداً، المرح من أبناء الطبقة المتوسطة، المدعو دافيد بينسينت، وقد دعاه معه إلى إيسلندا في العام 1912 بأعظم فخامة مُتاحة في تلك الأيام. لكن بينسينت، الذي ربما لم يخمّن مشاعر صديقه الحقيقية نحوه، ولم يرد عليها بالمثل بالتأكيد، توفي في العام 1918 في حادث طائرة. وقد كثّف خبر وفاته ميول وتغنشتاين الانتحارية، وتم إهداء كتاب "الأطروحة" إلى بينسينت.

أعطى اندلاع الحرب العالمية في العام 1914، وتغنشتاين منفذاً لرغبة الموت. لقد تطوّع بسرعة في الجيش، على الرغم من وضعه الصحيّ الذي يمكّنه من الحصول على إعفاء من الخدمة (كان لديه فتق مزدوج). وفي العام 1920، أخبر مارتن شيرليتنر، زميله الأستاذ، أنه تطوع على أمل أن يحميه الموت في المعركة من فكرة الانتحار. لقد حارب بشجاعة كبيرة، على الجبهة البولندية أولاً، ومن ثم على الجبهة الإيطالية، وكان من المرشحين لنيل الأوسمة عدة مرات، كما احتقر سلميّة راسل عندما سمع بها. لكن، مثل العديد من الذين تمت محاصرتهم في الصراع دون رغبة منهم، افتقر إلى كل رغبة بالمجد العسكري. وبدلاً من ذلك، قرأ وأعاد قراءة كتاب تولستوي "خلاصة الأناجيل"،

وأصبح مشبعاً بعمق إنكاره للجسد. كتب تولستوي: "الإنسان ضعيف في الجسد لكنه حر بسبب روحه". وقد تقبّل وتغنشتاين استنتاجات الروائي الروسي المترددة، بأن الجنس كله متعارض مع الحياة الروحية، وبدت بالنسبة له تأكيداً لتعاليم فينينغر. لقد أصبحت مفكراته منذ سنوات الحرب مليئة بالصلوات أو بأفكار تميل نحو التدين المسيحي العميق. كما درس بعزم، مؤلفات شوبنهاور، واستوعب أعماله تماماً في ذلك الوقت، بحيث تكاد السطور الأولى في كتابه "الأطروحة"، أن تكون تكراراً لتلك الموجودة بكتاب "العالم كإرادة وتصور"، تحفة شوبنهاور الكئيبة.

بعد فترة من الأسر في إيطاليا، أنهى خلالها "الأطروحة"، عاد إلى بيته في فيينا في آب من عام 1919 أكثر إحباطاً من أي وقت مضى. وهناك أدهش عائلته بقرارين: الأول، رغبته بأن يصبح مدرساً، ليس في الجامعة بل في مدرسة ابتدائية. انتقل في العام 1920 إلى تراتنباخ، وهي قرية جبلية فقيرة وبشعة، وذلك ليهرب من العالم. ربما كان هذا الهرب إلى الجبال أو البرّية، والمتكرر في حياة وتغنشتاين كلها، هروباً بشكل جزئي من إغواءات فيينا الجنسية. وبحسب أقوال الفيلسوف الأمريكي وليام وارن بارتلي الثالث، الذي قابل بعض الناس في فيينا في الستينات، فقد بدأ وتغنشتاين، في أثناء حضوره في كلية تدريب المعلمين في ذلك الحين، بالانغماس بميول نحو تجارة الجنس[1] الممكن إيجادها في براتر، أكبر منتزهات فيينا. وقال عنه: "يكمن رعبه في أنه لا يستطيع الابتعاد عن ذلك، يخرج عدة أيام في الأسبوع، ويذهب إلى براتر بهدف إيجاد علاقات سريعة تتركه

---

[1] تجارة الجنس: التعبير الإنكليزي هو (rough trade)، ويعني بشكل حرفي، عرض يقدمه رجال من الطبقات العليا، من أصحاب النفوذ أو الأثرياء، لرجال من الطبقات الدنيا أو الفقراء، للقيام بخدمات جنسية مدفوعة الأجر في بعض الأحيان. المترجم.

مهتاجاً بكراهيته لذاته". هذا ما قاله بارتلي، لكن لايزال الجدال قائماً حول ادعاءاته.

أياً كانت صحّة هذه الادعاءت، فإن راي مونك العظيم، مؤلف السيرة الذاتية لوتغنشتاين، يترك القضية مفتوحة بينما يؤكد على أن الفيلسوف كان مثلياً، كان وتغنشتاين مضطرباً بالتأكيد. وفي رسالة إلى صديقه بول أنجلمان في نيسانٍ من العام 1920، يعبّر وتغنشتاين عن اشمئزازه من نفسه قائلاً: "**أصبحت الأمور تعيسة بالمطلقِ في الآونةِ الأخيرة...... فقط بسبب خساستي وتعفّني. لقد فكرت دائما بإنهاء حياتي، ولا تزال تلك الفكرة تراودني الآن. لقد غرقت حتى القاع**". وبشكل جزئي، وليحرم نفسه من الاستسلام للإغواء، طالب قبل هروبه من أوكار الجسد في العاصمة، بأن تُعطى حصته الهائلة من الثروة إلى أشقائه الناجين، وكان هذا قراره الثاني والأعظم.

يذكرنا هذا التخلّي الدرامي عن الثروات الدنيوية، بتخلي القديس فرنسيس أو بوذا عن الثروة الدنيوية قبل البدء بالسعي خلف الروح. لقد أصبح الفيلسوف الذي كان سعيداً في البداية، بالإقامة في الفنادق الضخمة، زاهداً مشهوراً. سيكون لاحقاً في غرفة في كامبريدج، فقط بعض الكراسي القماشية وبعض الطاولات، (ليست مفروشات الكليّة البالية المريحة الاعتيادية). وكما قيل لاحقاً في نعيه في صحيفة التايمز، "أظهر وتغنشتاين خصائص التأمل الديني للناسك". لكن الناسك احتفظ باطمئنان شخص من سلالة أغنياء أوروبا، إذ بقيت أخواته وأخوه الناجي الوحيد بول، على استعداد لتقديم المساعدة المالية عند الحاجة. لم يكن ابن أخيه توماس بيرنهارد معجباً بهذا التخلي عن الثروة، وقد علّق لاحقاً: "ملياردير يعمل معلماً في قرية، هو بالتأكيد شخص منحرف أو أحمق".

كان الانحراف هو الدور الذي لعبه وتغنشتاين بعزم نموذجي. وبعد أربعين سنة، اكتشف بارتلي أن العديد من القرويين في تراتنباخ والقرى المجاورة، لايزالون يتذكرون أستاذ المدرسة الغريب الأطوار، بمشاعر مختلطة من الرهبة والحيرة والمودّة. كانت سنوات ما بعد الحرب، السنوات الأكثر مشقة على معظم الناس في النمسا، التي قام وتغنشتاين بما في وسعه من أجل تحسينها، على الرغم من أن مشقة كهذه عنت القليل له بشكل شخصي. وقد تسلّق في إحدى المرات مساراً جبلياً عبر الثلوج الكثيفة ليجلب الموز لتلاميذه، حيث كان هذا ترفاً نادرا في ذلك الوقت. وكان الترف شيئاً ينكره على نفسه، ويعيش معظم الأوقات على الكاكاو. وفي مرة أخرى، وبحسب أقوال جورج بيرغرٍ، أحد تلاميذه، دخل مطبخ المدرسة الصغير وصنع سريرا لنفسه، وجلس يحدّق لساعات في النجوم من خلال النافذة. وكانت مواهبه الهندسية تظهر بشكل مفيد عندما يتعطّل محرك بخاري في معمل محلي، ويقوم بإصلاحه تحت أنظار القرويين المندهشين.

كانت وسائله التعليمية غير تقليدية. كان يبدأ الدروس يومياً بساعتين من الرياضيات القاسية بما فيها الجبر، هذا الموضوع الذي لم يكن متوقعاً من تلاميذ مدرسة ابتدائية أن يتعلموه. أما بالنسبة للتلاميذ الأذكياء، فقد كانت شمس رضاه عليهم تدفئ يومهم الدراسي، والدليل على ذلك، بقاء بعض الأطفال سعداء في الصف، بعد انتهاء اليوم الدراسي، لأن وتغنشتاين يستمرّ بالتعليم. تُظهرُ بعض الصور العمّ المبتهج ينحني فوق كتاكيته الصغار. كانت القضَية صعبة بالنسبة لأولئك غير البارعين رياضياً، لأن من الممكن أن يسببوا له نوبة غضب مفاجئة أو عنفاً مفاجئاً. تتذكره إحدى الفتيات، وقد أخفقت محاولات فهمها، وهو يسحبها من شعرها

بعنف، لدرجة اقتلاع خصلات منه، وفتاة أخرى كانت قد ضُربت بقوة لدرجة نزفت فيها من خلف أذنيها. لم يكن القرويون النمَساويون في ذلك الوقت، معترضين على العقاب البدني لأطفالهم الجامحين، لكن هذا لم يكن مقبولاً بالنسبة للفتيات، اللواتي لم يكن يتوقع منهنّ بأي شكل كان أن يفهمن الرياضيات. كما أن السلطة باستخدام العقاب الجسدي لها حدودها، وقد انتهكها وتغنشتاين بغضب نافد الصبر.

انتهت أيام عمله كمدرّس بشكل مفاجئ ومخز في نيسان من العام 1926. كان قد صرخ بطفل مريض بشكل عَنيف لدرجة أن الطفل ذو الأحد عشر عاماً، انهار واحتاج إلى نقله إلى الطبيب. وقد أصيب وتغنشتاين بعد ذلك بالذعر وهرب من القرية. وفي جلسة التحقيق اللاحقة، كذب بشأن درجة العنف التي استخدمها. (رؤية وتغنشتاين يحصل على متعة جنسية من ضرب الطفل هي أمر خاطئ بالمطلق، لأنه لم يكن سادياً). لم تقع على هذا الأستاذ الغاضب أية مسؤولية. ربما لا أحد يستطيع مقارنة هذه النتيجة مع الندم الذي شعر به وتغنشتاين نفسه بسبب فشله المزدوج: فشل التحكم بمزاجه، وما هو أكثر أهمية من ذلك بالنسبة لرجل صادق بالمطلق، فشله بقول الحقيقة.

ومع انتهاء فترة التعليم، ينتظر وتغنشتاين جمهورٌ من الراشدين: (الحلقة المنطقية الفلسفية في فيينا)، التي اعتبرت كتاب "الأطروحة" لوحاً مقدساً، وكان أعضاؤها يتوقون للحضور المهيب لقائدهم الذي أنكرهم لفترة طويلة، وقد خاب أملهم في البداية. بعودته إلى فيينا مصدوماً بعمق، عاد للعمل بستانياً في دير هوتيلدورف قرب فيينا، وكان يفكر لفترة بالالتحاق بالرهبان. لم يقبله رئيس الدير على أية حال، لشكوكه بأن دوافعه ربما لا تكون دينية. عندها أصبح منشغلاً بتصميم بيت لأخته مارغريت،

على الرغم من أن المهندس المعماري الحقيقي كان باول إنجلمان، تلميذ أدولف لوز العظيم. لقد تبين أن وتغنشتاين مصممُ مفرط الحساسية، أصرّ على تحريك الشعات للمترات قليلة، إذ رأى أن موقعها غير مناسب، كما رفع السقف في غرفة واحدة بمقدار ثلاثة ملمترات في اللحظة الأخيرة. كان الشكل الإجمالي عبارة عن شكل مربع خال من أي زينة، وقد حقق فكرتهٍ عن "روعة معينة" لكنه بدا لكثير من معجبي (بوهوس) متقشفاً بشكل بارد، ويذكّر تصميمه بكتابه "الأطروحة" بطريقة ما.

كُتِبَت "أطروحة" وتغنشتاين، بطريقة مقتضبة ملغّزة، متضمنة في سبع وخمسين صفحة فقط، وتغطي مواضيع الرياضيات والمنطق، الحقائق المنطقية، الميتافيزيقية، التصوير أو التمثيل، نظرية الأنا (الأنوية) والتصوّف. تبدأ عباراته المرقمة ببساطة، لكن تتبع كل عبارة، عبارات فرعية مرقمة تحت الرقم الأول:

1. العالم هو كل ما يشكّل الحالة.

1.1. العالم هو مجموع الحقائق، وليس مجموع الأشياء.

11.1. العالم يتحدد بالحقائق، أي الحقائق كلها.

12.1. لأن مجموع الحقائق، يحدد الحالة وما هو غير الحالة.

إنها تستمر مع النقاط المرقمة الرئيسة، وكل واحد منها يمتد ويتدعم بنقاط فرعية:

2. ما هي الحالة، الحقيقة، هي وجود الحقائق الذريّة.

3. الصورة المنطقية للحقائق هي الفكرة.

والكتاب كله يستمر بهذه الطريقة، ببساطة خادعة ودقّة منطقية والغريب أنه ينتهي بملاحظة مختلفة تماماً:

"أي شيء لا يستطيع الإنسان قوله، يوجب عليه أن يبقى صامتاً".

علم كليّ مقتضب كهذا، يعمّم مذهب الذرية المنطقية التي كان رائدها راسلٍ وفريغ، بتأثير مذهل، وقد تبين أنه ذو تأثير واسع في فيينا أولاً، ومن ثمٍ عبر العالم الناطق بالإنكليزية، لأنه بدا وكأنه يقدم حلاً كاملاً مقتضباً لكل المشاكلِ الفلسفية. لقد أعلن وتغنشتاين في النهاية وبدون أي تواضع قائلاً: **"وبناء عليه، أنا أرى أن المشاكل المحتواة في كل الأمور الجوهرية قد حُلّت"**. إن ما تجاهله الفلاسفة الوضعيون المنطقيون في كل مكان تقريباً، هو أن الاقتراح الأخير، ترك وجهة نظر صوفية مفتوحة - بدلاً من استبعادها - بتناقض غريب مع الاقتراحات الأولى.

عندما التحق وتغنشتاين أخيراً بمناقشات الحلقة الفلسفية في فيينا في صيف العام 1927، لم يكن لديه صبر على معظمهم، وهذا نابع بشكل جزئي من عجرفته — وجد أفراد المجموعة سوقيين ويلبسون بشكل سيئ. جذبه فقط "المثقف" موريتز شليك، الذي قتله تلميذ نازي في العام 1936، (حتى شليك، اتهمه وتغنشتاين بانتحال أفكاره، الاتهام الذي كرره ضد الكثيرين ممن تواصل معهم). والأهم من ذلك أن تفكيره الذي لم يهمد بشكل كامل في سنوات تدريسه، على الرغم من أنه لم يكتب شيئاً في الواقع، كان يتطوّر بطرق لا يستطيع التعبير عنها بشكل سهل. كان قد بدأ سلفاً **بالابتعاد** عن نظرية اللغة كصورة، والتي أبهرت حلقة فيينا، **والتوجّه نحو** تقدير الوظيفة الإبداعية للغة، وللعديد من الطرق التي يمكن استخدامها بها. ومن حينها فصاعداً، أصبحت اللغة تُفهم عبر المراقبة بدلاً من التحليل وبافتراضه أنه حلّ جميع المشاكل الفلسفية في محاولته الأولى، أدرك أن هناك المزيد من التفكير، الذي عليه القيام به. وبحسب توصيف راندولف كارنيب له: "لا يحتمل أي اختبار نقدي من الآخرين،

ما إن يحصل على البصيرة بفعل الإلهام.... فإن الانطباع الذي يتركه لدينا، هو كما لو أن البصيرة وصلته من خلال وحي سماوي". ولأنه لم يجد سكان فيينا مستمعين ملهمين، بدأ وتغنشتاين بقراءة أشعار البنغالي رابندرانات طاغور، وهو يجلس قبالة الجدار، وكان أتباعه المفترضون مرتبكين. لكن في العام 1929 أعادته جامعة كامبريدج إليها.

في كامبريدج، استطاع بسهولة أن يؤثر بممتحنيه، مور وراسل، وقد وصف مور "الأطروحة" بأنها عمل شخص عبقري. كان راسل، الذي لا يحب وتغنشتاين، أكثر التباساً الآن. ومع حصوله على شهادة الدكتوراه، حصل على منحة محاضر في ترينيتي، وسرعان ما توفرت لديه حلقة من الأتباع المخلصين. لكنه صنع أعداءً له بسرعة أيضاً، ليس بسبب أفكاره، بل بسبب الطريقة السلطوية الكاملة التي أعلنها بها. كان جوليان بيل، ابن فانيسا وكليف بيل، وعشيق مؤرخ الفن الشهير (ولاحقاً الخائن سيئ السمعة) أنتوني بلانت، كان طالباً في ذلك الوقت. كان بيل شبيهاً بالفيلسوف النمساوي بكونه مثلياً وشيوعياً، وقد مات دفاعاً عن الجمهورية في الحرب الأهلية الإسبانية. وكتب في العام 1933، قصيدة في مجلة فينتور، معبراً فيها عن مشاعره نحو وتغنشتاين:

في كل صُحبة يصرخ بنا لنسكت

ويوقف عباراتنا، متأتئاً بعباراته،

جدالات متواصلة، قساوة وغضب وصوت عالٍ

متأكد من أنه على حق، وفخور بهذا ......

الذي تعليمه ومنطقه وتحليله، شاسع جداً

يفيض بالإسراف الميتافيزيقي ...

أنا أشفق على لودفيغ لكني لا أتفق معه،
يمكن للجميع رؤية سبب آرائه،
في حياة التنسك، عازم على تجنّب كل المتع
العادية المعروفة لكل شخص.

لقد أصاب بيل في البيتين الأخيرين كعب أخيل لدى وتغنشتاين: تعصّبه، تظاهره بأنه "يصرخ لإسكات" المعارضين له حرفياً، وهذا الزهد شبه الرهباني الذي فصله عن العلاقات العادية داخل الكلية أو خارجها. (كان وتغنشتاين يرفض تناول العشاء في (هاي تيبل)، الجزء الاعتيادي من الحياة الأكاديمية، والسبب الأول، لأنه يتوجب عليه ارتداء ربطة العنق، والثاني، بسبب نفوره من مناقشة أي شيء فكريٍ مع أقرانه الأكاديميين). كان لديه الجانب الأقل توتراً — كان يستمتع بالروايات البوليسية وحتى بي. جي. وودهاوس، لكن عشقه الأساسي كان للروايات الأمريكية البوليسية، بأبطالها الذين يتحدثون بكلام قاس، وروايات العصابات المصورة الأمريكية، التي اعتاد تلميذه المفضّل الفيلسوف الأمريكي نورمان مالكون، أن يرسلها له. وأحب أيضاً الذهاب إلى السينما بعد يوم يمضيه في التعليم، ومفضلاً مرة أخرى الأفلام الأمريكية العنيفة على البريطانية الألطف منها، جالساً في الصف الأول، وكما يتذكر مالكوم: "بحيث تحتل الشاشة حقل رؤيته بالكامل، وكان عقله يبتعد عن أفكار المحاضرات ومشاعر الاشمئزاز". كان يستمتع أيضاً بإرسال بطاقات بريدية "تافهة" لأصدقائه، يُظهر بعضها استمتاعاً سريالياً بسخافات السلوك الإنساني.

في الثلاثينات كان لديه أعظم علاقة في حياته، مع فرنسيس سكينر، الطالب اللامع في قسم الرياضيات، والذي يصغره باثنين

وعشرين عاماً، وهو خجول، صامت، متواضع ولطيف — جميعها صفات سلبية، أحبها وتغنشتاين في تلميذ — أصبح سكينر مخلصاً بهوس لمعلمه، وكان سعيداً بالعمل معه في كامبردج. لقد اعتاد حتى أن يمسح أرضيات غرفة وتغنشتاين بعد أن يسكب الشاي فوقها — كان أسلوباً معتمداً لتنظيف الأرض — متّبعاً تعليمات حبيبه الدقيقة. كان مستعداً لمرافقة وتغنشتاين بصفة عامل يدوي إلى الاتحاد السوفياتي، الذي زاره النمساوي في العام 1935، آملاً بالاستقرار هناك بشكل دائم. (في الواقع، كان سكينر مريضاً جداً للقيام برحلة من هذا النوع). إن معتقدات وتغنشتاين السياسية — بأن الاتحاد السوفياتي كان في طريقه نحو اليوتوبيا — كانت شائعة في ذلك الحين. وبدا وكأن السوفييت، صنّفوه من بين "الأغبياء المفيدين"، وهي المقولة السوفياتية المدمّرة لتوصيف المخدوعين ذاتياً من أمثال ويبس وبرناردشو، اللذين تجاهلا الرعب العظيم، عندما قتل ستالين عشرات الملايين من أبناء بلده. لكن وتغنشتاين أظهر اهتماماً فعلياً قليلاً بالشيوعية السوفياتية. وكان ما جذبه، فكرة روسيا شبه المسيحية والزاهدة ذاتياً، حيث يعمل المثقفون بجهد وقناعة بأيديهم. لاحقاً، كتبت فينا باسكال، العضو بالحزب الشيوعي، والتي علّمته بعضاً من اللغة الروسية: "برأيي، إن مشاعره نحو روسيا في جميع الأوقات، لها علاقة بتعاليم تولستوي الأخلاقية، والنظرة الروحانية لدستوفسكي، أكثر مما لها علاقة بالسياسة أو قضايا المجتمع". وكان نيتشه قد أدرك هذه الأعراض. وعلى أية حال، لم تؤدِّ زيارة وتغنشتاين لروسيا إلى أي شيء.

لكن في العام 1937، سُمِح لسكينر بزيارة الفيلسوف في كوخه الجبلي الذي يصعب الوصول إليه في النرويج، وهناك سجّل وتغنشتاين أنه "نام معه مرتين أو ثلاث مرات. دائماً في البداية،

مع مشاعر تقوم على أنه ليس هناك من شيء خاطئ في ذلك، وبعدها بخجل. كما كان ظالماً ومنفعلاً، وغير صادق نحوه، وقاسياً أيضاً". ويبدو هذا وكأنه يلخص كل علاقتهما الجسدية. وبعدها ارتدّ وتغنشتاين ببرود أو ربما باشمئزاز عن شخص أحبه بدون تمحيص، وتخلّى له عن مهنته الأكاديمية.

في العام 1936، اقتنع سكينر من خلال معبوده أنه ليس ناجحاً كمفكر — النظرة التي شاركه فيها آخرون — وتخلى عن الحياة الجامعية ليصبح مبتدئاً في شركة كامبردج للأجهزة الدقيقة، وهذا يعني قضاء حياته على أرض المعمل. عندما مات سكينر في العام 1941 بسبب شلل الأطفال، لام وتغنشتاين نفسه، ليس على تحطيم مهنة حبيبه السابقة، بل بسبب وجود مشاعر "غير صافية" نحوه. لقد أقنع وتغنشتاين طلاباً آخرين مخلصين موهوبين مثل موريس دروري، بالتخلي عن الأكاديمية من أجل عمل يدوي لا يُظهر أيٌ منهم براعة فيه. كما حث واحداً من ألمع طلابه، يوريكَ سمايسز، على العمل بيديه، على الرغم من أن سمايسز كان معروفاً بأنه غير كفء يدوياً ويتجه نحو حالة فصامية. هكذا يبدو وتغنشتاين وكأنه أفرغ تناقضاته الخاصة حول الحياة الفكرية على أتباعه البارزين، وغالباً ما كانت النتائج كارثية.

على الرغم من حثه الطلاب على ترك الجامعة، فقد استمر هو بالتعليم في كامبريدج حتى بداية الحرب في العام 1939. وبحسب عائلته، التي كان يزورها كل عيد ميلاد في فيينا حتى عملية ضم ألمانيا للنمسا في العام 1938، كان وتغنشتاين لا يزال غنياً بشكل هائل ولم يستطع البقاء أكاديمياً، بسبب الراتب الهزيل فقط. إن شراكة العقول المتساوية (تقريباً)، وإمكانية إيجاد تلاميذ طيّعين شباب، كانا الجاذب الرئيس في كامبريدج. لقد كان

المكان الوحيد الذي بدأ فيه إيجاد هذه الأمور قبل العام 1914. وخلال فترته الثانية في كامبريدج، طوّر وتغنشتاين نهجاً لفلسفة راديكالية مختلفة عن تلك الموجودة في "الأطروحة" ومختلفة ضمنياً عن معظم أفكار التيار الغربي، منذ ديكارت على الأقل. إن منهجه في اللغة، المتمثل بالمتطلبات التي يجب أن يراها المرء بدلاً من تلك التي يفكر بها، كان دراسة اللغة في سياق استخدامها، بدلاً من محاولة قياسها مع بعض المعايير القياسية، أو جعلها تتناسب مع فكرة مسبقة لوظيفتها.

عندما نُشر كتاب "تحقيقات فلسفية" أخيراً في العام 1953، فإن المرحلة الثانية من عمله قد تركت تأثيراً هائلاً على الفلسفة في سنوات ما بعد الحرب. لم تعد اللغة عبارة عن دلالات خارجية، بل مجالاً واسعاً من "أشكال الحياة المختلفة". ولئن كان العالم هو "ما يشكّل الحالة" كما هو وارد في كتاب "الأطروحة"، ففي كتاب "التحقيقات الفلسفية"، تحدد اللغة عالماً أغنى وأكثر تبايناً مما كان يُعتقد سابقاً. (اللغة كما هي) تعني ما تقوم به، وما لا يتم تقييمه بالرجوع إلى وظيفة الصورة الضيقة، المنسوبة له في العمل السابق. والعالم أيضاً هو كما هو، وليس هناك من نظرية عامة تستطيع شرح المجال الكليّ لتعقيدات الحياة. يعتقد وتغنشتاين الآن، أن الفلسفة ليست علماً دقيقاً من أي نوع، ولا تستطيع تفسير العالم، بل يمكنها فقط أن تصفه أو توضّحه.

وهو يرى الآن اللغة تشبه اللعبة بعدة طرق، ولتوضيح وجهة نظره، استخدم العديد من الاستعارات والأمثلة والقياسات. كانت قياساته شائعة بشكل متعمّد. "فكّر بأداة موجودة في صندوق الأدوات، هناك مطرقة، كمّاشة، منشار، مفك البراغي، مسطرة، وعاء الغراء، مسامير وبراغٍ. إن وظائف الكلمات متنوعة مثل وظائف هذه الأدوات". كما استخدم توضيحات طفولية مثل "البطة

الأرنب"[1]، توضيح بصري، مظهراً أن ما نراه يتعلق بما نتوقّع أن نراه. إن الميزة الأساسية لهذا المنهج، والشيء الذي هيمن على الفلسفة الغربية لمدة عقدين بعد وفاته، كان أنه لم يقدّم نظرية عامة لتفسير العالم، لكنه رأى وظيفة الفلسفة كواحدة من التوضيحات، واصفاً أو موضحاً استخدامنا للغة. الفلسفة تراقب، لكنها لا تفسر– استنتاج لا يُحتمل للعديد من الفلاسفة. وبينما كان وتنغشتاين يقوّض الفلسفة الغربية بشكل أساسي، خلق على الأغلب، جمالاً مذهلاً وأقوالاً مأثورة مضيئة – مزيج يذكرنا بنيتشه، لكن على طريقته هو.

على أية حال، هذا الكلام اللاحق الخفي – "ليس كيف هو العالم، هو اللغز، لكن هكذا هو"، "إن كان بإمكان الأسد أن يتكلم، فلن نستطيع أن نفهمه" – لم يعجب زملاء الكلية السابقين مثل راسل. وحول هذا الكلام اللاحق، قال راسل: "عقائدها الإيجابية تبدو لي تافهة وعقائدها السلبية لاأساس لها". إن البروفسور سي. بي. برود، بروفسور نايتس بريدج للفلسفة الأخلاقية في الثلاثينيات، غيّب نفسه بوضوح عن كل مناقشات اجتماعات جماعة نادي العلم الأخلاقي (Moral Science Club)، التي هيمن عليها وتغنشتاين. لم يستطع برود تحمّل الطريقة التي "كان فيها وتغنشتاين يتحدث بدقة عن أفكاره، وبالدقة نفسها كان المخلصون له (بوجوه حمقاء مذهولة)". لكن حتى برود، يوافق على أن "رفض وتغنشتاين (لموقع الفلسفة) سيكون مشابهاً لرفض إنشتاين لموقع الفيزياء". في العام 1939 أصبح وتغنشتاين حسب الأصول، أستاذ الفلسفة، هذا الموضوع الذي أحبط تلاميذه

---

[1] البطة الأرنب: عبارة عن لوحة مرسومة فيها تداخل لصورة أرنب مع بطة، وعندما تراها للوهلة الأولى، يمكن أن ترى إما الأرنب وإما البطة، بحسب ما يراه كل شخص. ويستخدم هذا النوع من اللوحات لإجراء اختبارات على عمل العقل. المترجم.

بشكل عام عن دراسته، في كامبريدج، الجامعة التي لم يكن يحبها بشكل متزايد. لقد خلقت فيه تلك التوترات ثورانات في بعض الأحيان، ونتائج لم يكن بالإمكان التنبؤ بها.

ربما كان الكشف الأعظم، الأسوأ ربما، هو الثوران الذي حدث في اجتماع نادي العلم الأخلاقي في 25 تشرين الأول من العام 1946، عندما اشتبك وتنغشتاين مع كارل بوبر، وهو فيلسوف يهودي لامع آخر من فيينا. كان بوبر قد أنهى للتو "أعظم ما أبدعه" وهو كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" في العام 1945. هذا العمل الذي انتقد الأسس الإيديولوجية الشمولية، وجد في البداية بعض المعجبين فقط — ومن بينهم برتراند راسل — لأنه هاجم أفلاطون وماركس معاً. كانت الماركسية — اللينينية لا تزال مبجّلة من قِبَل العديد من المثقفين، ووتغنشتاين نفسه لا يزال معجباً بالاتحَاد السوفياتي الستاليني. وقد جرت الاجتماعات الدورية الأسبوعية لنادي العلم الأخلاقي في قاعة ريتشارد برايث وايت، أستاذ الفلسفة في كامبريدج، في الروعة البالادينية الباردة لمبنى جيبسٍ، كلية الملوك. إن بوبر، القادم من لندن، حيث كان محاضراً في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، تناول الشاي في قاعة راسل في كليةٍ ترينيتي قبل أن يسيرا معاً إلى الاجتماع. وقد أُعجِبَ بوبر كثيراً بالرجل العجوز، ووصفه بأنه الفيلسوف الأعظم من أيام كانط، وكان راسل قد تحول منذ وقت طويل ضد وتغنشتاين.

تختلف وجهات النظر بشكل حادّ، حول ما حدث بالضبط، بحسب المراقب. لقد تجمّع ما يقارب ثلاثين رجلاً في القاعة، حيث كان يتم إشعال النار في الموقد، كما هي العادة في تلك الأيام قبل وجود التدفئة المركزية. بدأ بوبر بنقد أفكار في "التراكتاتوس". وهذا ما أساء إليه من قِبَلِ أتباع وتغنشتاين، لأن وتغنشتاين كان

قد انتقل منذ وقت طويل. لكن، سواء أكان بوبر مدركاً لأفكار وتغنشتاين الجديدة أم لا، لايزال يدور فقط في مطبوعات من نوع الكتب الزرقاء والبنية — النسخ المكتوبة من محاضراته، وكان يكتبها تلاميذه في الثلاثينيات، وقد نُشِرَت بعد وفاته — كانت تهاجم إقصاء وتغنشتاين عن المشاكل الفلسفية الأخرى، وطُبِّق هجومه على تفكير وتغنشتاين كله. كان لدى بوبر مبرر ليقلق بشأن الآثار العملية للفلسفة. وعلى الرغم من أن النازي الألماني كان قد انهزم، فإن روسيا الستالينية كانت تنشر سلطتها القاتمة عبر وسط أوروبا.

عندما تحدث بوبر حول ما اعتبره مشاكل فلسفية حقيقية، أصبح وتغنشتاين، الذي كان لا يزال صامتاً، غاضباً جداً بسبب هذه التفاهات واللغو الفارغ. يتذكره تلميذه ميشال وولف، ملتقطاً قضيب تحريك النار من المدفأة، وملوّحاً به في الهواء بشكل عصبي. عندما استجوب بوبر وتغنشتاين حول موقع الأخلاق، قيل إن وتغنشتاين تحدّاه أن يعطيه مثالاً عن قاعدة أخلاقية. أجاب بوبر" أن لا تهدد ضيوف المحاضرات بقضيب تحريك النار". مفترضاً أنه يمازحه. سحب راسل، الذي كان صامتاً في الخلف، غليونه من فمه، وطلب من وتغنشتاين أن يترك القضيب من يده. التفت وتغنشتاين إلى راسل وقال: "**أنت تسيء فهمي يا راسل. لقد أسأت فهمي دائماً!**" وردّ راسل بالمثل: "أنت تخلط الأمور بعضها ببعض يا وتغنشتاين. أنت تخلط الأمور ببعضها دوماً!" عندها، خرج وتغنشتاين من الغرفة وأغلق الباب خلفه بعنف. هذا ما تقوله إحدى الروايات. ويصرّ أتباع وتغنشتاين على أن شخصاً آخر، وليس وتغنشتاين، طلب المثال على القاعدة الأخلاقية، كما أنه غادر الغرفة قبل أن يردّ بوبر ممازحاً، كما يغادر دائماً بشكل مفاجئ. ويستمر هذا الجدل دون حسم.

لم يكن هذا الاشتباك، الأول من نوعه لأنه كان يطلب دائماً ولاءً غير مشروط من داعميه، واستسلاماً غير مشروط من خصومه، حيث يستطيع بعده أن يكون لطيفاً بما يكفي. كما أن آلان تورينغ، العبقري الرياضي الذي اخترع آلة تورينغ، تخلّى بسرعة عن محاولة مناقشته في العام 1939 في أثناء زيارته لكامبريدج، لأن وتغنشتاين أسكته بصراخه. ولم يكن فلاسفة الميول الأدبية أفضل حالاً، فقد زار فيلسوف إكسفورد المتحضّر أشعيا برلاين نادي العلم الأخلاقي في الأربعينات، وبدأ تقديم خطاب عن كيفية حصول الإنسان على وعيٍ بالحالة النفسية لأشخاص آخرين. حضر وتغنشتاين متأخراً، استمع لبضع دقائق دون أن يجلس وفقد صبره واستولى على الحديث قائلاً: "**لا، لا، لا! هذه ليست الطريقة المناسبة للدخول في هذا الموضوع! دعني. لا. دعونا نتحدث بالفلسفة. دعونا نتحدث عن أمورنا، أمورنا العادية**". وبعد ساعات من الأمور العادية، صافح وتغنشتاين برلاين قائلاً: "**مناقشة مثيرة للاهتمام، شكراً لك**" ومن ثم غادر القاعة. وتسلل برلاين عائداً إلى إكسفورد.

لم يعانِ برلاين كثيراً مع وتغنشتاين مقارنة مع الآخرين. عندما حضر فريدَريك هاييك- الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل، والذي لديه قرابة بعيدة منٍ وتغنشتاين- اجتماعاً لنادي العلم الأخلاقي بالفترة ذاتها تقريباً، تحوّلت المناقشة إلى "قضية"، تذكّرٍ أن "وتغنشتاين انتفض واقفاً وقضيب تحريك النارٍ في يده، ساخطاً لأعلى درجة، وشرع يوضح كمٍ كان الأمر بسيطاً وسهلاً. كانت رؤية هذا الرجل الهائج ملوّحاً بقضيب تحريك النار في وسط القاعة أمراً مقلقاً، ويجعل المرء يشعر بالميل للهرب إلى منطقة آمنة. وبصراحة، كان انطباعي عنه في ذلك الحين، أنه قد جنّ". (وتذكّر مالكوم لاحقاً أن: جي. أي. مور، أحد فلاسفة كامبريدج،

الذين يبجّلهم وتغنشتاين أخلاقياً إن لم يكن فكرياً، تلقّى اعتـذاراً يتخلله بعض التردد، عن هذه الوقاحة بعد أن هاجمه وتغنشتاين، "متحدثاً لساعتين متتاليتين" في العـام 1939. لكـن الكـثيرين في كامبريدج، كانوا يعتبرون مور قديساً إضافة إلى وتغنشـتاين، الـذي احتفظ بكرسي مريح له في قاعات التدريس التي يعلّم بها).

ما هو أكثر نموذجية بردّات الفعل كان جيلبرت رايـل، أسـتاذ الفلسفة في واينفليت في إكسفورد. فقد كتب رايل في زياراته القليلة إلى نادي العلم الأخلاقي: "كـان تبجيـل وتغنشـتاين مبالغـاً فيـه، بحيث أن أي ذكر لأي فيلسوف كان يُستقبل بنوع مـن السـخرية. يبدو لي هذا الازدراء لأفكار أي شخص آخر غـيره، ضـاراً تربويـاً بالنسبة للطلاب وغير صحي بالنسبة لوتغنشتاين نفسه". لقد كـان رايل متعاطفاً بقوة مع أفكار وتغنشتاين، لكنه شجب الطريقة التي يشجّع فيها تلاميذه على عدم القراءة لفلاسفة أخرين.

رفـض وتغنشـتاين في إحـدى المـرات، الحـوار السـقراطي الأفلاطوني الشهير بإظهار فطنتهما وأسـلوبهما إضـافة إلى محتـوى الأفكار، على أنه "**إضاعة للوقت**". وكـان هـذا جـزءاً مـن رفضـه العـام وتجاهلـه لمعظـم الفـن الغربـي وأدبـه. لقـد كـره وتغنشـتاين شكسـبير بشـكل خـاص، لرفضـه "اعتبـار نفسـه رسـولاً أو معلّمـاً للإنسانية" على عكس تولسـتوي الـذي قَبِـل بـذلك، وقـد رأى في نفسه الرسول والمعلّم معاً. (كان شكسـبير يلقـى الإعجـاب بالـدول الناطقة بالألمانية كما كان في الدول الناطقة بالإنكليزيـة). ولم يكـن رفضه لشكسبير بسبب نقص الحس الجمالي لديه، لأنه بقي زاهدا حساساً — ملابسه البسيطة الخشنة، أتت من أفضل الخيـاطين في كامبريدج، الديكور البسيط في غرفتـه كـان يجـب أن يتوافـق مـع مواصفات محددة. ويعكس هذا ضيق الأفق الناتج عن العنـاد، ممـا أشار إليها راسل في العام 1912.

كانت أساليب تدريسه في كامبريدج، غير تقليدية كما كانت في تراتنباخ. لا يقف الأمر على عدم تدوينه لملاحظاته الخاصة أثناء تقديم المحاضرات، بل كان يعتبر الملاحظات (تشبه الجثث)، ويكره أن يدوّن تلاميذه أي شيء منها. هو لا يتحدث في الغالب، لكنه يمضي ساعة الدرس أو المحاضرة في صمت يعذّب النفس، وتكون تعابير وجهه غريبة منتظراً خروج الكلمات، لتصل إلى مسامع تلك القلة القليلة المختارة بعناية لحضور المحاضرة — لم يكن يعلن عن محاضراته بالطرق العادية — يستمع الحضور إليه بابتهاج، وقلما يتجرؤون على الكلام. إن منهج وتغنشتاين عن (معاداة المحاضرات)، فيه بعض الشبه بمنهج سقراط القديم غير الرسمي، لكن سقراط نفسه كان، وإن بطريقته الساخرة، رجل العيش المشترك. كان التوازي الأقرب هو مع أفلوطين (204 – 70 قبل الميلاد)، مؤسس الأفلاطونية الحديثة، وأحد أعظم الصوفيين الفلسفيين، الذين أثروا بالمفكرين من أوغسطين إلى هيغل. كان أفلوطين أيضاً متقشفاً، "يخجل من جسده" ورفض تدوين أي شيء. ولكن تم تسجيل أفكاره على يد تلميذه بورفيري. ويتبدّل المزاج في تلك المحاضرات بالمثل، من الطرب الغنائي السامي إلى الصمت المرهق المَرَضي تقريباً، بينما هو يصارع للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه. لكن أفلوطين لم يهدد بضرب أي شخص. قال وتغنشتاين في نيسان من العام 1951 بينما كان على فراش الموت بسبب السرطان: "أخبرهم أنه كان لدي حياة رائعة". لم تكن "رائعة" الصفة الواضحة لحياة معذّبة خالية من الأصدقاء ومن الراحة، لكنه يعني ذلك. لقد أمضى معظم سنواته الأخيرة، يطوف حول إرلندا باحثاً عن مكان بسيط وبعيد، يستطيع فيه أن يفكر ويكتب دون أن تتم مقاطعته. (انتهى به المطاف في فندق دوبلين). بالتأكيد كان لا يزال يفكر ويكتب — مداخلاته الأخيرة كانت مؤرّخة قبل يومين من وفاته — عما أصبح

يُعرف بفلسفته الثالثة. يُظهره هذا وهو يتحـول نحـو وجهـة نظـر أصـولية. وبينمـا حـددت "الألعـاب اللغويـة" أو "أشـكال الحيـاة المتنوعة" في أوقات سابقة، صـلاحياتها الخاصـة دون الإشـارة إلى معيار مطلق عن الحقيقة، بدأ الآن باستكشاف الطرق الـتي يمكـن بها "دعم" هذه الأمور بأسس يقينية بشكل أساسي. (أليس السؤال على هذا النحو: "ماذا لو كان عليك أن تغير رأيك حتى حول تلك الأمور الأكثر أهمية؟" ويبدو الجواب: "ليس عليـك تغييرهـا. هـذا ما جعلها أساسية وحسب"). إنه يظهر فكره وكأنـه بـدأ يعـود إلى الاعتراف بالحاجة لوضع أسس لأنواع مختلفة من الخطاب، بنوع من اليقين الأساسي، الذي بدونـه سيصـبح المعنـى منفلتاً وكـذلك اللغة. هو لم يعش ليطور هـذا الحبـل الثالـث الأصـولي لـتفكيره، ولايزال الباحثون يتحرّون تضميناته ويستكشفونها.

على الرغم من أن لديه الكثير من التلاميذ (علـى الأقـل مقارنـة مع نيتشه وشوبنهاور)، فقد كان يشعر أيضـاً بأنـه معـزول فكريـاً ونفسياً. كان نورمان مالكون، أحد التلاميذ القلائل الذين احترمهم بشكل كامل — ربما لأن مالكون قاوم دفع ونغشتاين له للذهاب إلى العمل في "بستان أو مزرعة في مكان ما" — وربما عرفه أفضـل مـن أي شخص آخر في سنواته الأخيرة، وناقش في كتاب له في نهايـة حياته، أن معلمه كان متديناً بعمق، بل كان مسيحياً مـن القلـب. قال مالكون إن وتغنشتاين اختار فقـط أن يصـبح مدرسـاً بـدلاً مـن كاهن في العام 1919، بسبب سنوات التدريب الأربـع في معهـد اللاهوت والتي يتطلبها الكهنوت. وكان وتغنشتاين قد أخبر راسل أنه يستطيع أن يفهـم لـماذا قـام عمـال البنـاء في العصـور الوسـطى بنحت لوحات نافرة وتماثيل أخـرى علـى أسـقف الكاتـدرائيات والكنائس حيث لا يمكن لأحد أن يراهـا إلا الله. وقـد قـال لاحقـاً عـن "تحقيقاتـه الفلسـفية" "**إن اسـتطعت، فسـوف أهـدي هـذا**

الكتاب إلى الله". واعترف لاحقاً: **"تستطيع الحياة تثقيف شخص ليؤمن بالله"**، حتى إنه طلب من كاهن مسيحي أن يقوم بزيارته في مرضه الأخير. لكن لأنه لم يستطع قبول التعاليم المسيحية حول مواضيع مثل (التحوّل)[1]، لم تكن مسألة "عودته" إلى الكنيسة الكاثوليكية مطروحة، وهو لم يتّبع التعاليم المسيحية في التواضع أيضاً. لقد مات كما عاش، غريباً، حراً من قيود أي كنيسة وعزائها، وليس فكرياً فقط، بل أخلاقياً أيضاً.

ليس هناك من خلاف حول الأهمية الكبيرة لفكر وتغنشتاين في القرن العشرين. ويظل كتاب "الأطروحة" واحداً من أكثر الأطروحات تأثيراً في القرن العشرين، بينما تحاول فلسفته اللاحقة إعادة توجيه تيار الفلاسفة الغربيين الفكري منذ ديكارت، إن لم يكن منذ أفلاطون. لقد استطاع هيدجر الاقتراب منافساً جرأة كهذه. لكن هناك الكثير من النقاش حول الطريقة التي علّم بها، ومجموعة المعجبين بشخصيته التي سمح لها بالنمو حوله. لقد تصرّف وتغنشتاين مراراً وتكراراً، بطرق يمكن القول إنها غير مقبولة من فيلسوف. لو كان وتغنشتاين هو المكافئ الغربي لمعلّم الزن، فلربما تراجع نحو الصمت المشعّ الصوفي عندما كان يواجه تبلداً إنسانياً. "أولئك الذين يعرفون لا يتكلمون" عبارة تنطبق على وتغنشتاين الذي كتب "الأطروحة". لكن وتغنشتاين لا يفتقر فقط للنزعة الهادئة الصوفيّة إلى الخير، لقد اختار أن يمضي الكثير من سنيّ رشده، بوصفه أكاديمياً في مركز أساسي للتقليد الفكري الغربي.

وكما قال عنه جوليان بيل: يناسبه مصطلح (egomaniac) أو الهوس بالذات، كما يناسبه توصيف (الصوفي أو الغامض). عندما

---

[1] الكلمة الإنكليزية هي (transubstantiation): تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه في عملية المناولة التي تحدث في الطقوس المسيحية. المترجم.

لا يستطيع إقناع المستمعين في الحال، لا يكون مستعداً للبقاء والنقاش. أما بالنسبة لأتباعه الواقعين تحت هيمنة حضوره المقدّس، فلم تكن ذات أهمية انفجاراته العَرَضية أو صمته المتكرر. إنه يظهر بالنسبة لهم وكأنه ساحر أو حكيم، تجسيد هيراقليطس، أو ميرلين، أو ميستر إكهارت — أسلافاً مشبوهين فلسفياً. حتى الناقد الأدبي إف. أر. ليفيز، وهو بروتستانتي عقائدي آخر، بقي بعلاقة صداقة مؤقته مع الفيلسوف، واعترف أن "نقاشات وتغنشتاين كانت تُدار من وتغنشتاين". هذا الإيمان الهوسي بالذات يذكّر بنمساوي شهير آخر.

هناك شبه غريب غير واضح، بين منهج وتغنشتاين في التعليم أو الحديث، والقوة المغناطيسية لزميله السابق في المدرسة، أدولف هتلر، رغم أن أتباع وتغنشتاين سيعتبرون هذه هرطقة. بصدفة غريبة، تعلما في الفترة نفسها في مدرسة (ريلتشول في لنز)، وكان وتغنشتاين في صفّ أعلى من هتلر. لم يكن متوقعاً أن يحزر أي تلميذ أن وتغنشتاين كان يهودياً، لأنه كان بعينين زرقاوين وشعر أشقر، كما أنه كان كاثوليكياً وألمانياً بالاسم والمظهر. لكن وتغنشتاين تعرّض للسخرية كطفل أنيق متحفظ من فيينا، ربما استفزّ هتلر، الذي كانت قد بدأت تظهر عليه عبقرية التنمّر منذ ذلك الحين.

هناك تشابهات أخرى. لم يستطع أي منهما الحفاظ على علاقة متكافئة، جنسية أو اجتماعية، مع إنسان آخر. كلاهما جمع حوله طلاباً ومساعدين مخلصين وحتى متعصبين، كلاهما كان لديه نوبات غضب وكانا يعبّران عن غضبهما جسدياً، كلاهما مقتصد بشكل شخصي، وكلاهما رفضا بشكل متحجر مجالات واسعة من الفكر والحضارة الغربية، التي بدت لهما غير واقعية ولا تناسب إلا العقول الضعيفة. وبالطبع، بالطرق الأكثر أهمية

بكثير كانا متعاكسين بالكامل. يكشف وتغنشتاين بتفكيره عن نور مبهر وصدق ذاتي جارح، عندما تتم مقارنته مع عتمة هتلرٍ الساحقة وخداع الذات الذي لا قعر له. لقد اشتعل هتلر غضباً بكراهية قاتلة طوال حياته، وكان ينفجر بالغضب دورياً، وليس مع اليهود فقط. بينما يحترق وتغنشتاين بنفاد صبر عاطفي، لأن الحقيقة تُظهر نفسها، في بعض الأحيان فقط، في غضب على غباء الإنسان. لكَن التشابهات تبقى. ربما كان هناك شيء في مناخ أوروبا الوسطى في ذلك الوقت — "مختبر القرن العشرين ذاك" — يقود الرجال إلى الجنون تقريباً. أو ربما كان حكم أوسكار فوشز، صانع الأحذية من ترِاتنباخ وتلميذ الفيلسوف خلال سنوات عمله كمعلمٍ مدرسة، شكل الإنصافٍ الأكثر قبولاً. "كان وتغنشتاين متقشفاً. يعتقد الناس بأن رجالاً مثله عبارة عن مجانين، لكن يجب على المرء ألّا يقيسهم فقط حسب المعايير العامة".

6/ مارتن هيدجر (1889 – 1976):

الساحر، المفترس، الفلاح، النازي

"لا تدع الافتراضات (الأفكار) تشكّل قانون وجودك. الفوهرر نفسه ولوحده، هو حاضر ومستقبل الواقع الألماني وقانونه".

مارتن هيدجر

كانون الأول من عام 1933

تستطيع الأزياء أحياناً أن تقول كل شيء. ففي الصورة الملتقطة حوالي العام 1922، يظهر مارتن هيدجر، وهو لايزال أستاذاً مساعداً شاباً، ينسير إلى جانب معلّمه الخاص الجديد الكهل، وأستاذه السابق، إدمون هاسرل. يرتدي هاسرل بذلة وقبّعة عريضة

الحواف، ويستند على عصاه المذهبة القبضة، مما يشير إلى الرقي والحضارة. وبتباين متعمّد عدواني، يرتدي هيدجر زيّه الفلاحي الخاص بقريته ومسقط رأسه بلاك فوريست: بنطالاً جلدياً حتى الركبة وجوربين سميكين بيضاوين يصلان إلى الركبة. يظهر ابن الريف القاسي بهيئته الرجولية وعضلاته المفتولة، لا يشعر بالراحة تماماً في العالم الأكاديمي الحضري المتحرر، الذي يطغى عليه التأثير اليهودي غالباً. ربما كان لباسه الريفي مُسلياً، إن لم يتحدث عن إحساس عظيم بالذات، وهو الإحساس الذي كان سيهيمن على كامل تفكيره.

خلف الرجلين، هناك شخصية أخرى تقترب، هي غير مرئية في الصورة لأنها تنتمي إلى المستقبل القريب للرجلين: فتاة نحيلة قصيرة الشعر، تتبع موضة العاصمة برلين: إنها هانا أرنديت، التي كان مُقدّراً أن تصبح من أكثر تلاميذ هيدجر وحبيباته شهرة. كانت يهودية مثل هاسرل، ولم تكن تلك مشكلة في الدوائر الأكاديمية في فيمر[1] ألمانيا. ومثل هاسرل أيضاً، ستلعب دورا حاسماً في حياة هيدجر وتفكيره وسمعته.

وبشكل متناقض، هيدجر، الذي يدين بالكثير ليهود ألمانيا (وهم الأكثر استيعاباً والأكثر ثقافة وتألقاً في أوروبا كلها، كاد يصبح النبيّ المتحمس والمسيح اليهودي للنازية. وفي نيسان المصيري من العام 1933، وعندما كانت ألمانيا تختبر (مزامنة التحكم) للرايخ النازي الجديد وهتلر الذي حصل على السلطة الكاملة قبل أسابيع فقط، وكان يقتلع مؤسسات فيمر الجمهورية

---

[1] جمهورية فيمار: هي الجمهورية التي نشأت في ألمانيا في الفترة ما بين 1919 - 1933، كنتيجة للحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا للحرب، وتعود شهرة فيمر سياسياً لأنها كانت مقر اجتماع المؤتمر القومي الألماني الذي أعلن نهاية الأمبراطورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى (الرايخ الثاني) وإقامة الجمهورية. المترجم.

بسرعة مرعبة، كان مارتن هيدجر قد انتُخِبَ رئيساً لجامعة فريبيرغ وانضم إلى الحزب النازي. وقد قاد عنوانه الافتتاحي أحد المستمعين للتساؤل عما إن كان عليه أن "يدرس ما قبل السقراطية أم ينضم إلى قوات الصاعقة".

كانت المفارقة الأخرى، أنه على الرغم من كل هذا، كاد هيدجر أن يصبح في أواسط القرن العشرين، المفكر الملهم الشامخ لكامل جيل المفكرين ذوي الميول اليسارية، من النوع الأكثر تحضراً وتطوراً. لم يشاركه مجتمع مقاهي باريس العالمي، معتقداته العميقة، والصوفيّة تقريباً، بالدم والتراب. لقد ساعد العديد من الفلاسفة الفرنسيين، بقيادة جان بول سارتر، وموريس ميرلو بونتي وجاك دريدا، في صعوده إلى سويّة وتغنشتاين، كأعظم فيلسوف مؤثّر في القرن العشرين، الموقع الذي لن ينافسه عليه أحد بشكل جدّي، منذ ذلك الحين.

لم يبدُ الأمر كما لو أن القائد الوجودي اختبر أي تغيير بالرأي بشكل عميق. وبينما كان يُحتفى به من قِبَل من يحتقرهم، لم يبذل الكثير من الجهد لتبرير تصرفاته السابقة ولم يكن قادراً على جعل نفسه يرفض الأيديولوجية النازية بطريقة لا لبس فيها. إن تبريراته اللاحقة بأنه قد قَبِلَ منصب فريبيرغ تحت الإكراه، وأنه وضع كل جهوده لحماية الطلاب اليهود، وأن أوهامه عن النازية قد زالت بسرعة، معروفة الآن بأنها خاطئة. كيف يستطيع هذا العملاق المفكر أن يسمح لنفسه بتأييد أعظم قاتل ومعادٍ للفكر في الأنظمة السياسية؟!

يمكن القول إن الفلاسفة مؤهلون فقط ليتفلسفوا، بينما ظلوا ساذجين ويسهل تضليلهم في عالم العلاقات والسياسات. ومع أننا نرى هذا التفسير عن ارتباطه بالنازية مؤسفاً، إلا أنه لم يكن له أي تأثير على فلسفته القيّمة والهامة. لكن ما كان الأكثر ضرراً،

هو المقاربة التي أجراها البروفسور ريتشارد وولين وآخرون، التي بحثت في فلسفته عن ملامح تفسيراته للحياة وأهدافها، والتي عرضها عندما سنحت له الفرصة، ليسلك الطريق النازي.

لكن أياً كانت الاستنتاجات التي وصلوا إليها، فليس هناك من شك بأن هذا المتألق الزاني، محب الوطن والمتعاطف مع النازية، الذي يبدو وكأن قلبه قد زُرِع إلى الأبد في معتزله الريفي، حيث يستطيع الشعور بالرضا بين غاباته ولباسه التقليدي، قد ساهم بشكل كبير في الفكر الحديث، سواء من خلال مؤلفاته عن مخاطر التكنولوجيا على ميولنا، لتأطير الأشياء وتقييمها بقدر ما تكون مفيدة لنا، أو عبر مساهمته بموضوع الوجودية ومعنى الحياة. وبصرف النظر عن أي شيء آخر، على المرء أن يلحظ تأثير الفلاسفة الذين كانوا تحت إشرافه: هانا أرنديت، الذي كان هيدجر معلمها كما كان عشيقها، هانس جوناس الذي أصبح مساهماً رئيساً في التفكير البيئي، وخاصة في ألمانيا، وهربرت ماركوس، مؤلف كتاب "الإيروس والحضارة" وكتاب "الإنسان ذو البعد الواحد" وكلاهما يروّجان لثوار الستينات. وكارل لويز، المؤثر في مجال الفكر الاجتماعي والسياسي. ولدينا أيضاً من بين اللاهوتيين، بول تيليش، الذي علم مع هيدجر في ماربورغ، وراندولف بولتمان، وكلاهما تأثرا بأعماله. لقد انتشرت فلسفته عبر العالم، وجاءت أولى الدراسات المنشورة بشكل جدّي عن أعماله من اليابان. رغم أن أشهر عمل له كان كتاب "الكينونة والزمان"، فإن قائمة منشوراته ومحاضراته هائلة، إذ كان فوق كل شيءٍ أكاديمياً مُخلصاً، وكان لا يزال في وسط فوضى الحرب، قادراً على كتابة المحاضرات وتقديمها حول كافة المواضيع.

لدينا هنا واحدة من التناقضات الغريبة لفكر القرن العشرين. ففي العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، كانت الوجودية هي

الفلسفة المختارة للعديد من الفنانين والمثقفين، كما كانت المختارة لأولئك الذين تمردوا بوعي ذاتي ضد الامتثال للمجتمع. كانت قد تُرجِمَت بشكل جيد في الأدب والمسرح: كان من الممكن ارتداؤها مثل الأزياء، ومحددة مع مجتمع المقاهي الذي يقوده سارتر في باريس. كانت فوق كل هذا، فلسفة ونموذج حياة، يعزز الفرد ويحرره أو يحررها من التوافقية الاجتماعية. كانت الترياق من اكتئاب العيش في أوروبا المشلولة مؤخراً بسبب النازية والحرب. وعلى الرغم من عدم قبوله بالمصطلح بحدّ ذاته، فإن هيدجر، المتعاطف مع النازية، والريفي التقليدي القادم من بلاك فوريست، أسس المبادئ التي قام عليها الكثير من وجودية القرن العشرين. في الواقع، إن رأي الوجوديّ الهاوي العادي المتحمس للحرية في الأيام العنيفة في الخمسينات أو الستينات، حول الآباء المؤسسين لهذه الفلسفة، يبقى لغزاً: كيركيجارد، المفكّر المتدين القوي من القرن التاسع عشر، الذي كانت الجدّية بالنسبة إليه هامة. نيتشه، الذي لو عاش ليرى هذا، ما كان سيعتبر حياة المقاهي، تبشّر بالوصول إلى "السوبرمان". هيدجر، اليميني الكاثوليكي التقليدي! تكمن الحقيقة في أن الوجودية لم تصبح رائجة مع الحرية الجنسية والاتجاه السياسي اليساري، إلا بعد أن أتى سارتر لنجدتها.

وُلِد هيدجر في ميسكيرش في منطقة بادن الألمانية في 26 أيلول من العام 1889، وهو ابن فريدريك وجوهانا هيدجر. كان والده صانع براميل وقندلفت في الكنيسة الكاثوليكية في سانت مارتين. لهذا كان هيدجر متجذراً في المجتمع الريفي المتدين، ولديه إحساس قوي بانتمائه إلى الأصول الفلاحية. كان أكبر الأولاد، تتبعه ماري المولودة في العام 1892 وفريتز في العام 1894.

كانت بلدته الصغيرة أساسية في كثير من حياته، فقد كرّست إحساسه بهويته كألماني، وتراجع نحوها عندما أصبحت الظروف صعبة، ودُفِنَ فيها في نهاية المطاف. لقد أظهر نفسه دائماً كشخص ريفي قروي، غير سعيد بثقافة المدن الكبيرة. لقد احتاجت ألمانيا من وجهة نظره، إلى حكومة مركزية قوية للمحافظة على وحدتها، وشكك بكل الحركات الديمقراطية التحررية التي يمكنها مع الحضارة العالمية، تقويض الهوية القومية الألمانية. المكان المحليّ الآخر، الذي كان له أهمية بتأسيس شعوره بنفسه، كان الدير البيندكتي في بيوفن، حيث كان يعتزل من وقت لآخر في العشرينات من عمره، عندما كان يؤسس نفسه كأكاديمي، ولاحقاً في الأربعينات عندما كان التدريس محظوراً عليه.

ربما لم يرغب بمغادرة مجتمعه في ميسكيرش، لولا فلسفته ولاهوته. وبالفعل، بقي أخوه فريتز يعمل موظف بنك هناك طوال حياته. وقد احتفظ بمخطوطاته الكتابية في أقبيه ذلك البنك برعاية أخيه، خلال الحرب العالمية الثانية، عندما كان كل شيء حوله عِرضَة للتدمير وكانت سمعته تلقى تحدّياً بسبب ارتباطاته النازية. ما عليك سوى خدش الطبقة الخارجية لهذا الأكاديمي المعروف عالمياً، حتى تجد أسرة ريفية، تعيش في بلدة تقليدية دفاعية تثق بصلابتها وتثق بالبيئة التي وجدت نفسها فيها.

ذهب هيدجر في الرابعة عشرة من عمره، إلى المدرسة الثانوية في كونستانس، بمساعدة الأموال التي جمعها كاهن القرية، وبعد ثلاث سنوات، وبفضل المنحة الدراسية من الكنيسة الكاثوليكية، انتقل إلى بيرثولد جيمنازيوم في فريبيرغ، وأقام في المعهد اللاهوتي في سان جورج. وحصل على شهادة البكالوريا في العام 1909، وغادر المدرسة ليبدأ التدريب كمبتدئ يسوعي في

النمسا، لكنه عاد إلى منزله بعد أسبوعين، بسبب صحتة السيئة ربما. لكن التزامه بالكنيسة الكاثوليكية، جعله يبدأ دراسة الكهنوت مرة أخرى في فريدبيرغ.

أدرك هيدجر في ذلك الوقت، بعض التقارب مع بطل متديّن مولودٍ في ميسكيرش، وهو راهب أوغسطيني غامض من القرن السابع عشر، يُدعى أبراهام سانكتا كلارا. وبصفته مبشراً محلياً، دعم أبرهام البساطة الريفية وعارض التطوّر الحضري، وكان معادياً للسامية أيضاً. لا نعرف الآن مدى تطابق وجهات نظر هيدجر مع وجهات نظر أبرهام، لكنه كان متأثراً جداً لدرجة تقديم محاضرة عنه في العام 1909، كما تمت دعوته في سنة لاحقة، ليخطب عنه بمناسبة وضع نصب تذكاري له في كرين هينستيتن، حيث كان والده يدير حانة. كان ظلّه يخيم على حياة هيدجر.

في العام 1911، تخلّى عن دراسته اللاهوتية، وتحول نحو الرياضيات والفلسفة. ثم مرّ عقد آخر قبل أن يتخلّى عن الكاثوليكية كنظام لاهوتي، وهذا بشكل مؤكد، لم يعطِ علامة على انقطاع كامل عن الكنيسة الكاثوليكية، لأنه كان يحضر القدّاس عندماً عاد إلى منزله في ميسكيرش، لكنها كانت الخطوة الأولى له مبتعداً عن جذوره اللاهوتية.

في ذلك الوقت قرأ كتاب "تحقيقات منطقية" لهاسرل، الذي كان يعلّم في جامعة فريبيرغ، وكان له تأثير عظيم على تطوّر فكر هيدجر. يُعرف منهج هاسرل في مجال الفلسفة بالظاهريات، إنه يهتم بظاهرة التجربة الفعلية. وقد أشار التجريبيون من أمثال هيوم إلى إمكانية أن تخدعنا أحاسيسنا بما يخص العالم الخارجي، وكان ديكارت قد استنتج أن الشيء الوحيد الذي يمكننا معرفته بشكل مؤكد، هو ذواتنا ككائنات تفكر، لكن هاسرل اعتبر أن الشيء الوحيد الذي

نستطيع مناقشته بصدق، ودون خوف من التناقض، هو العالم كما نختبره، وهو ما أطلق عليه (عالمنا الذي نعيش فيه). عندما نكون مدركين، نكون مدركين "لشيء"، ويعمل عقلنا على تفنيد تجربتنا وتقسيمها بطرق مختلفة، متفحّصاً العالم دائماً من أجل غرض معين، وهذا ما نسميّه على نطاق واسع "القصد". وتتحدد تجربتنا بناءً على أهميتها بالنسبة لنا. إن الظاهريات هي عملية اختبار "العالم الذي نعيش فيه". لكن ماذا يشبه العالم الذي نعيش فيه؟ ما الذي ندركه عندما ندرك تجربتنا الخاصة؟ قدّم هذا السؤال نقطة بداية لفلسفة هيدجر، وبشكل خاص في كتابه الأساسي "الكينونة والزمان".

في تموز من العام 1913، نجح في امتحان الدكتوراه، واختار أن يبقى في جامعة فريبيرغ كمساعد لهاسرل. ومع قدوم الحرب في العام 1914، تطوّع في جند المشاة، لكنه سُرِّح بعد ثمانية أيام لأسباب صحية. ثم جرى سحبه مرة أخرى بعد شهرين، للخدمة في الكتيبة ذاتها وتم تسريحه بعد أيام. وفي نهاية المطاف، أدركت القوات المسلحة أنه لن يكون مناسباً للدخول في مهام قتالية، وتم إرساله ليخدم بصفة مراقب عسكري في مكتب البريد في فريبيرغ. لو مُنِحَ فرصة مناسبة، لكان يرغب بالقتال، هذا هو موقفه الذي أوصى الآخرين به لاحقاً.

لم تكن الحياة كلها فلسفة ورقابة، إذ التقى في ذلك الوقت بإلفريد بيتري، التي تزوجها في العام 1917. ولكونها بروتستانتية، فقد أقاما حفلي زفاف، أجرى الأول منهما الأب كريبز، الذي كان هيدجر يساعده بمحاضرات اللاهوت، وتم الثاني بعد أسبوع، في الكنيسة البروتستانتية. وبعد فترة قصيرة جرى سحبه للخدمة العسكرية مرة أخرى، ونجا من التدريب

الأساسي وخدم في محطة الأرصاد الجوية، وتم تسريحه من الجيش في نهاية الحرب.

أنجب في السنوات التالية ولديه، جورج وهرمان، وقدمت له زوجته إلفريد كوخ تزلج، بنته من أجله في تودنابيرغ. وقد استطاع في ذلك الكوخ أن يعيش كريفي في الجبال، هارباً من التطور الثقافي للعالم الأكاديمي. وأصبحت تلك صيغة حياته لسنوات، ودعا التلاميذ إلى هناك، وأقام الحفلات واستقر بهدوء ليعمل على أعظم مؤلفاته. كان الكوخ معتزله الريفي ومكان تواصله مع جذوره الريفية.

في العام 1923، انتقل بصفة أستاذ مساعد إلى ماربورغ، وكانت بلدة صغيرة ريفية ساحرة لها مناخ العصور الوسطى، لكنها كانت خانقة اجتماعياً. لم تكن المكان المناسب للقيام بأي سلوك سيء دون التعرّض للمراقبة. زميله الأكاديمي بول تيليش، المعروف بكونه زير نساء، والمترجم لأفكار هيدجر في اللاهوت الوجودي المسيحي، كان مصاباً بالرعب لدى وصوله إلى هناك في السنة التالية. لقد وجد الجو معيقاً وندم على تركه المتع الاجتماعية والحريات الجنسية في برلين. وقرر في العام 1924، أن ماربورغ ليست المكان الملائم لعيش نمط حياته الخاصة.

قام هيدجر خلال وجوده في الجامعة بكل ما في وسعه ليجعلها مناسبة لأسلوب حياته، لأنه كان قد قابل طالبة جديدة اسمها هانا أرنديت وأصبحا عاشقين. كانت لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، يهودية جميلة وفائقة الذكاء، كانت مُعجبة جداً بأسلوبه (كما هي حال العديد من طالباته). كان هو في الخامسة والثلاثين من عمره، ولديه ولدان وزوجة شكّاكة، إضافة إلى سُمعة لجذب الطالبات الجذابات. لم تكن تلك علاقة بين شخصين مناسبين أحدهما للآخر، لقد وصفته إليزابيت إيتينغر "بالمفترس الذي لا

يرحم، والذي ينام مع الطالبة الشابّة الضعيفة الساذجة، ويرميها عندما يحقق مبتغاه". كما يصف ريتشارد وولين العلاقة بأنها كانت "استغلالية بشكل كبيرٍ". لكن الرسائل التي تم تبادلها بينهما توحي بشيء أكثر عمقاً، إنها تعبّر عن اندماج شغوف للشهوة والفكر الذي ربما أدركه أفلاطون. وفي 27 شباط من العام 1925 كتب لها بنشوة نموذجية: "**عزيزتي هانا، لقد سيطر شيطاني عليّ ...... هذا لم يحدث لي من قبل. في أثناءِ العاصفة المطرية، وفي الطريق إلى البيت، لم تكوني أكثر جمالاً وروعة مما كنت حينها، وأودّ أن أسير معك لليالٍ لا تنتهي**".

لو تجرأا على الظهورٍ معاً في العلن، لَظهرا بأن أحدهما لا يناسب الآخر. كان مستقراً على شكل ثابت من حيث الأزياء، يلبس في الصيف بذلته الخشنة وبنطاله القصير، حيث يبدو وبشكل واضح، فلاحاً من بلاك فوريست، أو ربما صبياً ضخماً من الكشافة. ويبدو في الشتاء وكأنه في طريقه لممارسة التزلّج. كان قاسياً دائماً وممتلئ الجسم ويبدو كعامل عضلي في كل عضو من أعضائه. بينما كانت هي على النقيض من ذلك، شابّة عصرية وحضارية بشعرها القصير المناسب لموضة ذلك الزمن.

لن تكون العلاقة مع أية طالبةٍ سهلة على هيدجر، لا سيما وأن ماربيرغ، كانت مكاناً صغيراً وكان اكتشاف الموضوع سيؤدي حتماً إلى طرده. كانا مقيدين أيضاً بحقيقة أن زوجته كانت تراقبه بشدّة هو وطالباته، وربما كانت تراقب أرنديت بشكل خاص، لكونها يهودية، كانت إلفريد معروفة بمعاداتها للسامية.

عاشت أرنديت في غرف السكنِ العليا الموجودة قرب الجامعة، حيث كانت تلتقي معه هناك سرّاً، ويبدو أنه كان هو من يحدد مسار العلاقة بالكامل. لقد أصبحت مصدر وحيه خلال فترة إنتاجه إذ كان يعمل على كتاب "الكينونة والزمان"، الذي أسس

لسمعته. ولا بدّ أن السريّة الشديدة كانت سبباً للتوتر، لأنه في السنة التالية، وبدافع منه، انتقلت إلى هيدلبيرغ، وحدث هذا الانتقال بدعم من صديقه كارل جاسبرزز، الذي كان عضواً بهيئة التدريس هناك. وقد صرّحت بأنها قامت بذلك لإنهاء حالة الضغط عليه، كما حافظت على استقلالها لأنها لم تُفصِح له عن عنوانها. لكنها وجدها في النهاية، واستمر بلقائها من وقت لآخر، غالباً في غرف الفنادق، على مسافة آمنة من ماربورغ. وقد اتخذت آرنديت عشاقاً آخرين لها وأخبرت هيدجر بذلك، لكنه رأى علاقتهما أساسية، بينما علاقاتها الأخرى غير مهمة. ومهما حاولت إبعاد نفسها واختيار علاقاتها الخاصة وحياتها، يبدو أنها كانت خلال تلك السنوات، متاحة له عندما يرغب برؤيتها.

في غضون ذلك، وفي المجال الأكاديمي، كان الزمن زمن البركات بالنسبة له. تقدّم في العامين 1925 و 1926 لمنصبٍ في ماربورغ، لكنّه رُفِضَ. كما تقدم لمنصب في برلين لكنه رُفِضَ أيضاً لقلة منشوراته. سرعان ما تغيّر ذلك، لأنه في العام 1926، أهدى هاسرل مخطوطة كتابه "الكينونة والزمان" في حفلة أُقيمت في تودنابيرغ، منتجع هيدجر الجبلي، بمناسبة عيد ميلاد هاسرل السابع والستين. وفي السنة التالية، تم نشره في صحيفة (الكتاب السنوي للفلسفة والبحث الظاهراتي) والتي كان يحررها هاسرل. ومع نشره، مُنِحَ منصب أستاذ في ماربيرغ.

كان الكتاب عملاً رائداً بكافة المقاييس. استند فيه على أعمال فلاسفة من أمثال كيركيجارد وشوبنهاور ونيتشه ومهّد الطريق لسارتر ودريدا وآخرين. وقد اهتم بالمقام الأول بطبيعة الكائن وبشكل أكبر، بما يعنيه أن تكون إنساناً.

تأسس المنهج المستخدم في الكتاب والغاية منه، على عمل لمعلمه هاسرل، لأنه يتفحص حياة الإنسان من وجهة نظر

ظاهراتية منطقية. يدرك هيدجر أن وجود الإنسان راسخ في الزمن، وفي الواقع، نحن عبارة عن تجسيد للزمن، نعيش في الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ما يحدد من نكون. نحن نسير نحو المستقبل، وتتشكل حياتنا عبر خياراتنا. وبالقدر نفسه، نحن محدودون بالظروف التي وُلِدنا بها.

لتجنّب الغموض، صاغ هيدجر مصطلح (Dasein). وترجمته الحرفية بعبارة "**الوجود هناك**" لم تساعد على فهمه. إنه يشير إلى كينونة الإنسان التي يكون بها ذاته، تتحدد شخصية الإنسان بولادته وتتخذ شكلها من خلال خياراته، يصبح كائناً له ماض ومستقبل وحدود وآمال، كائن يمكن أن تظهر له شخصية. يقعٌ (Dasein) بمواجهة إدراكه لكون الحياة محدودة، وأنه ليس متأكداً إلا من الموت، ومن تدفّق الحياة بظروف متغيرة باستمرار، وبالتالي يحتاج إلى قرارات وخيارات. وفوق كل شيء، علينا أن نواجه مستقبلنا، ونحدد المعنىٍ الخاص بنا بغياب كامل للّه. إنه التحدي ذاته الذي كان موجوداً أمام نيتشه، أن نعيش في عالم لا وجودٍ للّه فيه، عالم يتحرك حراً من الحبال التي كانت تربطه أصلاً، بإحساس بمعنى وغاية مطلقين.

لقد ترسخت سمعته الآن بشكل جيد، وتم تعيينه في السنة التالية، خلفاً لهاسرل بصفة أستاذ الفلسفة في فريبرغ. فانتقل بعيداً عن ماربيرغ، وأنهى علاقته بهانا أرنديت وشغل منصب معلمه السابق.

كانت محاضرته الافتتاحية بعنوان "ما هي الميتافيزيقيا؟" وسرعان ما شارك وحرر (صحيفة فيستفشريف) تكريماً لهاسرل، بمناسبة الذكرى السبعين لميلاده. ولا بدّ أنه حَظي بشيء من الارتياح، لأنه كان قادراً لاحقاً على رفض عرض له بمنصب في برلين، مفضلاً حياة المدينة الصغيرة. وخلال خمسة أعوام،

كبرت مكانته كأكاديمي وجذب حوله حلقة من الطلاب المهمين المؤثرين، وقد جعله كتابه، ليس فقط خلفاً لهاسرل، بل كمساهم أساسي في الفلسفة، وذلك بجدارته الخاصة. وكان سابقاً، قد حقق لنفسه سمعة كبيرة كمحاضر، وجذب أعداداً هائلة من الطلاب، ولُقِّب بساحر ميسكيرش، لمقدرته على إبقاء مستمعيه تحت سيطرة سحره.

ليت القصة تنتهي هنا، لقد بدت حياة هيدجر، باستثناء سلوكه تجاه هانا أرنديت، وكأنها منتظمة وترتقي بشكل هادف، من الغموض الريفي نحو الشهرة الأكاديمية. لكن هذا لم يحدث، إذ كان قد دعم لبعض الوقت، صعود الاشتراكية الوطنية، ووجد الآن نفسه الناطق الرسمي الأكاديمي باسمها.

في نيسان من العام 1933، انتخبه أعطاء هيئة التدريس رئيساً لجامعة فريبيرغ، وتلك. كانت لحظته الحاسمة. فقد انضم في الشهر التالي للحزب الاشتراكي الوطني، وفي 27 أيار قدّم خطابه كرئيس جامعة: "التأكيد الذاتي للجامعة الألمانية". لقد ظهر كأكثر المهتدين للنازية الألمانية هيبة أكاديمية، وأطلق في خطابه كلمات من نوع: "الشعب، مهمة، مصير، الحسم، الإرادة" وكذلك "قوة الدم والتراب". ربما تراوحت أفكاره من فترة ما قبل سقراط وحتى كتابه "الكينونة والزمان"، لكن اللغة التي صيغت بها والأثر الذي كان لها، ربطها بشكل واضح بالصحوة الوطنية. لم يجد مكاناً للاستقلال الأكاديمي، لكنه اعتقد أن عمل جامعة ألمانية، يجب أن يعكس معنى الإثنية والوطنية، ويشارك بما رآه، المهمة الروحية للشعب الألماني. كان كل شيء يفسح المجال أمام القيم البطولية التي تظهر من خلال الصراع. وعلى الفور بدأ بتشجيع (الغليشلتونغ) التي تكون فيها المؤسسات الأكاديمية ،خاضعة للسيطرة السياسية لنظام هتلر.

وبشكل واضح، لم تعد المعرفة الأكاديمية بالنسبة له سعياً معزولاً عن العمل السياسي، أو لها مبرراتها الخاصة، إذ كان لا بدّ من أن تُمنح هدفاً سياسياً. لقد بدأ تنظيم تدريب عسكري لكافة الطلاب، وعقد "اجتماعات عسكرية للطلاب" في كوخه في تودنابيرغ، وتم تشجيعهم فيها على ارتداء الزي النازي. وأظهر بهذا رابطاً في تفكيره ما بين الاشتراكية الوطنية، وشعوره الشخصي بكونه متجذراً في التراب الألماني. لقد أصبح حبّه الصوفي تقريباً للبيئة والطبيعة مرتبطاً الآن بما اعتبره حباً للشعب الألماني وفخراً به.

بالتأكيد، عندما قام كارل جاسبرزز بزيارة هيدجر في شهر حزيران من تلك السنة، وجده منتشياً بالثورة التي أحدثتها الاشتراكية الوطنية. كما بدا لفترة ما، ينقلب تقريباً على الفلسفة ذاتها، متذمراً من وجود عدد فائض من أساتذة الفلسفة في ألمانيا، كما رأى المناظرات الفلسفية وكأنها دليل على التردد. لقد أراد كل شيء أن يكون كل شيء متجذراً بالفطرة، بالإحساس الداخلي بالدفع، أراده متجذراً في الدم والروح.

هذا لم يكن اتجاهاً جديداً بالكامل بالنسبة لهيدجر. فهو، مثل الكثيرين في ألمانيا بين الحربين، لم يدعم بشكل فعلي جمهورية فيمر، معتبراً أنها حضارية وديمقراطية بشكل مفرط، ومشوبة بارتباطها بهزيمة ألمانيا الساحقة في العام 1918. كانت الجمهورية محكومة بالركود الاقتصادي، لأن الكساد العظيم الذي بدأ في العام 1929، كان قد ضرب الاقتصاد الألماني وأثّر فيها بسرعة وعمق أكبر من أي بلد أوروبي آخر، لأنه كان يعتمد على ديون أمريكا القصيرة الأمد، التي يتم طلبها بشكل سريع. وحكم قدوم الكساد السريع جداً بعد التضخّم الكبير في العام 1922-1923، على جمهورية فيمر بالفشل. ومع وجود ستة ملايين

عاطل عن العمل في ألمانيا عام 1932، ظهرت حاجة لشيء متطرّف. لقد بحث هيدجر عن لحظة (إثبات الذات من أجل الشعب الألماني)، مبتعداً عن الرداءة والتسوية. وربما يكون الخيار السياسي خياراً خشناً، لكنه رأى أن وصول الاشتراكية الوطنية، هو خطوة للأمام، وفرصة لبداية جديدة. وقد شهد الشهر نفسه انتخاب هيدجر كعميد للجامعة وشهد الإجراءات المتخذة ضد اليهود أيضاً، حيث تمت مقاطعة الأعمال اليهودية، ومن تاريخ السابع من نيسان، لم يعد يُسمَح لليهود بالعمل كموظفين في القطاع العام، وبهذا لا يستطيعون البقاء في مناصبهم الأكاديمية.

لكن هل كان الالتزام النازي لهيدجر مجرد خيار سياسي مؤسف، أم أنه قام به عاكساً فلسفته؟ وكما ورد في كتابه "الكينونة والزمان، فإن محور تفكيره هو العملية التاريخية. هو لا يتعامل مع حقائق مجردّة ونهائية، بل يتعامل بشكل أساسي، مع تجربة الكائن الملقاة في الزمان. يرتبط وجود الإنسان بـ (Dasein) الخاص به، وموقعه في مكان وزمان معينين، ووضعه في سياق تاريخي معيّن. إن الفناء هو المفتاح لفهم هيدجر في هذه النقطة. نحن مُقيدون بحقيقة أننا محدودون، وهذا يشكل فهمنا الذاتي وقراراتنا كلها.

نقوم بخياراتنا بناءً على ماضينا وعلى مستقبل نأمل بتحقيقه، وبهذا نشكل حياتنا. نحن نواجه العالم ونفهمه كما لو أنه أداة في يدنا لبناء (Dasein) الخاص بنا وتشكيله.

والأكثر من ذلك، أننا نضع أقنعة في التعامل مع الأوضاع والناس، وهي طرق مريحة لعدم مواجهة واقعنا الفريد. لكن الهدف بالنسبة لهيدجر، أن تكون أصيلاً، أن تكتشف (Dasein)، أن تتصرف بحسم من أجل تشكيل المستقبل. ليس هناك من قيم أساسية مدمجة بالكون، ولهذا فنحن أحرار ببناء قيمنا الخاصة،

واستكشاف عالمنا الخاص الذي نختبره. قد يؤدي ذلك إلى العدمية. لكنه يفكر بأن (Dasein) هذا، يجب أن يُفهم مقارنة بإحساس عميق بـ (اللاشيء). كل شيء مشروط جذرياً. نستطيع أن نفهم ذواتنا فقط من خلال الزمن، وفي ضوء موتنا الخاص فقط. لا شيء معروف بأي معنى أبدي أو أساسي، وليس هناك من مستوى أبدي أو مطلق ليتم اختباره، وبكلمات أخرى، يُعرَفُ كل شيء بمحدوديته، وكما يظهر لنا.

إن تحمّل مسؤولية القرارات الشخصية بتشكيل مستقبلنا، أمر أساسي بالنسبة له. يكون الشخص الأصيل في وضع تاريخي خاص، قادراً على الإمساك بزمام القيادة وعلى التوجيه والتحرك الديناميكي. لا يحتاج المرء إلى قفزة كبيرة بخياله، ليدرك أن الفوهرر والحزب الاشتراكي الوطني، كانا المثال عن الحسم، وعن تأكيد الذات للشعب الألماني، من ناحية قَدَرهم التاريخي. كان يبحث في فلسفته عن تصميم وحسم، وهي صفات البطل الأصيل. وبالنظر إلى تحدّيات اللحظة التاريخية، تطلّبت الأصالة فهم المرء لقدره.

لم يكن مفاجئاً أنه رأى في الثورة الوطنية بزعامة هتلر، مجرّد تأكيد على القَدَر التاريخي للألمان. يوجد في ادعائه هذا، تغاض عن الطبيعة الأساسية لفلسفته، لأنه كان مصيباً في فلسفته، لكنه مخطئ بالتزامه السياسي، كما لو أنه لم يكن للفلسفة دور أساسي تلعبه في تعاطفه النازي.

لقد عَلِقَ لفترة ما بحلم أفلاطون بالملك الفيلسوف لعله رأى نفسه يقدم الدعائم الفلسفية كلها إلى الحزب الاشتراكي الوطني. كان وعده بولادة جديدة للأمة الألمانية، مناسباً أيضاً لانعدام ثقته بالثقافة الليبرالية العالمية. ربما كان في الواقع ساذجاً، لعدم إدراكه أن طلابه الشباب الذين يرتدون زي شباب هتلر،

ويلتقـون في معتزلـه في تودنـابيرغ، قـد يرتكبـون فظـائع، لكـن تصميمه والتزاماتـه بـه، قـد تم بكـل القـوة والـدعم الـذي جعلتـه الفلسفة مستعداً له. لقد أعطاه ارتفـاع نجـم هتلـر، لحظـة للحسـم لتأكيد (Dasein).

ربما يمكن مسامحة هيدجر في سياق تلـك اللحظـة التاريخيـة، على نظرته الأولية حـول قـدرات الصـحوة الوطنيـة. ربمـا بسـبب تأثره بنيتشـه، رأى قـيم تأكيـد الحيـاة في فلسـفته، حـلاً مناسـباً لأوروبا التي مزقتها الحرب العالمية الأولى، وبدت وكأنها تغـرق في العدمية. لقد أراد وقف هذا التدهور وتعزيـز القـيم البطوليـة، لكـن مع الأسف، تأتي اللحظة بالرجل الخطأ، ألا وهو هتلر.

قام ريتشارد وولين، الأكاديمي الـذي تفحّـص العلاقـة مـابين أفكار هيدجر وتصرفاته في العام 1933، بتقديم الانتقاد الأساسي لفلسفته. جادل بأنـه لم يؤسـس معيـاراً يميـز مـن خلالـه الـدعوة الأصيلة للضمير، عن الدعوة غير الأصيلة. وبكلام آخر، إن فلسفته هي الفلسفة القادرة على تعزيز الحسم، لكن مع عدم وجود إرشـاد موضوعي، حول ما هو الشيء الـذي علـى المرء أن يكـون حاسمـاً بشـأنه! إن تأكيـد الـذات وتطـوير (Dasein) ليسـا بحـد ذاتهمـا ضمانة للسلامة الأخلاقية، ولا يرتبطان بأي نظام أخلاقي أو قـيم. إن كان مصطلح "الرغبة بالسلطة" (وهو المصطلح البطولي لنيتشه)، هو المعيار الوحيد الـذي يمكـن محاكمـة التصـرّفات بـه، عنـدها، سينحدر العالم بشكل سريع نحو فوضى صـراع ضـخم وحالـة مـن التدمير المتبادل.

كانت نتائج إعادة تشكيل الجامعة بما يتناسـب مـع متطلبـات الاشتراكية الوطنية، مؤلمة وعميقة. كان هيدجر حتى ذلك الوقت، قد علّم العديد من الطلاب اليهود بمن فـيهم هانـا أرنـديت، الـتي كانت قد تزوجت حينها وغادرت ألمانيا، قبل أن تثبّت قدميها في

الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هيدجر كرئيس للجامعة، قادراً على منع الطلاب اليهود من الحصول على شهاداتهم، كما وافق أيضاً على منع هاسرل من استخدام مكتبة الجامعة. لا بدّ أن تكون هذه الخطوة المتطرفة ضدّ هاسرل، الرجل الذي كان معلمه لسنوات، مؤلمة جدا. وقد كتب برسالة مؤرّخة في 4 أيار من العام 1933: "في السنوات الأخيرة، كان قد سمح لمعاداته للسامية بالوصول إلى السطح بشكل متزايد، حتى في تعامله مع مجموعاته من الطلاب اليهود المخلصين. لقد صدمتني الأحداث التي جرت في الأسابيع القليلة الأخيرة، في أعمق جذور تجربتي".

على المستوى الشخصي، قطع هيدجر صداقته مع كارل جاسبرز، الذي سانده وأقام علاقة صداقة مع هانا أريندت (دون معرفة درجة علاقتهما). كانت زوجة جاسبرز يهودية، وعاشا في خوف من الاعتقال طوال فترة وجود النازية، لدرجة حملا فيها أدوية من أجل الانتحار، لكن هيدجر لم يفعل أي شيء للمساعدة. كان عليه أن يضع المجتمع الأكاديمي وعلاقات الصداقة جانباً، في مصلحة موقف الحزب الاشتراكي الوطني المعادي للسامية.

كان في نهاية ذلك العام لا يزال متحمساً لقضية النازية. وقد أنهى "مناشدته للطلاب الألمان" بالكلمات التالية: "**لا تدع الافتراضات (الأفكار) تشكّل قانون وجودك. الفوهرر نفسه ولوحده، هو حاضر ومستقبلِ الواقعِ الألماني وقانونه**". لقد أعلن أن "**هذه الثورة تحقق تحولاً كاملا لوجود ألمانيا**". لدينا هنا ارتباط واضح بفلسفته، لأن "الوجود" في هذه النقطة، يشير إلى "Dasein". لقد رأى أن ما كان يحدث، ليس مجرد تغير في النظام السياسي، بل تحوّل أساسي في إدراك الذات الوطنية. بالنسبة لهيدجر وبشكل واضح، كان هتلر في الإحساس العميق، تجسيد لألمانيا. لقد اختتم محاضرته بعبارة "يحيا هتلر!"

لم يكن هذا خطأ سياسياً سطحياً. على الرغم من أن هذا الخطأ لا يجعله مسؤولاً عن الفظائع التي تلت ذلك، إلا أنه كان مذنباً بإعطاء شرعية فلسفية للإيديولوجيا النازية البغيضة بالمطلق. ليس هذا تصريحاً بأن كتابه "الكينونة والزمان" كان بطريقة ما مسؤولاً عن تطوّر الاشتراكية الوطنية أكثر من مسؤولية روسو "العقد الاجتماعي" عن الثورة الفرنسية، لكن وبكل تأكيد، يتصرّف الفلاسفة بشكل جيد عندما يدافعون عن احتمال سوء استخدام أفكارهم. مع روسو، كان لدينا الفيلسوف الذي استُخدِمت أفكاره لتبرير الفظائع التي حدثت في الثورة الفرنسية، ولتبرير القمع (باسم الشعب) في الأنظمة اللاحقة، ومع هيدجر، على العكس تماماً، لدينا الفيلسوف الذي قدّم أفكاره عن عمد لخدمة الثورة. هو لم يرَ أفكاره وقد أُسيء استخدامها، لكنه آمن بأن ساعتها قد حانت، وأنه بحد ذاته، الملك الفيلسوف في عالم جديد رائع، حيث ستأتي به الثورة النازية للشعب الألماني.

من حسن الحظ أن آخرين كانوا قادرين عى أخذ أعماله وتطبيقها بشكل مختلف جداً. رودولف بولتمان و بول تيليتش، اللذان عملا إلى جانب هيدجر في ماربورغ، كانا قادرين على استخدام عمله، بتفسير انتقادي لأدب العهد الجديد، وبتفسيرات اجتماعية وليبرالية للاهوت المسيحي. سارتر وآخرون، والذين كانوا مُلهمين بعمله على الرغم من ارتباطاته النازية، أدركوا أنه أعظم بكثير، و له أهمية عالمية أكبر بكثير من القضية التي اختار هو ذاته، تطبيق فلسفته بها في تلك الأشهر العصيبة في العام 1933.

وبسرعة، بدا واضحاً أن الحزب النازي لم يكن مستعداً لتبني هيدجر كمستشار فلسفي، وفي نيسان من العام 1934 قادته النزاعات ما بين أعضاء هيئة التدريس ومسؤولي الحزب النازي

للاستقالة من رئاسة الجامعة. لم يمض وقت طويل حتى دخل في مناقشة انتقادية مع الحزب الاشتراكي الوطني وأصبح هو نفسه تحت مراقبة الغستابو. لكن الضرر كان قد أصاب سمعته في ذلك الحين. قال أحد زملائه في الكلية ساخراً: "هل عاد من سيراكوس؟ – إشارة إلى أفلاطون، الذي ذهب إلى صقليّة على أمل هداية ديونيسوس الشاب إلى العدالة والفلسفة. وقد فشل أفلاطون وبقي ديونيسوس طاغية. لم يكن هيدجر أوفر حظاً مع هتلر. ترتكز الكثير من أعمال هيدغر في تلك السنوات، على تفسيراته لنيتشه، وقد ألقى عنه سلسلة محاضرات. كان من المهم له بشكل واضح، إظهار وجهات نظره عن نيتشه، لأن جوانب معيّنة من فلسفة نيتشه، كان النازيون يستخدمونها في محاولة – تخلوا عنها لاحقاً – لتوظيفها في (الفيلهالا) [1] النازية.

في نهاية الثلاثينيات، زال الوهم عنه بما يتعلق بالتوجّه الذي اتخذته الحركة النازية، على الرغم من أنه لم يتنصّل من وجهات نظره السابقة، لأنه وفي محادثة له مع كارل لويز في العام 1937، بقي يجادل بأن الاشتراكية الوطنية كانت المسار الصحيح للأمة الألمانية. لا يزال المدى الذي حاول به إبعاد نفسه عن الحزب النازي، يشكل نقطة خلاف. ربما بسبب رؤيته لنفسه ولفترة وجيزة، على أنه بطلهم الفلسفي، أصبح مهتماً بتبرير وجهة نظره الأساسية حول الثورة الوطنية الألمانية، وبالتالي محافظاً على صلاحية التزامه الأصلي، حتى ولو أبعد نفسه عن معاداتها الفكرية الصارخة.

---

[1] الفيلهالا: في الأساطير القديمة، وكما كان الاعتقاد سائداً، هي قاعة يجتمع فيها الأبطال الذين قُتلوا في المعركة، ويقيمون الولائم مع "أودين" وهي ولائم مستمرّة إلى الأبد. أما في سياق هذا الكتاب، فأعتقد أنها قاعات تخص الحزب النازي، يتم فيها التحضير للطرق التي سيستخدمها الحزب في الإقناع أو القمع. المترجم.

لم يعترف أن العام 1933، مثّل "خطأه الأعظم" إلا في مقابلة مع (ديرشبيغل) في العام 1966 – المقابلة التي لم يتم بثّها إلا بعد وفاته. بشكل خاطئ، كان قد رأى أن الصحوة الوطنية تحت قيادة هتلر، كتصرف من التأكيد الذاتي، وربما كتعبير عن (الرغبة بالسلطة) وقدوم (السوبرمان) الذي تحدث عنه نيتشه.

مع قدوم الحرب، تابع عمله كأكاديمي، باستثناء فترة تشرين الثاني من العام 1944، فقد تم سحبه إلى (العاصفة الوطنية) لحفر الخنادق المضادة للدبابات حول نهر الراين. في الشهر التالي، قُصِفَت فريبيرغ واتخذ ملجأ له في ميسكيرش، بينما انتقلت هيئة التدريس بذاتها إلى منطقة (شلوس وايلدنستين) القريبة. وفي شباط التالي، قُصِفَت ميسكيرش نفسها، وفي شهر نيسان، احتلّ الفرنسيون المنطقة. بالنسبة لهيدجر، أتى الوقت ليستقيل من الحزب الاشتراكي الوطني.

كان قادراً في البداية على الاستمرار بعمله، وقدّم محاضرة عن فريدريك هولدرلين في حزيران. لقد حاول الفرنسيون في الشهر ذاته، ترتيب لقاء ما بين هيدجر وسارتر. لم يؤتِ اللقاء ثماره، لكنّ الفيلسوفين تمكنا على الأقل من التواصل، وبدأا مرحلة المراسلة. ولسوء حظ هيدجر، لم يستمر هذا الموقف المتعاون من السلطات لفترة طويلة.

حوالي نهاية شهر تموز، أصبح هيدجر موضوع جلسات الاستماع لدى لجنة (إزالة النازية). ولهذا، كتب صديقه السابق كارل جاسبرزز، تقريرا عن تورّط هيدجر في الحركة الاشتراكية الوطنية، مقترحاً أنه كان بريئاً سياسياً، وقد عَلِق في الحركة، ويجب أن يُسمح له بالكتابة والنشر، دون أن يُسمَحَ له بالتدريس، كما أنه لم "يدرك عمق خطئه السابق، ولهذا لم يحدث لديه تغيير حقيقي، بل كان هناك لعبة من التحريف والمحو". ولحسن

حظ هيدجر، وافقت اللجنة مع جاسبرزز، الذي تصرفٍ بكرم عظيم، لكون هيدجر لم يتصل به إلا عندما سقط شخصياً واحتاج للمساعدة، وقد تجاهله وتجاهل زوجته خلال كل تلك السنوات التي كانا مُعرضين فيها للأذى. حتى هيئة التدريس في فريبيرغٍ، اهتمت بقضيته وقدّمت له مجموعة من ثلاثة وعشرين سؤالاً، يطلبون الأجابة عليها. لكن هذا كان أكبر من قدرة هيدجر على الاحتمال. لقد حدث معه انهيار عصبي، وأُدخل المستشفى لعلاج الاكتئاب، وربما حاول حتى أن ينهي حياته.

مع منعه من إلقاء المحاضرات في الجامعة، تابع الكتابة، وكان قادرا في بعض المناسبات على إجراء الخطابات. تقدم لمنصب فخري، وتمت الموافقة مبدئياً من قِبَل الجامعة، لكن تم رفض القرار من قِبَل السلطات ولجنة (إزالةَ النازية). وفي نهاية العام 1946، جرَّدته جامعة فريبرغ من شهادته كبروفسور.

في العام 1947 نشر كتاب "رسالة في النزعة الإنسانية"، عنوان يلمّح إلى عمل سارتر المشهور "الوجودية نزعة إنسانية" الذي تم نشره في السنة السابقة. سعى في هذا الكتاب لتمييز الظاهراتية الخاصة به عن الوجودية الفرنسية. لمٍ يرغب أن تتم رؤيته كفيلسوف وجودي – لم يكن واضحاً فيما إذا كان السبب في ذلك، لأن عمله الخاص مختلف جداً عن الوجودية، أم لأنه ببساطة لا يريد أن يُعرف بما أصبح فرنسياً ونهجاً يسارياً جداً. وبهذا العمل اعترف أيضاً بـ "تحول" في فلسفته، متجاوزاً المواضيع التي طرحها في كتاب "الكينونة والزمان". ولذلك، فمن الشائع سماع إشارات إلى هيدجر "اللاحق" (كما يشير المرء ربما إلى الأعمال اللاحقة والسابقة لوتغنشتاين). إن حدث هذا التمييز، فسيكون لدينا مصاعب، لأن الأعمال الأولى تجسدّت في عمل واحد على قدر كبير من الأهمية، في حين

كانت الأعمال اللاحقة، عبارة عن سلسلة من محاضرات وأبحاث تدور حول سنوات ما بعد الحرب.

لكن الماضي لم يُنسَ. كتب هربرت ماركوس إلى هيدجر في العام 1947 طالباً تصريحاً واضحاً عن وجهة نظره في الهلوكوست. كانت الإجابة هي أنه لا يمكن اتهام النازيين بالإبادة الجماعية، إلا إذا تم توجيه التهمة ذاتها للحلفاء، بسبب معاملتهم للألمان الشرقيين. أياً كانت وجهات نظر المرء بالنسبة للحلفاء، فليست هذه إجابة شخص ابتعد تماماً عن ميوله السياسية الماضية.

أنتج هيدجر مفهوماً واحداً مهماً في عمل لاحق له وهو مفهوم "التأطير". بتفحصنا للعالم، نفهم الأشياء حسب فائدتها لنا، وكيف يمكننا أن نتلاعب بها، وكيف تساعدنا في الوصول إلى أهدافنا. نحن لا نرى الحياة بموضوعية، لكننا نؤطر كل تجربة بطريقة نجعلها مفيدة لنا. عالمنا هو مجموعة أوضاع تتم قولبتها لتناسب ما اخترنا القيام به. كما أننا بالطريقة التي نقدم أنفسنا فيها للعالم، نرى أنفسنا قادرين على تقديم خدمات للآخرين. أريد أن يكون لي دور وهدف، ولهذا أنا أجعل نفسي (أؤطر نفسي) بالطريقة التي تجعل من ذلك ممكناً.

هذا المفهوم أيضاً، ليس حراً من الارتباط بماضيه السياسي. على الرغم من عدم السماح له بتقديم محاضرات أكاديمية، كان قادراً على أن يتحدث في مناسبات مختلفة، وكان "التأطير" هو عنوان أحد تلك الخطابات التي تمت في (بريمين) في العام 1949، وفيه شبّه عملية الإنتاج الصناعي بمعسكرات الموت. في دراسة جورج باتشن لأعمال هيدجر اللاحقة، أقتبس منها التالي: **"الزراعة الآن هي صناعة غذائية آلية – وفي الجوهر، تشبه تصنيع الجثث في غرف الغاز ومعسكرات الإبادة، تشبه تجويع الأمم، وتشبه صناعة القنابل الهيدروجينية".**

هناك الكثير من الطرق لتفسير وجهات النظر هذه. على أحد المستويات، يمكن ربط فظاعة الهلوكوست بشكل عَرَضي، بعمليات آلية أخرى. لكن ألا يمكن قول الشيء نفسه بإخلاص، عن القنبلة الهيدروجينية؟ لربما يستطيع الإنسان حينها أن يقبل أن هيدجر، كان في الواقع، يسبر الأساسات الأعمق لوجودنا كأفراد وكمجتمع. بالطبع، جعلت التكنولوجيا الحديثة تنفيذ الهلوكوست ممكناً، على الرغم من وجود أمثلة كثيرة في التاريخ، عن مذابح لم تعتمد تلك الطرق، لكن هل يقلل ذلك أي شعور بالرعب لدينا؟ هل يجعل من تلك الأعمال مبتذِلة أو تافهة، تعتمد مقاييسها على الأدوات التي نستعملها وننفذ بها؟ قد يرى المدافعون عن حقوق الحيوان، أن معاملة الحيوانات في مزارع تربيتها، تضاهي الهولوكوست. يجب أن يتم الحكم بناءً على ما إن كانت هذه التعليقات، تعبّر عن موضوعية فهم هيدجر للبنى الأساسية للمجتمع الإنساني، أم هي محاولات متعمّدة للهروب من عبء دعمه للنازيين، عبر نشر حمولة الإنسان من التعاسة، على نطاق واسع.

في العام 1948، كتب جاسبرز الذي كان في سويسرا في ذلك الحين، رسالة لهيدجر متسائلا إن كان بالإمكان إعادة بناء العلاقة بينهما فقال: "أحييك من الماضي البعيد فوق هاوية الزمن، متمسكاً بشيء كان موجوداً"، وأجاب عليها هيدجر ممتناً لكنهما لم يُقاربا موضوع النازية حتى العام 1950. عندها قال هيدجر في رسالة شهيرة، إنه لم يتوقف عن رؤية جاسبرز لأن زوجته كانت يهودية، بل لأنه كان يشعر "بالخجل". كان جاسبرز في البداية مبتهجاً لأن هذا يبدو توبةً، وقد رآه كشخص تم تضليله بحماقة. لكن هيدجر تابع مهاجماً أولئك الذين يعملون على تخريب ألمانيا حالياً، مقارناً معاناة الألمان بمعاناة اليهود. وأعلن أن إنقاذ ألمانيا

يتم فقط بمجيء شيء صوفي، أو شخص صوفي. كان هذا أكثر من قدرة جاسبرز على الاحتمال، ورأى أن هيدجر معادٍ للفلسفة، وقد ضاع في النازية من غير رجعة.

ربما على المرء أن يكون خيّراً نحو هيدجر: لو كان شخصاً أكثر دناءة، لبقي صامتاً على الأقل. من الممكن اتخاذ تعليقاته المشيرة إلى الطبيعية الميكانيكية واللا إنسانية للإبادة، لتوضيح التأثير العام للتكنولوجيا. لكن إنشاء هذا الربط، بغياب أي تعبير آخرِ عن الفظائع التي حدثت سابقاً، هو إهمال يمكن غفرانه لمفكر أقل صرامة منه. لكن اتخاذ وجهة نظر لا إنسانية كهذه حول الهلوكوست، من فيلسوف لديه إصرار علىٍ الفهم الذاتي للإنسان، بإدراك المحدودية والموت، تُظهِر فشلا عميقا يرتبط بالواقع الذي وصفه.

لا توصلنا النظرية الأخلاقية إلى سلوك جيد، بأي معنى يمكن من خلاله فهم كلمة "جيد". تضع النظرية الأخلاقية إطار عمل عقلاني فقط، تُؤخَذُ فيها المسائل التي تعتبر "جيدة" بعين الاعتبار. وبطريقة مشابهة، تضع الوجودية إطار عمل لتفحّص معنى حياة الإنسان، إن لم تصف هي بحدّ ذاتها، كيف على البشر أن يتصرفوا. بهذا المعنى، تصبح الوجودية محايدة بما يتعلّق بالسلوك الجيد أو السيئ.

إن كان هناك من تصرّف سيء من جهة هيدجر، فهي استخدامه المتعمّد لفلسفته، لمساندة حركة سياسية معينة، تلك الحركة التي استطاع الكثيرون في ذلك الوقت أن يروها علىٍ أنها مدمّرة للبيئة الأكاديمية والفلسفية، والتي كان سعيدا بكونها تطوّر أفكاره.

وبالإجمال، فإن تعليقات ما بعد الحرب تلك، يمكن تبريرها بأسوأ الأسباب، وتحديداً، بأنه كان يفكر بهذا الأمر بمستوى عال من التجرّد أو العمومية، وبشكلٍ تبدو فيه الحقائق الثابتة، حتى الإبادة الجماعية، أمراً تافهاً. ويبدو الأمر تقريباً كما لو أن أفلاطون، بعودته إلى الكهف مع زملائه السجناء، يرى الهلوكوست ممثلة في صور على جدار الكهف، لكنه لم يعتبرها أكثر مظهر آلي وسيئ الطالع، لحياة سطحية إجمالاً.

وبما أنه أشار إلى مخاطر التأطير — اتخاذ مواضيع التجربة، لتُستغلّ أو يتم التلاعب بها — فربما كان قد جادل بأن الهلوكوست كانت نتيجة "تأطير" قضايا اليهودية والقومية الألمانية. ولئن كان الأمر كذلك، فيمكن إذن، على الأقل، تقديم الهلوكوست كمثال على النزعة الخطيرة في ميول فكر الإنسان، للتلاعب والتنظيم من أجل منفعته الخاصة. لكنه ظهر بأن هيدجرٍ لم يتخذ تلك الخطوة، ولذلك لم يتم تفحّص الهولوكوست جيداً في فكره اللاحق.

هناك إمكانية أخرى، وهي تطرح أسئلة خطيرة حول عمل هيدجر المبكر. يقترح باتيسون في دراسة له عن هيدجر، أن المشكلة الأساسية كانت أنه، قد ميّز البنى الأنطولوجية العميقة للحياة، عن الخاصة والسطحية، لكنه، وبسبب حماسته، نسي بعدها ذلك التمييز، في النقطة التي طبقّها بها بشكل مباشر على الاشتراكية الوطنية.

إن أقرب ما وصل إليه في إدراكه لذلك، كان في العام 1935، في محاضرة عنوانها "مدخل إلى الميتافيزيقيا"، حيث قارن الفلسفة الفعلية للاشتراكية الوطنية، بالشكل الذي كانت تتطور به في ذلك الوقت، مع ما أسماه "الحقيقة الداخلية وعظمة هذه الحركة (وبالتحديد، المواجهة ما بين التكنولوجيا العالمية والإنسان

المعاصر)". ربما كان عليه أن يعتني أكثر بالتمييز الذي قام به في عمله السابق ما بين "المثالية" الأنطولوجية و "الواقع" الحقيقي، والذي قد يكون منع الالتباس ما بين الشكل المثالي والشكل الواقعي من الاشتراكية الوطنية. ولئن كان الحال كذلك، فقد نجدها زلّة في الإدراك الفكري، تحققت من خلال قناعات عاطفية عميقة، وتغاض متعمد عما هو غير مقبول. أما إن كانت زلّة كهذه تشكل سلوكاً سيئاً بالنسبة لفيلسوف في مكانته، فهو أمر قابل للجدل.

لقد تم نشر (كتابين تذكاريين) للاحتفال بعيد ميلاده الستين في العام 1949، وكانت تلك السنة الأخيرة أيضاً من صمته الرسمي، لأنه عند نشر التقرير الأخير عنه من قِبَل السلطات الفرنسية، عرف بأن أمر الحظر على عمله التدريسي قد انتهى. وبهذا، فقد شهد في الفصل الدراسي الشتوي من العام 1950، عودته إلى منصبه التعليمي في جامعة فريبيرغ، وكانت أول سلسلة محاضرات، هي الأخيرة أيضاً قبل استقالته بشكل رسمي. وقد صوّت بعدها مجلس الشيوخ لمنحه منصباً فخرياً بصفة بروفسور، حيث كانوا كرماء معه أكثر مما كان كريماً مع هاسرل.

في العام 1950 عادت هانا أرنديت من أمريكا إلى ألمانيا وتصالحت مع هيدجر. ولكن انقلبت حظوظهما هذه المرة. فمع تكوينها لسمعة عالمية، كانت قادرة على مساعدته بنشر آمن لعمله في الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كانت فيما سبق، من الأكثر انتقاداً له على موقفه المؤيد للنازية، على الرغم من أنها رأتها تعبيراً جزئياً عن الرومانسية الألمانية. وكانت تقوم الآن بكل ما في وسعها لتقليل أهمية عناصر تأييد النازية، كما نقحت نقدها السابق. بالنسبة لها، كانت مصالحتهما عبارة عن إتمام الافتتان السابق لها. كان هيدجر ضعيفاً وبحاجة للمساعدة، وكان لها علاقات ونفوذ ويمكنها مساعدته.

هكذا بقيا على اتصال أحدهما بالآخر لكامل الفترة المتبقية من حياتهما. وعلى أية حال، من الواضح أن هيدجر لم يرد أبداً أن يعترف بنجاحها كفيلسوفة، ولم يمنع هذا تفسيرها المتسامح لسلوكه. أما كتاباتها المتعلقة بالنازيين والهلوكوست، والمتضمنة إحساساً بتفاهة الشر، فيظل مثار جدال. ومن المفارقات أن أريندت بدلاً من هيدجر، هي من توجّهت نحو القضايا الأساسية في الفلسفة السياسية، حتى بمنحها الدعم، لم يكن قادراً على إعادة النظر بماضيه بأية طريقة منظمة. وقد توفيت أرنديت فجأة في مانهاتن في 4 كانون الأول 1975. ولم يعش هيدجر لوقت طويل.

غطّت أعمال هيدجر اللاحقة، أنواعاً مختلفة من المواضيع المهمة بشكل كبير فلسفياً واجتماعياً. كان منتقداً جداً لمكننة وتصنيع كافة جوانب الحياة، وكان يرتاب للغاية بمجتمع الرعاع ونظرته السطحية. وكان مهتماً بشكل خاص بالفن - من حيث سويات الواقع التي كان قادراً على أن يستكشفها، لكن أيضاً مع الاعتراف بالقيود المفروضة بسبب طبعيته المحددة. وعلى الرغم من أنه استمر بكتابة المحاضرات وتقديمها بعد تقاعده، فقد كان في نهاية حياته منشغلاً في تنظيم نشر كامل إنتاجه، وليس هناك من عنوان واحد من تلك المرحلة الأخيرة يضاهي في الأهمية كتابه "الكينونة والزمان".

في العام 1959 أصبح هيدجر مواطناً فخرياً في بلده في ميسكيرش. وبحديث له عن مفهوم "المنزل"، أشار إلى أنه لدى مشاهدة المرء للتلفاز في منزله الخاص، لا يكون المرء في الوقع "في منزله" بل يكون في المكان الذي يُعرض فيه البرنامج التلفزيوني. قال: **"هناك خطر من أن ما يسميه المرء (منزل)، سوف يذوب ويختفي"**. كان يخشى من انتقال الإنسانية إلى حالة من التشرّد،

حيث أصبح العالم ببساطة، مجرد ملاذ. وإذا كانٍ على حق، فسيكون هذا التهديد المطلق "للتأطير"، يتناقض تماماً مع طفولته في ميسكيرش، حيث كان يعمل كصبي لخدمة الكنيسة ويساعد والده في عمله في المقبرة.

في مقابلة له مع ديرشبيغل في العام 1966، حاول على الأقل، شرح ارتباطه بالحركة النازية. وقد قال في هذا الموضوع إنه شعر بأن الديمقراطية لا تكفي كإيديولوجية سياسية، لتتعامل مع تأثير التكنولوجيا على المجتمع. وبشكل واضحٍ، فضّل الاشتراكية الوطنية، لكنه انتقدها لكونها ضيقة الأفق جَداً في تفكيرها. ربما يعكس هذا فشل الحزب النازي، بالارتقاء إلى مستوى آماله في الاشتراكية الوطنية في مطلع الثلاثينيات. لو أمكن لهذه المقابلة أن تنشر قبل عشرين سنة مضت، لربما ساعدت بالحفاظ على سمعته في فترة ما بعد الحرب.

توفي هيدجر في 26 أيار من العام 1976 ودفن بشكل لائق بما فيه الكفاية في ميسكيرش. لقد دارت العجلة دورة كاملة.

كيف يمكننا تقييم "تصرّفه السئ؟" سيكون من غير الواقعي تصوير هيدجر إلى حد ما، كموافق على كل الأفعال التي ارتكبها النازيون بعد ذلك. لم يكن بمقدوره في بداية الثلاثينيات توقع مدى فظائع الحكم النازي ووحشيته. لقد أثار باتيسون هذه النقطة بقوة في كتابه الذي أنجزه حول هيدجر (هيدجر يتحدث عن الموتٍ — مقالة لاهوتية نقدية). وعلى أية حال، من المثير للقلق جداً، معرفة أنه لم يفعل الكثير لتحييد نفسه عن الأيديولوجيا التي أدّت إلى تلك الأحداث، بعد الحرب والكشف عن الهلوكوست. إن المعضلةِ هي أنه، بحسب فلسفته الخاصة، كان هناك لحظات يتشكّل فيها "Dasein" المرء. وإحدى تلك اللحظات بالنسبة له، كانت في العام 1933، في توقه إلى بداية

جديدة وتأكيد ذاتي للشعب الألماني. كان اعترافه بأنه كان مخطئاً بالمطلق يتطلب الكثير من الشجاعة، ولم يكن قادراً على فعل ذلك إلا في لحظة دنو أجله.

إن "تصرفه السيء" بما يتعلق في معاملته لأرنديت، ليس أسوأ من تصرفات أي شخص آخر. لا يعيق (الزنا) الإنسان عن تقديم فلسفة جيدة. ربما من الصعب التغاضي عن تصرفاته المتعلقة بالتمييز ضد الطلاب اليهود وزملاء الكلية، والأسوأ على الإطلاق، تصرفه ضد هاسرل إن إهداءه كتابه "الكينونة والزمان" إلى هاسرلٍ، ومن ثم إزالة الإهداء بعد ذلك، هو تصرّف تافه يتضمن تستراً على دين فكري وشخصي أصبح مُحرجاً بالنسبة له، لكنه بالوقت نفسه تصرّف مرير. كان من المفترض أن يكون مدركاً، لكونه في تأييد الاشتراكية الوطنية في الجامعة، سيكون المجتمع اليهودي هو من سيدفع الثمن.

لعل الأمر الأكثر مدعاة للقلق هو الاعتراف — والذي وجدناه لدى نيتشه وللسبب ذاته — بأن الفلسفة بشكل خاص، وحيث يتعلق الأمر بفهم الذات وتأكيد الذات الشخصيين، تكون ذات تأثير مباشر من الناحية العقلانية والسياسية. وإذا كانت انتقادات وولين والآخرين مقبولة، فهناك عبء مريع، يقع على عاتقٍ الفلسفة الوجودية لهيدجر — عبء منح الأشخاص إرادة ودافعاً، دون منحهم توجّهاً واضحاً. لكن من دون وجود معايير لتقييم تأكيد الذات، سيكون كل شيء ممكناً. ويصبح التفكير الوجودي غطاءً مناسباً لأي شكل من أشكال سوء التصرف، لكونه فشل بتأسيس معيار مناسب لتقييم السلوك. إن الوجودية هي الشريعة الفضفاضة للفلسفة.

قال نينيان سمارت معلّقاً على هيدجر: "لديه نوعه الخاص من القومية"، كما وصفه بأنه "الحكيم". وقد يختصر هذا الأمر صعوبة

تقبّل هيدجر وعلاقته بالنازية. بالنسبة لبعض الفلاسفة، الذين يتضمنهم هذا الكتاب، فإن الإحساس بالاستحقاق الذاتي تأسس في السنوات المبكّرة من خلال الأهل الشغوفين أو الأوصياء أو الجدّ والجدّة — اعترف كلٌ من روسو وسارتر في سيرتهما الذاتية، أنهما واجها عالم البالغين، وهما متأكدان من أن عليهما التحدث فقط ليتم الاعتراف بهما كأشخاص رائعين. كانا محنكين فطرياً، ولا يمكن قول الشيء نفسه عن هيدجر. لقد كبر متجذراً في المجتمع الريفي وتمت مساعدته تدريجياً في المجال الأكاديمي عبر الكنيسة الكاثوليكية. إنه بشكل جوهري صبي ريفي لم يفقد إحساسه بهوية ذلك المكان وثقافته المحافظة الطبيعية.

لكن تمت معاملته كحكيم لكونه كان يتحدث بقوة، ولديه قابلية لينشر سحره علي الآخرين، مما شكل له شعبية هائلة بين الطلاب، واجتذب عدداً من الفلاسفة. إن الإغواء لدى كل حكيم هو الاستغناء عن التقييم الذاتي النقدي، والبدء بالإيمان بتملّق الأتباع له بأنه مستحقّ. وربما وصل هيدجر بذاته الأوسع، وكمجسّد للوطنية الألمانية، إلى الحدّ الذي استطاع به أن يرى نفسه بصدق، على أنه الصوت الفلسفي للاشتراكية الوطنية، وكان قادراً بسبب هذا، تعليق محاكمته النقدية لهتلر. ولاحقاً، بالمواجهة مع أهوال القضية التي تبنّاها يوماً، سيكون منحرفاً في تعليقاته وغير راغب بالتخلي عن إحساسه العميق بالتقاليد التي كان قد كبر عليها. لقد فضّل البقاء في ذلك المستوى من الغموض، بشكل يستطيع فيه رؤية الهلوكوست كمثال على شيطانية التكنولوجيا، بدلاً من مواجهة واقعيتها.

لم يتحقق أمله بعودة الشعب الألماني وهويته الثقافية — في الواقع، كانت قد تضررت بشدّة بسبب الرجل والحزب اللذين أيدهما. ربما كنتيجة، استمر بالإيمان بأنه كان هناك قضية يجب

حلها، ولا يمكن نبذها بسبب سلوك النازيين الحقيقي. في حين أنه في كتاب "الكينونة والزمان"، جادل بأن كل خيار وكل "Dasein" متجذر في الوقت والزمان. لقد وقع في فخ التغاضي عن الواقع الوحشي للنظام النازي، وإسقاط أمل إحياء الوطنية عليه، الأمر الذي كانت جذوره بحاجة لها.

في الوقت نفسه الذي كان فيه هيدجر، الساحر الأكثر تحدياً في غرفة المحاضرات، ينشر الأفكار، لكنه يجبر الطلاب على التفكير بالأشياء بأنفسهم، يبهرهم، لكنه لا يلقّمهم، كان يتوق أيضاً لحياة المزارع الريفي البسيطة، يتوق لانسحابه من الحياة.

أين كان منزله الحقيقي إذن، فريبيرغ أو تودنبيرغ؟ هل كان المثقف الملتزم بصدق، أم كان الفلاح الذي يريد حياة بسيطة؟ يبدو أن المسار الثاني هو الذي دفعه أكثر، لتقييم إيجابي للاشتراكية الوطنية. – ولعله، حتى اعتبر أن اليهود يمثلون ما هو عالمي وفكري. وجد أن رقياً كهذا مشوقاً بما يكفي ليجذبه – سواء أكان في شخص مثل هانا أرنديت (التي كان من الواضح أنها على النقيض تماماً من زوجته الجرمانية بشدة) أم في الإغواء المبكر ليقدم طلباً للحصول على منصب في برلين. وما إن تيسر المنصب له، حتى بات قادراً على قول إنه يفضّل البقاء في جامعة ريفية. كما أنه بقي قرب كوخه في تودنبيرغ وقرب مسقط رأسه. وإذا جسدت أفكاره نوعاً من الثقافة الوطنية الألمانية، فهذا ليس مفاجئاً أبداً، لأنها شكّلت "محور عالمه".

سواء كان هيدجر يقدم المحاضرات أو يقدّم نفسه (بسراويل جلدية)، فقد كان كلاهما مناسباً له، وقد شكّل الدمج بينهما فلسفته. كان تأييد الإيديولوجيا السياسية المعادية للسامية، بعد الاستمتاع بفوائد عشيقة يهودية ومعلّم يهودي، صفعة من النوع

الأسوأ من نكران الجميل. لكن ذلك كان نتيجة لبعض الأفكار الرومانسية العميقة لديه بما يتعلّق بجذوره وجذور الحضارة الألمانية لديه.

عقدة هلواز

ارتبطت الشهوانية والفكر معاً على مدى التاريخ. إن هلواز وأبيلارد هما من بين العشاق الأكثر شهرة في التاريخ، لكن علاقتهما الفاشلة هي مجرّد علاقة واحدة من سلسلة ترجع إلى سقراط وألسيبادس[1]، وتمتد قدماً إلى هيدجر وهانا أرنديت، من بين آخرين هم أقل شهرة. إن العلاقة الحميمة ما بين معلّم وتلميذ، وخاصة تلميذة أنثى شابة، هي أساسية لعلم التدريس الحقيقي. غالباً ما تتضمن عناصر من تبجيل البطل، مع شحنة شهوانية قوية، وهي ما تسمى عقدة هيلواز.

هلواز. على الرغم من كونها في أواخر فترة مراهقتها، فقد كانت مشهورة بمعلوماتها كما بجمالها حتى قبل أن تلتقي ببيتر أبيلارد. وكان بيلارد مولوداً في العام 1079، وأكبر منها بربع قرن تقريباً، وكان من ألمع العقول في عصره، حتى أُطلِقَ عليه اسم معلم المعلمين، وكان يجذب التلاميذ من كافة أنحاء أوروبا، لأنه كان قد أحيا دراسة الديالكتيك للمرة الأولى منذ سقوط روما، جاعلاً من مدرسته في باريس، مغناطيساً للنهمين فكرياً. وتقول التقاليد إنه كان لديه أكثر من خمسة آلاف تلميذ، أصبح خمسون منهم بمرتبة كرادلة وأساقفة ورؤساء أديرة، وأصبح ثلاثة منهم

[1] السيبادس: رجل الدولة والجنرال الأثيني الذي أصدر الأوامر أثناء الحروب البيلوبونيزية ضد إسبارطا، عاش بين عام (450 – 404) قبل الميلاد. المترجم.

بمرتبة (البابا)، إنهم صفوة الأرستقراطية السياسية والفكرية في أوروبا. لكنه لم يهتم بأحد، بقدر ما اهتم بهلواز "الشغوفة ذات الذكاء الخارق" ابنة أخ فولبيرت، مالك المنزل الذي اتفق معه على تعليمها الفلسفة.

إلى جانب الفلسفة واللاهوت – موضوعهما الرسميان – درسا معاً الشاعر أوفيد، الشاعر الأكثر شهوانية من بين الشعراء اللاتينيين. وكتبت هلواز لاحقاً: "أطعت أوامره كلها بشكل أعمى". يبدو هذا وكأنه يتضمن متغيرات هامة، لأن مذكرات أبيلارد، لمّحت بشكل واضح لعقاب جسدي بعنصر جنسي واضح. بعدها بقرون، كانت (لو سالومي) تقلب هذه العلاقة وتقلدها من خلال الصورة الشهيرة، مُظهرة تلويحها المتكاسل بسوطها فوق نيتشه التعيس، معلمها وعشيقها. لكن بالنسبة لأبيلارد وهلواز، كان هناك اتقاد حقيقي نادر للجسدين والعقلين معاً – كانت تركيبة أكبر من أن تدوم. لقد حدثت كارثة بعد ذلك، أُخصي أبيلارد على يد لصوص وظّفهم فولبيرت، وانسحب من الحياة العامة.

تُظهر المراسلات اللاحقة بين العاشقين السابقين، أن هلواز كانت الأقوى والأقل شفقة على الذات بين الاثنين، وقد دفعته للعودة إلى الحياة الرهبانية والأكاديمية. والآن، أي بروفسور في الفلسفة أو الأدب، طائش بما يكفي ليضع إصبعه على واحدة من طالباته، لا يواجه الخصاء فقط، بل عقوبات أكثر شيوعاً، مما يحدّ بشكل كبير من التواصل ما بين المعلم والتلميذ – ويمكن القول إن الضرر يحل على الطرفين.

7/ جان بول سارتر (1905– 1980):
الطغيان والسحر الفكريان وسوء النيّة

"بما أنني خسرت فرصة الموت مجهولاً، أطري نفسي أحياناً بأنه أسيئ فهمي في حياتي"

جان بول سارتر

كتاب (كلمات)

إنها باريس عام 1974، وجان بول سارتر العظيم، الذي سيطر على الحياة الفلسفية في تلك المدينة طوال ثلاثة عقود من الزمن، أصبح ضريراً ومريضاً، أنهكت جسده تطرّفات الحياة. لكنه لا يتوقف عن التفكير، وسجّل سلسلتين من المقابلات: واحدة مع شريكته التي دامت شراكتهما طويلاً سيمون دي بوفوار، والأخرى مع سكرتيره بيني ليفي. نُشرت الأولى في العام 1981 بعنوان "الوداع: وداعٌ لسارتر" وتظهر فيها تحيتها له، وتكشف المدى الذي وصل إليه عُصابه وخوفه من أن تُغرقه النساء، ويُغرقه

التناقض بين فكره وحياته الجنسية. لقد منعه الخوف من أن تهجره امرأة، من الاستسلام بالكامل لواحدة، والأكثر أهمية وإدهاشاً، اعترافه أن هذا يكمن وراء الكثير من فلسفته. بنواح عديدة، تشكّلت حياته وفلسفته من الحاجة لتحرير نفسه من تأثير أمه ومن أناه العليا التي تظاهر أنه لا يملكها. من طفولة مبكرة النضج، مارس فيها بعض الأساليب ليتلاعب بعائلته، إلى طغيان مارسه، ليتم الاعتراف به كعملاق فلسفي، يمكن تفحص حياته بضوء معياره الخاص وهو: أن يرى إن كان قد تصرّف بأصالة أو بإيمان سيٍء. ربما تكون حقيقة أنه كان فرنسياً، ذكياً، غزير الإنتاج وعنيدا، وأنه كره الأطفال والحيوانات، كافية كي يدينه البعض. إن كان بالإمكان تسمية هذا "سلوكاً سيءاً" فهذا أمر آخر بالكامل.

كان سارتر غزير الإنتاج ومتعدد المواهب بشكل مذهل: كاتباً مسرحياً، روائياً، ناشطاً سياسياً، ومؤسس صحيفة "الأزمنة الحديثة le temps modernes" القوية النفوذ، إضافة إلى كونه فيلسوفاً متميزاً. ومع نهاية الأربعينات، كان قد طوّر الوجودية ونشرها وجسّدها، وهي فلسفة تؤكد على حرية الفرد في الإبداع، ليشكل ويحدد حياته أو حياتها. وقد اهتم طوال الخمسينات والستينات بالقضية السياسية الرئيسة في ذلك الوقت: العلاقة بين الفكر الغربي والماركسية. كان تأثيره الشعبي وجاذبيته كبيرين بحيث سيطرت وفاته في 15 نيسان، على الصحافة الفرنسية: كرّست صحيفة لوموند ثماني صفحات للتحدث عن حياته وأعماله، وصفته صحيفة لوفيغارو بأنه "المعلّم الأخير للفكر الفرنسي"، وأعلنت صحيفة لوماتان أن "بموته يموت الرجال الأحرار فعلاً من عصرنا". لقد وضعت سمعته العالمية صورته ونبأ وفاته على الصفحات الأولى لصحف نيويورك تايمز وواشنطن

بوست، وانهالت تحيات التقدير من جميع أرجاء العالم. وذهب الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان إلى المستشفى، وجلس في جلسة وداع دامت لساعة عند نعشه. لقد ملأ شوارع باريس أكثر من خمسين ألف شخص، عندما مرّ موكب جنازته ببطء إلى مقبرة مونتبارناس. هكذا، مع كل الفشل في حياته، أصبح سارتر تجسيداً للحياة الفرنسية وثقافتها.

ولد جان بول سارتر في 21 حزيران 1905. مات والده قبل أن يتجاوز السنة الأولى من عمره، وعادت أمه الأرملة آن ماري شويتزر، وهي قريبة ألبرت شويتزر المبشر واللاهوتي المعروف، للعيش مع والديها. طوال السنوات الخمس التالية، وجد سارتر نفسه يعيش مع جدّه الصارم المسيطر لكنّه المحبّ، والجدّة الباردة العواطف، وأم عاملها والداها كطفلة. لم تكن بداية ميمونة للحياة. وتتباهى سيرته الذاتية "كلمات" المنشورة عام 1964، بنضج تطوره الفكري المبكّر في الطفولة، لكنها توضّح أيضاً جذور عصابه، وموقفه المتناقض حيال النساء.

لقد اعترف أن كل ما فعله خلال طفولته كان تظاهراً: كان يمثّل، ويهتم بتحقيق رضا الآخرين، وأن يبدو كما يريدونه أن يكون. كان يشعر بالخزي إن فشلت تصرّفاته بنيل الرضا والمديح، ويشعر بالذعر إن أدرك أنه ربما يكون شخصاً عادياً وليس مميزاً. لقد طوّر حياة خيالية غنيّة، وكانت أول الكتابات في طفولته قصصاً تركّز، بشكل حصري تقريباً، على أنه بطل يصل من أجل الإنقاذ، ويتقبّل المديح بتواضع. لم يكن لديه الأب البطل، وكان مشغولاً بخلق أبطال مُتَخَيلين مشابهين له بشكل مبالغ فيه. أما بالنسبة لعلاقته بالبالغين، فمن الواضح أنه تعلم التلاعب بهم: "**كنت أتقبل البالغين على شرط أن يعبدوني**". حتى إنه بدأ يقتنع بما قالته له مجموعة أقاربه المحدودين المعجبين به: "بما

أنني كنت ألعب بفضيلة، لم أجبر نفسي على شيء ولم أقيد نفسي: كنت أخترع. استمتعتُ بحرية ممثل، يُحسن الأداء ويبقي الجمهور في حالة تشويق. لقد حصلتُ على الإعجاب الشديد، ولذلك، أنا أستحقّ هذا الإعجاب".

لقد أُعجب الجميع به إلا شخصاً واحداً. لقد عرف أن جدّته لم تُعجب به كفاية وأنها فهمت تمثيله مما سبب له قلقاً عظيماً.

كانت علاقته بأمه أحد ملامح حياته الأساسية. قال إنه لم يتمكن من احترامها، لأنه ما من أحد كان يحترمها. كان الجدّان يعاملانه ووالدته كأخ وأخت، وكانا ينامان في سريرين متجاورين في غرفة واحدة، طوال عقد من الزمن. كانت أشبه بفتاة صغيرة، دورها الوحيد في الحياة هو رعايته، وكان هو بالمقابل، يعتني بها لكونه بطل خياله الخاص. ليس مفاجئاً أن يشعر بميول سفاحية نحوها. وشكّل زواجها الثاني، رضّاً بالنسبة له كما هو متوقع، إذ وجد نفسه ينتقل من باريس إلى لاروشيل، حيث كان جوزيف مانسي زوج أمه، مهندساً مسؤولاً عن أرصفة بناء السفن البحرية. كان يعتبر زوج أمه متطفلاً، مذنباً بأنه اغتصب مكانه الخاص في عواطف والدته، ووجد فيه الشخصية المكروهة المناسبة له. عاطفياً، لم يتمكن إطلاقاً من قبول أن أمه يمكن أن تكون قد تزوجت مانسي بدافع الحب. في قصص طفولته، استمتع سارتر برواية العقوبة الدامية للطغاة– من الصعب أن يكون هذا خيال شخص ادعى عدم امتلاكه لأنا عليا. ربما تمنى نهاية مشابهة للطغاة في منزله – زوج أمه وربما جده أيضاً. وفي وجهات نظره اللاحقة، وبشكل مثير للاهتمام، نما نفوره من زوج والدته ليشمل أسلوب الحياة البرجوازية كلها، وبكل شيء له علاقة بما كان يمثّله جوزيف مانسي.

لكنه كان يخشى الاستسلام لأمه أيضاً. في مقابلاته مع دي بوفوار، قال إنه في عمر الثلاثة عشرة، أمضى ثلاثة أسابيع في المستشفى، وكانت أمه تنام في سرير وُضع قرب سريره، واعترف بالتظاهر بالنوم كي يراقبها وهي تخلع ملابسها. لقد كره زوج أمه ولا روشيل على حد سواء، تمرّد، وسُرِق من أمه، وأُعيد في النهاية إلى جده في باريس.

يبدو أن سارتر لم يكن ينتبه لأي شيء يتعلق بسيكولوجية طفولته، ولم يكن يدرك تأثيرها كما كان عليه أن يفعل. إنّ كتابة المرء لسيرته الذاتية- حتى في كتب صافية الذهن ومسلّية مثل "كلمات"- لا تضمن أن يكون المرء محصّناً من تأثيرات طفولته. كان يعتقد أن موت والده قد حرره من العيش تحت حكم شخصية سلطوية. "**لو أن والدي بقي حيا لكان سيسيطر علي ويسحقني**". استخدم فرويدٍ بشكل مناسب ليفسر أهمية هذا. "**هل كان أمراً جيداً أم سيءاً؟ لا أعلم، لكنني سعيد بالإقرار بحكم عالم نفس بارز: ليس لدي أنا عليا**".

من الغرابة أن يصل لاستنتاج كهذا. جده وزوج أمه لاحقاً، كلاهما مناسبان لدور خلق الأنا العليا هذه. عندما كان سارتر طفلاً، كان يقرأ بنهم، لكنه تساءل ما إن كان كل هذا قد حدث لنيل رضا جده، الذي وصفه بأنه له مظهر إلهي: أنيق لكنه قوي وسلطوي. لم يكن متأكداً ما إن كان جدّه قد أحبه فعلاً، أم أنه استمتع بتجربة التصرّف بكرم حيال حفيد كان يعتمد عليه في كل شيء. لكن سارتر اعترف بأن هذا النقص في الأنا العليا، كان يعني أنه لم يكن منشغلاً بالسلطة. "**أنا لستُ قائداً ولا أطمح لأن أكون كذلكٍ. إعطاء الأوامر وطاعتها أمران متشابهان... لم أعطِ أمراً في حياتي دون أن أضحك أو أن**

أجعل الآخرين يضحكون، والحقيقة هي أن آفة السلطة لم تستهلكني: لم يعلمني أحد الطاعة".

لكن هذا لم يمنعه من مهاجمة كل أشكال السلطة باسم حرية الفرد، ولا من تعذيب أولئك الذين يشرفون عليه، منذ أيام الدراسة وما تبعها، ولم يمنعه أيضاً من العمل بهوس كي يسيطر على من حوله بقوة فكره. كان يُتّهم دائماً بالتنمّر الفكري. كان بحاجة للسيطرة على الناس بعقله. حيث إن كل إشارات الانتقاص من الذات في كتاب "كلمات"، توضّح غرور عملاق فكري، تسيطر على حياته أيضاً، حاجةٌ لأن يكون محبوباً وأن يكون محطّ إعجاب.

ادعى أن حياته في المدرسة كانت على النقيض من حياته في المنزل، وكان بين أصدقائه، يتمكّن من التوقف عن تمثيله المنزلي. كان يمرض بشكل متكرر، وتنقصه المكانة الرفيعة، وكان مصاباً بعيب في عينه، أثّر على قدرته البصرية بسبب علاج سيء لأمراض طفولته، ولا بدّ أن هذا كلّه جعله مدركاً بشكل جيد لمظهره الجسدي. كان شهيراً بالقبح، لذا سعى لأن يصبح مشوّقاً من الناحية الفكرية، كي يجذب النساء.

بعد النفي التعيس في لا روشيل، عاد إلى مدرسة هنري الرابع، وهي إحدى أفضل المدارس في باريس، وانتقل لاحقاً إلى مدرسة لويس لو غران، وفي النهاية أصبح طالباً في مدرسة المعلمين العليا، بصحبة سيمون فايل، وكلود ليفي ستروس، وموريس ميرلو – بونتي وجان هيبوليت. لقد وجد نفسه وقد اكتسب ما يحتاج إليه ليدخل أبواب الشهرة.

عندما كان طالباً، قسّم سارتر وقته بين القراءة النهمة (ديكارت، بيرغسون، ونيتشه كانوا بين الذين تركوا أثراً عميقاً في

تفكيره)، وبين تناول الشراب وحضور الحفلات. كان معروفاً بمقالبه وفطنته الحادة، ومقالاته وخيالاته وفضائحه وأذاه، وسرعان ما أصبح حس دعابته ساحراً وعديم الرحمة.

إن ما سبّب روعه كان رسوبه في الامتحانات النهائية في المحاولة الأولى (لا شك أن السبب في هذا، كان احتقاره للتفكير التقليدي والمتطلبات المملة للامتحانات)، لكنه احتل المرتبة الأولى في السنة التالية. وكانت في المرتبة الثانية بعد سارتر في امتحاناتها النهائية عام 1929، طالبة ذكية عمرها 21 عاماً، تخلّت عن سنة دراسية، ولقبها زملاؤها الطلبة "لو كاستور= القندس"، حيث رأوا فيها سلوك القندس وطاقته. كان اسمها سيمون دي بوفوار: وجد سارتر ندّه. لقد جعلته متمدناً اجتماعياً ومتمدناً بما يخصّ مظهره، وتحدّته في فكره أيضاً. لقد شكّلا قاعدة لعلاقة دامت مدى حياتهما. لم يتزوجا (لأنه تصرف برجوازي للغاية!) لكنهما اتفقا على أن تحظى علاقتهما بالأولوية على العلاقات الأخرى، وعلى أن يمضيا بعض الوقت متباعدين، وعلى ألا يبقيا مخلصين جنسياً أحدهما للآخر، باستثناء أن تبقى علاقتهما دوماً، الأهم في حياة كل منهما. وأن علاقتهما ستبقى ضرورية، بينما العلاقات الأخرى ستكون عرضية. وأن كلاً منهما سيبقى حراً ليتخذ عشاقاً، وألا يعلق أي منهما، وعلى أن يبقيا صريحين بشكل شفاف أحدهما مع الآخر. بالنسبة إلى طالب كان قد حقق سلفاً بعض السمعة لحبّه للجعة والنساء، لا بدّ أن هذا بدا ترتيباً مثالياً وفرصة للتنكر للاحترام السطحي. في سيرتها الذاتية "عنفوان الحياة" اعترفت دي بوفوار صراحة، بأنها توافق على أنه ليس متوقعاً منه أن يتخلى عن "التنوع المغري" للنساء.

لكـن كانـت هنـاك تعقيـدات. كانـت دي بوفـوار مهتمـة بالجنسين، واستمتعت بمجال واسع من العشاق. لم تكن أسمى من أن تتشارك بعض عشيقاتها مع سارتر، وكانت أكثر هذه العلاقات حدّة، هي العلاقة مع أولغا كوساكيويتز.

كانت أولغا طالبة لدى دي بوفوار عمرها 18 عـام، وعرّفتهـا بسارتر. كانـت النيـة، الـتي ناقشـتها دي بوفـوار وسـارتر مسـبقاً كاحتمال، أن يجهزا لمساكنة ثلاثية. لم ينجح الأمـر، لأنـه طـوال مدة سنتين كان سارتر مغرماً بشدة بأولغا، ووجد صعوبة في الحفاظ على أولوية علاقته بدي بوفوار، الـتي اسـتخدمت العلاقـة لاحقـاً كأساس لروايتها "المدعوُة". حتـى بعـد انتهـاء المسـاكنة الثلاثيـة، بقيت أولغا ضمن دائرة الأصدقاء، لأنها تزوجـت جـاك- لورانـت بوست، أحد الطلاب من لوهـافر. لكـن هـذا لم يمنـع سـارتر مـن إضافة أختها الشابة واندا إلى حريمه.

في السـنة السـابقة لانـدلاع الحـرب العالميـة الثانيـة، يبـدو أن سارتر اتخذ عـدة عشـيقات بشـكل متـزامن. تبـتهج آنـي كـوهن-سولال في سيرتها الذاتية بذكر أن وانـدا ولوسـيل ومـارتين و"لـويز فيردين" (وهو اسم مستعار لبيانكا لامـبلان) أتـين جميعـاً لتمضـية ليالٍ عند سارتر في مونتبارناس.

بالنسبة لبيانكا لامبلان، التي شـعرت في النهايـة أن سـارتر ودي بوفوار خدعاها وجعلا منها ضحية، لدينا مثـال آخـر عـن مساكنة ثلاثية. هي أيضاً كانـت طالبـة شـابة لـدى دي بوفـوار ووقعت تحت سـحر سـارتر. تـذكر في كتابهـا "علاقـة مشـينة: ذكريات فتاة مستاءة" أنه في ربيع العام 1939، أخذها سـارتر إلى غرفة فندق لممارسة الجنس، وقال لهـا (بعجرفـة واسـتمتاع) **"ستفاجأ خادمة الغرفـة كـثيراً، لأنـني فضضـتُ عذريـة فتـاة البارحة"**. علّقت أيضاً بأنه بدا وكأنه يقارب الجنس بطريقة لا

مبالية، وتكاد تكون وحشية، مما يؤكد عصابه الذي منعه من الاستسلام تماماً للنساء. وهذا يتناقض مع رسائله الدافئة الرومانسية. من الواضح أن الجزء الأكثر ملاءمة لممارسة الحبّ لديه كان قلمه! لقد انتهت العلاقة بشكل مفاجئ برسالة من سارتر يقول فيها إن مشاعره تجاهها **"قد جفت"**.

بالانتقال من امرأة إلى أخرى، في باريس وفي إجازاته، كان سارتر يعطي دي بوفوار وصفاً مفصلاً لمغامراته الجنسية. وقد نشرت لاحقاً تلك الرسائل التي تظهر مدى استمتاعه بإخبارها بالتفاصيل، بطريقة أكدت مكانتها في حياته، لكنها جعلت علاقاته مع بقية النساء منافقة أيضاً.

لكن رغم كل مغامراته الجنسية، لم تكن بداية الثلاثينات سنوات سعادة بالنسبة له، لكونها مضت بشكل أساسي - ما عدا عدة أشهر أمضاها في برلين يلتهم فلسفة هوسرل - بما يعتبره الصحراء الثقافية لـ "لوهافر"، حيث كان يشعر بالركود في دوره كمعلم ريفي. كان في حالة ركود، بعيداً عن مباهج باريس. لقد رُفضت روايته "الغثيان"، التي كان قد بدأ بكتابتها منذ 8 سنوات، مرتين من الناشرين قبل أن يتم قبولها عام 1938.

وسرعان ما تغير الوضع. عاد سارتر إلى باريس، وأتت الحرب، وفي حزيران 1940، بعد أشهر من إطلاق المناطيد كعضو من الوحدة الجوية المتمركزة في الألزاس، لحقت به الحرب، وتقدم الألمان، وأُسر هو وزملاؤه. الفترة التي قضاها كسجين حرب في ستالاغ 12 دي، لم تؤذ قدرته الإبداعية إطلاقاً، لكنه ادعى أثناء وجوده هناك، أنه أنهى كتاب "سن الرشد" (وهو أول كتاب في ثلاثية "دروب الحرية") ومسودّة كتاب "الوجود والعدم" أهم أعماله الفلسفية. إن المفارقة هي أن فرنسيا

أسيراً لدى الألمان، يمضي الوقت مأسوراً بمفكّر ألماني ونازي هو مارتن هيدجر. لقد كان تطوير سارتر للوجودية في كتاب "الوجود والعدم" بعدة طرق، جواباً على كتاب هيدجر "الكينونة والزمان" وكلاهما طبعاً مبنيان على أعمال هاسرل.

كان الألمان في معسكرات الاعتقال يقومون بشكل روتيني، بإطلاق سراح من تكون حالته الصحيّة سيئة، بشكل تمنعه من الخدمة الفعالة أساسا. لم يكن مهرباً جزئياً على "دروب الحرية" بالنسبة لسارتر، لكنها كانت حقيقة مبتذلة أن أحد زملائه السجناء، قدم له شهادة مزيفة تفيد بأن العمى الجزئي في عينه اليمنى، يسبب له صعوبات في التوجه. كان هذا كافياً لإطلاق سراحه من المعسكر، وسُمح له بالعودة إلى باريس، حيث بدأ التدريس ثانية. كما أنشأ مجموعة مقاومة من المثقفين، بمن فيهم دي بوفوار وميرلو — بونتي، وكتب مسرحية مؤيدة للمقاومة وهي مسرحية "الذباب"، التي عُرضت في باريس عام 1943 تحت أنوف النازيين. وقد شهدت تلك السنة نشر كتاب "الوجود والعدم" وفي السنة التالية عُرضت مسرحيته "في الكميرا" والتي تمت ترجمتها إلى الإنكليزية باسم: "ليس هناك من مخرج"، وأكمل روايتين في ثلاثيته "دروب الحرية" وهما "سن الرشد"، "وقف التنفيذ". لقد كان إنتاجه في زمن الحرب مذهلاً تماما. ومع نهاية الحرب، أسس الصحيفة الأدبية الأزمنة الحديثة: " Les Temps Modernes" وتخلّى عن التدريس. لقد كانت نقطة تحوّل حاسمة في حياته وثروته.

رواياته – بما فيها "الغثيان" وثلاثية "دروب الحرية" – استكشفت الواقع المعيش الذي تتحدث عنه فلسفته الوجودية، بمشاعر من اليأس والاغتراب. نمت الوجودية بالنسبة له، من تأمل صراع الفرد، لفهم معنى حياته أو حياتها بكل حدودها. لقد

أراد استكشاف ما له علاقة أصيلة بالعالم، مقارنة مع اتّباع المرء لتوقعات الآخرين بطريقة غير أصيلة. وكان يطوّر بتلك الطريقة أفكار هيدجر، الذي نظر أيضاً إلى قضية ارتداء الأقنعة، وتبني الأدوار العامة، بدلاً من التصرّف بشكل أصيل.

بمواجهة حياة عارضة جذرياً (بمعنى أنها محدودة، وعرضة للتغير ولتصرفات الآخرين) وعقيمة، لا يمكن أن يكون هناك تبرير مطلق لأي شيء: ليس هناك خطأ أو صواب مطلقان يمكن قراءتهما من كتاب قواعد. ربما بدافع الخوف، نشعر بالإغراء لرفض تقبل المسؤولية عن تصرفاتنا وخياراتنا، ونختار تفسيرها حسب التأثيرات الخارجية، لنقبل دوراً أعطانا إياه الآخرون. وهذا بالنسبة إلى سارتر إيمان سيء. إنه متواز مع خياله، الذي يواجه الناس فيه مواقف من الغموض وعدم اليقين، ويُجبرون بالتالي على مواجهة أنفسهم وخياراتهم. والمثال الكلاسيكي على هذا هو قصته "الجدار"، حيث يواجه شخص موقفاً إما بالحياة أو الموت، وعليه اتخاذ خيار ما إن كان سيخون رفيقاً له أم لا. وقد شرح مفهوم سوء النيّة، على أنه التصرف نتيجة لخداع الذاتي، وربما، وبشكلٍ خاص، فصل الرغبات غير الواعية كما لو أنها ليست جزءاً من الذات. إن سوء النيّة هو تمثيلٍ دور، ويعني ألا يكون المرء صادقاً مع نفسه. إنه ينتقد أيضاً إغراء الترويج لما يمكن أن نصبح بدلاً مما نحن عليه، ما يسمح للخيال بالسيطرة على الواقع، كما ينتقد خطر أن نصبح ما نعتقد أن الآخرين يريدوننا أن نصبح عليه، بدل أن نكون صادقين مع أنفسنا.

يعارض سارتر التصرف بإيمان سيء بأخلاقية الجدية. كان مهتماً بضرورة أن يتصرّف الناس بنزاهة وليس كاستجابة لما هو متوقع منهم. من الواضح أنه وجد القواعد الثابتة خانقة، لكنه

كان مستعداً للعمل مع جدية القرار الشخصي، ويبدو أن هذا يعكس وجودية كيركجارد[1] السابقة، الذي رفض الفلسفة النظرية، لصالح مقاربة مبنية على معضلات الأفراد وقلقهم وخيارات حياتهم.

إن كتاب "الوجود والعدم" المنشور عام 1943 هو العمل الأساسي لفهمٍ الوجودية الفرنسية. طور فيه أفكار كيركجارد وهيدجر عارضا معضلات حرية الإنسان والرغبة بالأصالة. وكان لنجاحه، ولنجاح الوجودية إجمالاً، علاقة بملاءمته لمن أُجبروا في ظروف الحرب على العيش من أجل اللحظة الراهنة، حيث كان المجهول يهددهم باستمرار.

ثمة في مركز فكره، تناقض بين نمطين من الوجود: الوجود المفكر المتسائل النشط الواعي بنفسه "من أجل ذاته" والوجود اللاشخصي المادي "بحد ذاته" للأشياء التي نواجهها. بأبسط تعبير، يمكن مقارنتهما بتقسيم ديكارت الأساسي للواقع، إلى العقل والمادة. لدينا مسؤولية التفكير والاختيار– هذا ما يجعل كينونتنا "من أجل ذاتها". لكن يمكنٍ لهذا أن يكون مهدداً، لأن الوجود "من أجل ذاته" هو عدمٌ أيضاً: ليس فيه واقعٍ صلب مادي كما للعالم الموضوعي "بحد ذاته". لذلك هناك دوماً إغراء للهرب من تهديد العدم بقبول الصورة اللاشخصية النمطية للذات، مما يجعلها شيئاً، بدل أن تكون ذاتاً مفكّرة. أن تفهم ذاتك كمحاولة أن تكون "نادلاً" أو حتى "فيلسوفاً" يعني أن تنكر ذاتك الفردية المفكرة التي يمكنها الاختيار. هذا ما يسميه سارتر التصرف بإيمان سيء، وهو عكس مثاليته الوجودية بالتصرف بأصالة.

---

[1] كيركجارد: سورين كيركجارد، مفكر ولاهوتي دانيماركي عظيم، كان لفلسفته تأثير عظيم على الفلسفات اللاحقة وخاصة مما يُعرف منها بالوجودية المؤمنة، عاش بين عام (1813 – 1855). المترجم.

على الرغم من أن كتاب "الوجود والعدم" مليء بتحليل أنطولوجي جدّي، فهو يحتوي على إشارات واضحة إلى جنسية سارتر، وحقيقة أنه يرى أن علاقة الحبّ إما أن تؤدي إلى السادية أو إلى المازوخية، وليس إلى توازن بين شخصين متساويين. إنه يتحدث عن المؤنث على أنه ما "يفتح فاغراً فاه" ويرغب الذكر بملئه. من الواضح أن المؤنث يمثل "الوجود بحد ذاته" بينما يمثل المذكر "الوجود من أجل ذاته". لذلك فإن النساء غير متحررات، ويجب أن يقاتل الرجال خطر أن يتعرضوا للخنق من الوجود "بحد ذاته" كي يحموا حريتهم.

للتغلب على خوفه من إغراءات السفاح، يجعل سارتر "الوجود بحد ذاته" غير جذاب قدر المستطاع. في مقطع عن "الفعل والامتلاك" يستكشف تضمينات مواجهة شيء "لزج"– حقيقة أنه طري ومجسوس ويميل للالتصاقٍ باليدين. بينما "الوجود من أجل ذاته" يكون عادة إيجابياً وفعالاً مقارنة بالسلبية والثبات المعرف في "الوجود بحد ذاته"، إن المظهر اللزج "للوجود بحد ذاته" يميل للتعلق "بالوجود من أجل ذاته" وامتصاصه. ويتضمن وصفه للزج، مثل العسل الذي ينزلق عن ملعقة، نفخاً لدمية قابلة للنفخ أو انتشار ثديي المرأة الممتلئين وانبساطهما عندما تستلقي على ظهرها. يظهر اللزج سلساً، لكن عندما يحاول المرء امتلاكه يجد أنه أصبح ممتلكاً من قبله:

"إنه تصرف ناعم ومستسلم، رشف رطب وأنثوي، يعيش بشكل مبهم تحت أصابعي، وأحسه مثل دوار، إنه يجذبني إليه، كما يجذبني قاع الهاوية. هناك شيء يشبه الافتتان اللمسي في اللزج... بمعنى أنه يشبه الانقياد الأقصى للمملوك، وفاء كلب يمنح نفسه عندما تتوقف عن الرغبة

به، وبمعنى آخر يوجد تحت هذا الانقياد، استيلاء سري للمالك من قبل المملوك."

ربما يكون هذا أقرب تحليل أنتولوجي مجرد للحظة الرعشة الجنسية!

لكن ليس هناك رعشة جنسية ممتعة، بل ذكر يخشى أن تمتص الأنثى الحياة منه. إنه يستمر بوصفه "كانتقام أنثوي عذب"، وأنه "أشبه بعلقة". كما يخشى أيضاً أن يتعرّض الرجل للإخصاء في فعل الحب. لذا يحرر "الوجود من أجل ذاته" نفسه من "الوجود بحد ذاته" من خلال الفكر المنطقي، الذي يمثل نوعاً من النشاط الذكوري الصافي والنظيف. ويبدو أن هذا يعزز النظرة المسيطرة للذكور، بأن المنطقي مخصص للذكور، وأن الأنثى ستكون دوماً لزجة وممتصة عاطفياً.

لقد تأكدت الرابطة الجنسية بمسرحيته "الغرفة المغلقة"، التي يقدم فيها ثلاثة أشخاص يصلون معاً إلى غرفة مغلقة لا نوافذ فيها. الأمر المهم هو أن هناك امرأتين، واحدة منهما هي إيستيل، وهي شابة والأخرى إينيز، وهي تشكل تحدياً للرجل الوحيد الذي هو غارسن. بعد قليل يقول لإينيز "لن أسمح لنفسي بأن أعلق في عينيك. أنت ناعمة ولزجة. أشبه بأخطبوط. مثل مستنقع"، عبارات تعكس وصفه للوجود الأنثوي "بحد ذاته" في كتاب "الوجود والعدم". وتصف إينيز أيضاً لحظة الموت، عندما تعرف أنها لن تحقق كل أحلامها أبداً، وتعترف "أنت.. حياتك، وليس أي شيء آخر"، ويعكس هذا الموضوع الوجودي الأساسي أن الوجود يسبق الجوهر.

في نهاية المسرحية تماماً، بينما تصبح العلاقة بين الثلاثة غير محتملة، تأتي جملة شهيرة "ليس هناك حاجة لمحراك النار

الحار. الجحيم هو... الآخرون!" يجب أن يعرف سارتر هذا، بما أن أبطال المسرحية يعكسون الجحيم الثلاثي الذي أوجده هو وسيمون دي بوفوار في علاقاتهما مع أولغا ولاحقاً بيانكا لامبلان. ليس هناك نقطة أوضح من هذه، ترتبط فيها حياة سارتر وعلاقاته المعذبة مع النساء بعمله الأدبي وفلسفته.

وبما أنه لم يكن قادراً على الاستسلام للنساء، فقد أصبح من المستحيل أن يخلق رابطة من التبادلية الأصيلة. لقد اعترف لدى بوفوار في مقابلاته التي قدمها في نهاية حياته أن "الوجود بحد ذاته" لا علاقة له به، بما أنه المبدأ الفعال في تلك اللحظة. بعبارة أخرى، كان يعامل النساء كأشياء، بينما يعترف أن المعيار يجب أن يكون التبادلية. من هنا أتى الانطباع بأن سارتر في سنوات حياته الأخيرة، تمكن من رؤية حدود "الوجود والعدم" وأدرك مدى تأثر تشكل فلسفته بعلاقاته مع النساء.

واجه هيدجر الحدود الأخرى لـ "الوجود والعدم"، وهو الفيلسوف الذي ألهم سارتر الكثير من هذا الكتاب عام 1945. وعلى الرغم إعجابه بموهبة سارتر الأدبية ووصفه للسلوك البشري، فقد وجده لا يُحتمل. في تلك الأيام، أعلنت بعض الكتب عذريتها بفخر، بما أن الصفحات كانت مطوية معاً، كما كانت عندما طُبعت، وكانت هناك حاجة لقصها قبل أن تُقرأ. إذاً لم يكن هناك احتمال للادعاء بأنك قرأت كتاباً بدون أن تستخدم سكين ورق على الأقل. لقد قص هيدجر 40 صفحة فقط من كتاب "الوجود والعدم". لاحقاً عام 1952، ذهب سارتر للقائه في فريبرغ، لكنه عاد بمزاج سيء ومغتاظاً، ويتذمر من أن هيدجر بدا مثل كولونيل متقاعد، وأنه وجد نفسه يتحدث مع (قبعة صياد شاموا)! نادراً ما ذكر هيدجر بعد ذلك. يمكن للمرء تخيل ما الذي فعله ذلك النازي العجوز بالوجودي الفرنسي!

في تشرين الأول 1945 أظهرت محاضرة سارتر "الوجودية مذهب إنساني" وصوله لقوة شعبية في ثقافة فرنسا بعد الحرب. بعد أن دفع نفسه إلى المنصة عبر حشد مزدحم وفوضوي، تحدث بقوة، لكن بدون ملاحظات، لجمهور متحمس ومفتون. من الصعب تقدير تأثير المواد التي قدمها في السنوات اللاحقة: "الغثيان"، "الجدار"، "الوجود والعدم" والمجلدان الأولان من ثلاثيته "دروب الحرية"، وتأسيس صحيفة "الأزمنة الحديثة". لقد وصلت الوجودية، وفي هذه المحاضرة عزز موقفه الأكثر أساسية- أن الوجود يسبق الجوهر. بعبارة أخرى، أن كل شخص قادر على تشكيل ذاته، وتثبيت الحياة التي يختارها، لا شيء ثابت أو مسلم به.

التقطت الوجودية روح المرحلة، وأصبحت رائجة بشكل فوري حتى بالنسبة لمن ليست لديهم فكرة واضحة عنها. لقد أكدت على حرية الخيار، وإمكانية تشكيل المرء لمستقبله، وتثبيت أسلوب حياته الخاصة، ورفض التقاليد. منٍ الواضح، من وجهة نظر محافظة، أن سارتر كان يُعتبر مفسداً للشباب، ويعظ بفلسفة جديدة وخطيرة. عام 1948، وضعت الكنيسة الكاثوليكية كل أعماله في "الفهرس" (فهرس الكتب الممنوعة على الكاثوليك). لم يكن هذا مفاجئاً، بما أن الملمح الأساسي في أعمال سارتر هو أنه ليست هناك طبيعة بشرية ثابتة (سواء أكانت ممنوحة من الله أو غير ذلك) لكن الناس يواجهون تحدي تشكيل حياتهم. هذا لا ينقص من قيمة أي شكل من أشكال الأخلاق المطلقة وحسب، بل هو أيضاً معنى الطبيعة الهادفة والمصمّمة، سواء أكانت بشرية أم غير ذلك. من وجهة النظر الكاثوليكية، بدا أن ما يقدمه سارتر هو فوضى أخلاقية. تسجل سيرة حياة برنارد-هنري ليفي اتهامات عديدة أخرى،

أُطلقت ضد سارتر في تلك المرحلة، حيث اتهموه بالهوس بالقذارة والجنس. ومُنعت مسرحية "الغرفة المغلقة" في بريطانيا.

إن كان على الفرد تحقيق خلقه لذاته من خلال العمل، فمن الضروري أن يكون الفيلسوف ملتزماً. لقد تطورت وجهات نظر سارتر من خلال تعليقاته العديدة على القضايا السياسية والاجتماعية. ومن المثير للفضول التفكير بشخص يعتبر التصميم والتعبير عن الذات، شيئاً مهيمناً — وهما قلب الفلسفة الوجودية — كان سارتر يرفض كل الأشياء البرجوازية بشكل آلي تماماً. وبما أن لديه خلفية ثرية، فقد بدا ملتزما بتدمير الوسائل نفسها التي حقق بها موقعه. وهو بالتركيز على الأفراد، ربما يكون قد تجاهل النسيج الاجتماعي الذي يمكن الأفراد من العثور على أصواتهم (بوعي أو بدون وعي منه). إن ضيق التفكير ذاك تحديدا، هو ما جعل ميشيل فوكو ومفكرين آخرين من حقبة ما بعد الحداثة ينتقدونه. لكن الفرد لا يجد نفسه ومعناه إلا في بيئة اجتماعية— كما في "الجدار" لا يفكر السجناء بالموت إلا لأنه قيل لهم إنهم سيُقتلون رمياً بالرصاص في الصباح.

لكن مع تحقيق السلطة والنفوذ، كان بوسع سارتر أن يتصرف بدون إحساس على الإطلاق، وروج لنفسه على حساب الآخرين. أحياناً كان يتصرف بطرق اعتبرها صحيحة، حتى إن سببت ألماً شديداً للآخرين. ربما توضح معاملته لجان جينيه هذا. ففي عام 1952، بعد أن بدأ سارتر كتابة مقدمة عن أعمال جان جينيه (الذي على الرغم من كونه كاتباً، كان بعيداً جداً عن البرجوازية، لكونه من الطبقة العاملة ومجرماً مثلياً في عصر لم يكن يعجب لا بالمثليين ولا بالمجرمين)، سمح لعمله بالتوسع إلى 690 صفحة وأن يُنشر باسم "القديس جينيه". لقد مدح جينيه في هذا الكتاب، وجعل منه بطلاً، لكنه أغرقه في الوقت نفسه. إن الكتاب الذي

يبدو أنه عن جينيه، كان عن سارتر في الواقع- لم يكن جينيه إلا فرصة أخرى لاستكشاف ذاته ولترويجه لنفسه. وقد اعترف جينيه نفسه عام 1964، أنه شعر بأن كتاب سارتر قد عرّاه، وأدى به إلى مرحلة دامت 6 سنوات، شعر فيها أنه غير قادر على متابعة الكتابة. لكن سارتر افتتح الكتاب بالتحدث عن خوف جينيه من نظرة العالم إليه. لقد عرف سارتر جيداً تأثير هذا الفضح على موضوع كتابه- لكنه كتبه على أية حال! ربما لا يكون قاسياً بالضرورة، بما أنه كان من المفترض أن يحقق شيئاً لجينيه، لكنه يكشف شخصاً متغطرساً يمكنه أن يصف دواء يعرف أنه سيكون مراً لمتلقيه.

والأسوأ كانت الطريقة المتغطرسة والقسوة الشديدة التي أنهى فيها أخيراً صداقته مع ألبير كامو. كان كامو قد طور مقاربة خاصة به للوجودية، مؤكداً- كنقطة بداية تقريباً- أن الحياة "سخيفة" بالنظر إلى التعليقات الأخلاقية والسياسية التي يمكن أن تنشأ في ظرف كهذا. كان الكاتبان على علاقة ودّية لعدة سنوات. واستمتع سارتر بصحبة كامو في الحفلات، حيث تشاركا حس الدعابة الفاسق نفسه، وأُعجب بعمله. لقد كتب سارتر "الغرفة المغلقة" من أجل كامو ودعاه لينضم إلى مجلس التحرير في صحيفة "الأزمنة الحديثة". لكن ربما كان التوتر بين الكاتبين محتوماً، بما أن أعمالهما واهتماماتهما كانت متقاربة، ويمكن أن يغضب كامو بسرعة عندما يتعرض للتحدي.

نشأ النزاع الأخير بسبب رأي لجنة التحرير في صحيفة "الأزمنة الحديثة" بكتاب كامو "الإنسان المتمرد". اعترض كامو عندما قدموا مقالاً سلبياً حوله. وكردٍّ على هذا، نشر سارتر رسالة مفتوحة لم يعرض فيها إلا احتقاراً لكامو، باستخدام كل ما يعرفه عن نقاط ضعفه كي يؤذيه. كان ذلك عملاً لمتنمّر فكري، يلعن

شخصاً تجرأ على تحدي حكمه. هذه الرسالة المليئة بالمرارة، والجارحة بشكل متعمد، تظهر كيف أن سارتر، بخلفيته الثرية، وثقافته في مدرسة المعلمين العليا، يمكن أن يصفع شخصاً من المستعمرات من الجزائر، حصل على تعليمه ذاتياً إلى حد كبير، ولديه نزعة أدبية والتزامات سياسية جادة. لكنها كانت أيضاً علامة على إيمانه السيء. ما الذي كانت تعنيه صداقته مع كامو، بما فيها تعاونه معه في السنوات السابقة؟ وإذا كان قد شعر بالاحتقار لعمله كما هو واضح، فلماذا تظاهر بالاحترام لكل هذا الوقت؟ في همجية هذا الإذلال العلني لكامو، يظهر سارتر نفاقه نفسه. بعد سنواتٍ من الصداقة والتعاون، كان هذا حسب تعبير ليفي "نموذجاً ليسٍ للاحتقار وحسب، بل للإيمان السيء". لكنّ لحقد سارتر سبباً آخر. كان كامو وسيماً للغاية وناجحاً جداً مع النساء، وجذب انتباه واندا شقيقة أولغا، التي كان سارتر مغرماً بها. عندما رفض سارتر فلسفة كامو على اعتبار أنها تفتقد الجدية (وهو اتهام سخيف)، كان في الواقع، يقاتل تهديداً جدياً لسلطته الجنسية ضمن حريمه. لسوء الحظ، لم ينكر سارتر واقعية انتقاداته السابقة لكامو إلا بعد وفاة الأخير في حادث دراجة آلية بعد 8 سنوات، وكتب نعياً جديراً بكاتب بمكانة كامو.

هناك سبب آخر للتوتر مع كامو (وأيضاً مع ميرلو بونتي، الزميل الفيلسوف الأكثر جدية، والشخصية الرئيسة في مجلس تحريرٍ "الأزمنة الحديثة") له علاقة بالتبدل الذي لا يمكن فهمه تقريباً في موقف سارتر من الاتحاد السوفيتي.

قبل العام 1952، كان سارتر ينتقد الشيوعية السوفيتية، في مسرحيته "الأيدي القذرة"، ومن خلال صحيفة "الأزمنة الحديثة" (التي انتقد فيها معسكرات العمل)، وسعى إلى شكل عصري من الاشتراكية التي تختلف عن الشيوعية. ثم أتى التغيير. من عام

1952 إلى عام 1965، بدا أنه أصبح الناطق للدعاية السوفيتية وينتقد الولايات المتحدة الأمريكية بشدة، في الوقت نفسه، عندما أصبح الآخرون مدركين لوجود معسكرات العمل، وتطرفات أخرى للنظام السوفيتي. شوهد هذا التغيير لأول مرة في كتاب "الشيوعية والسلام" الذي نُشر بأجزاء منفصلة في صحيفة "الأزمنة الحديثة"، حيث دافع عن الاتحاد السوفيتي وستالين وأنكر واقع وجود معتقلات الغولاغ السوفيتية. وبعدما زار الاتحاد السوفيتي عام 1954، في سلسلة من المقابلات نشرت في صحيفة "Libération" اليسارية، أعلن بشكل شهير أن هناك حرية كاملة لانتقاد النظام. من الممكن أن يُتهم بإساءة التصرف (أو الحمق على الأقل) في قبول فكرة مجتمع سوفيتي، دون انتقاده ورفضه رؤية الدليل على العكس. عام 1956 انتقد حتى خروتشوف لشجبه لستالين وعارض ألكسندر سولجنستين، الناقد الأشهر في حقبة ما بعد الحرب للنظام السوفيتي. بالنسبة لسارتر، كان المنشقون السوفييت مجرد مجرمين.

توحي مناصرته لنظام شمولي كهذا أنه أصبح منجذباً بشدة للسلطة والسيطرة– وهما الشيئان اللذان رفضهما سابقاً باسم الحرية الشخصية والوجودية. كان مذهلاً مدى ما كان مستعدا لقبوله. وعلى الرغم من كل الأدلة، فقد أيد بعضاً من أكثر الأنظمة وحشية، وفعل هذا وهو يرى أن الماركسية هي أفق الفكر السياسي العصري، التي تشمل كل شيء. لقد بدا أن نظرته أصبحت ضيقة مثل العصامي في كتابه "الغثيان"، الذي يقرأ كل شيء في مكتبة، ويأخذ الكتب بترتيب أبجدي.

ومع ذلك، لا يمكن أن يكون شخص بذكاء سارتر وغزارة إنتاجه مخدوعاً، إن لم يختر الأمر عمداً. لقد استكشف حدود الحرية الإنسانية، وادعى أنه يمتلكها، ومع ذلك، كان تحت

هذا، افتتان بالسلطة والنفوذ، نفوذ يمكنه أن يرفض معسكرات الغولاغ والمنشقين، نفوذ يضع الجوهر (في هذه الحالة الإيديولوجية السياسية) قبل وقائع الوجود- وهي مقاربة مناقضة لكل ما ناقشه في وجوديته السابقة. هل يمكن لمناصرة سارتر للأنظمة الماركسية أن تكون إلا "إيماناً سيءاً" -حسب تعبيره هو؟

لم يبدأ سارتر باتخاذ موقف نقدي إلا عند غزو هنغاريا في تشرين الثاني 1956، ومرت 20 سنة كاملة قبل أن يعترف أنه كذب بشأن الاتحاد السوفيتي، وأنه قال أموراً لم يكن يؤمن بها حتى في ذلك الوقت، لكنه اتهم نفسه على أساس أنه لم يرغب بالتحدث بالسوء عن الذين قدموا له الضيافة. بدا عذراً سخيفاً، بما أنه صادر عن شخص بدا مستعداً تماماً لشجب أي شخص يقف ضده.

كان هناك أيضاً اختلاف أساسي بين وجودية سارتر والماركسية التي واجهها في الاتحاد السوفيتي. في الأخيرة، كان للعمل علاقة بالجدلية القائمة للمعارضة الطبقية، وتصرفات الأفراد جزء من العملية التاريخية القائمة. أهمية الفرد تنقص. بدا أنه من غير الممكن أن يدعم سارتر نظام ستالين السياسي، بعد أن أيد وجودية، طالبت بمستوى من الحرية الشخصية التي أنكرها ستالين على أي شخص يخالفه الرأي.

يغرينا أن نخمن ما إن كان لدى سارتر أسباب شخصية لعدم الاعتراف بواقع القوى القمعية ضمن الشيوعية السوفيتية خلال تلك السنوات. بعد أن فشل في الاعتراف بأناه العليا الخاصة، وأنكر أنه يعتبر نفسه شخصية سلطوية (وهو ادعاء سخيف في ضوء تعامله مع كامو وغيره)، ربما يكون قد فضّل إعلان أن الحرية كانت مسيطرة في الاتحاد السوفيتي، على اعترافه أن نفوذ السلطة- سواء أكان في أمة أو ضمن دائرته

الفكرية- يسحق الفرد. إن كانت فكرة مركزية مثل فكرة "الوجود بحد ذاته" و"الوجود من أجل ذاته" في كتاب "الوجود والعدم" قد تشكّلت بسبب مشاكله في علاقته بالنساء، فمن الممكن على الأقل تخيّل أن نظرته عن النظام السوفيتي، تلونت بفشله في الاعتراف بممارسته الذاتية للسلطة، أو استعداده لوضع رقابة على من تحدّوه، والتخلص منهم.

لقد عبّر عن انتقاده المتأخر للماركسية السوفيتية عام 1957 في كتاب "الوضع الراهن للوجودية" الذي نُشر باسم "مسألة المنهج" في صحيفة "الأزمنة الحديثة". وعلى الرغم من اعترافه بالماركسية كفلسفة مسيطرة في العصر، فقد جادل بأن الحقيقة ليست ثابتة وهي تنكشف دوماً. كان مضمون هذا الكلام، أنه لا يمكن لأي نظام أن يدّعي أن لديه الحقيقة النهائية بل عليه أن يكون منفتحاً للتنقيح.

إنّ كتابه "نقد العقل الجدلي" وهو استكشاف للعلاقة بين الماركسية والوجودية، وقد نُشر عام 1960، كان إنجازاً هائلاً بكل معنى الكلمة، إنه التصريح الأهم لفلسفته المتأخرة، كما كان كتاب "الوجود والعدم" بين أعماله الأولى. وكما في ذلك الكتاب السابق، كان مهتماً بالحرية الإنسانية. لكن هذه المرة، اعترف أن حريتنا مقيدة بأشياء ذات قيمة وخارجة عنا، وليس لدينا سلطة عليها. بعبارة أخرى، ربط وجهة نظر الماركسي العاقد العزم ظاهرياً بشكل ما، بالحرية الفردية. وفي هذا حاول المصالحة بين اهتمامه بالماركسية وسياسة الجناح اليساري ووجوديته السابقة، باستكشاف الطرق التي ترتبط بها الظروف المادية التي يعيش بها الناس معاً (نقطة البدء بالنسبة للماركسية) بقضية الحرية والخيار الإنسانيين (نقطة البدء للوجودية). وهو بهذا يستكشف كيف أن التاريخ الإنساني، يتشكل حسب الطريقة التي يختار بها الناس

أن يتصرفوا معاً في مجموعات. وبهذا تأخذ الوجودية مكانها ضمن ما يشكّل الإطار الماركسي العام. إنه أحد الأعمال التي كان راضياً جداً عنها.

في الستينات أصبح سارتر جوالاً في أرجاء العالم، زار الاتحاد السوفيتي عدة مرات. ذهب إلى بلغراد ليستقبله تيتو وإلى كوبا ليرى كاسترو. حتى إنه دعم ماو، الذي كان مسؤولاً عن تطرفات الثورة الثقافية. وبدأ العقد السياسي بمعارضته لتصرفات الحكومة الفرنسية في الحرب الأهلية الجزائرية. لقد أصبح رمزاً للقضية بأكملها: قصفت شقته مرتين، وأصبح معارضاً تماماً للاستعمارية. واعتبر بعض من كان في السلطة، أن من وقّع عريضة دعم معارضي تصرفات الحكومة الفرنسية في الجزائر، هم خائنون، لكن لم يُتخذ أي إجراء ضد سارتر. كان تعليق الرئيس شارل ديغول الشهير على هذا الأمر: "لا يمكن أن تسجن فولتير". كانت تلك لحظة سارتر الأقوى.

هكذا أصبح عقد الستينات عقداً من اتخاذ المواقف السياسية. عام 1964 رفض جائزة نوبل للآداب، مصراً على أنه لا يريد تكريماً (رغم أنه ما كان سيقدر على إجبار نفسه على قبول جائزة مُنحت لكامو، الذي حاول الاستخفاف به على أنه يفتقد الجدية). عام 1966 انضمّ إلى لجنة جرائم الحرب التي أنشأها برتراند راسل. زار مصر وإسرائيل، وقدم محاضرة عن فيتنام، وفي عام 1968 دعم ثورة طلابية في فرنسا، حتى إنه شجب الاتحاد السوفيتي لغزو تشيكوسلوفاكيا بعد "ربيع براغ" بقيادة ألكسندر دوبيتشيك. أمل سارتر أن شكلاً جديداً من الماركسية، يمكن أن يكون قد تطور من التغيرات التي تحدث في تشيكوسلوفاكيا، وكان كبحه ضربة كبيرة. في السنة التالية زار براغ. كان لا يزال ماركسياً، لكنه انقلب ضد الاتحاد السوفيتي.

كان قادراً طوال سنوات على إنتاج الكثير من الأعمال بمساعدة مزيج من المحفزات، السجائر والنبيذ الأحمر، وعندما لا يعود قادرا على إطالة اليوم بالقهوة والويسكي، يحين موعد حبوب المنومات. لطالما كان الكحول والتبغ عقاقيره المفضلة. إن تجربته الوحيدة لاستخدام المسكالين (وهو عقار مهلوس) في الثلاثينات، لم تكن سعيدة ولم يرغب بتكرارها. كانت تأثيرات العقار اللاحقة مزعجة، تأثر فيها بمفاهيم متغيرة، وتغيرات لأشياء مألوفة، وهي تجربة ربما انعكست في التغيرات التي تحدث عندما ينظر روكيتين إلى شجرة كستناء في روايته "الغثيان".

كان سارتر مندفعاً ككاتب، وكان غزير الإنتاج. يتحدث ويكتب ملاحظات عن كلامه في الوقت نفسه أحياناً، ويبدو غير مهتم بأنه، وبسبب عدم توقفه، لم يكن يمنح أحداً فرصة ليدخل معه في نقاش.

كان إنتاجه الجنسي محبطاً بالقدر نفسه، بحيث أن أحد كتاب سيرته الذاتية خصص فصلاً بعنوان "عشيقات سارتر". تم ذكر دي بوفوار وأولغا وواندا وبيانكا، لكن كانت هناك أيضاً المغنية جولييت غريكو البالغة 20 سنة من العمر- التي كتب لها سارتر البالغ 41 سنة أغنية لمسرحيته "الغرفة المغلقة" عام 1949- ودولوريس، حبيبته الأمريكية التي أحبها بشغف، وبعد انفصاله عنها بوقت قصير، كان هناك ميشيل ليغليز- فيان التي بقي على علاقة ودية معها، ونحن لم نذكر بعد مغامرات شبابه.

كانت النساء ملهماته، لطالما فضل صحبتهن على صحبة الرجال.

في الجزء الأخير من حياته، وجد سارتر أن عالم الفلسفة، كان يبتعد عن المقاربة التي اتخذها. رفض فوكو وآخرون نظرته "الحداثية" لموضوع الإبداع. كانوا مهتمين ببنى الفكر واللغة التي

يصبح ضمنها النشاط الإبداعي ممكناً. بالنسبة إليهم، لم يكن تأكيد سارتر على الفرد، منصفاً للمجتمع بالكامل ولا للقالب الثقافي الذي تصبح فيه اللغة ذات معنى. لقد وصف فوكو كتاب "نقد العقل الجدلي" بأنه رائع وجهد مثير للشفقة، من مفكر من القرن التاسع عشر، لتخيلٍ القرن العشرين، واعتبر أن سارتر آخر هيغلي وآخر ماركسي أيضاً.

مع مرور الوقت أصبح سارتر غير مستعد لمواجهة نقد كهذا، لذا ابتعد عن التيار السائد للفكر. كان لا يزال نشطاً سياسياً، وينتقد الاتحاد السوفيتي والتدخل الأمريكي في فيتنام. عدا عن ذلك، بينما كانت الأمور مستمرة، أصبح أكثر انفصالاً عن القضايا الفكرية والسياسية الراهنة، وكان يركز بهوس على كتابة كتابه عن فلوبير.

في السبعينات تدهورت صحته وعانى هجمات قلبية عام 1971 و1973. مع حلول عام 1974 كان قد أصبح أعمى ومعتمداً على مساعدة الآخرين، بمن فيهم دي بوفوار وأرليت إيلكيم، وهي طالبة أصبحت متعلقة جداً به وتبناها بشكل قانوني عام 1965. وتابع العمل، بمساعدة وتشجيع بيني ليفي. وأخيراً أصبح مريضاً، وأُخذ إلى المستشفى ومات في 15 نيسان 1980.

سوء النيّة؟ المبدأ الأخلاقي الرئيس في وجودية سارتر هو الأصالة. أن تتصرف بطريقة تعكس قراراتك الشخصية الخاصة، وترفض الأدوار التي يفرضها عليك الآخرون، هو هدف الوجودية. من الواضح أنه رفض بعض الأدوار التقليدية، مثلاً رفض رمز الإنجاز الأدبي، جائزة نوبل. لكن معاملته لمن اختلفوا معه أو تهوروا وتحدّوا وجهات نظره، أظهرت طغياناً لشخص — مع أو من دون جوائز أو منصب جامعي– كان مدركاً تماماً لموقعه في التراتبية الفكرية. أن يسيطر ويتلاعب وخاصة أن يتحدث بسلطة

لكن بدون قناعة، (كما فعل مع الاتحاد السوفيتي)، هو أن يتصرف بغطرسة مليئة بالتيه فيما يتعلق بمنزلته. ويجب أن يُعتبر هذا إيماناً سيءاً بالتأكيد.

القضية الأخرى الرئيسة التي لها علاقة بسلوك سارتر ودي بوفوار، هي المدى الذي استخدما فيه علاقاتهما الجنسية كمواد لكتاباتهما. من المنصف أن يتبعا خطا هاسرل في أخذ واقع مختبر معين كأساس لفلسفة وربما من المحتوم أن يستخدم روائي أو روائية تجربته أو تجربتها الخاصة في كتابة عمل خيالي، لكن يبدو أنها قساوة غير ضرورية أن تفعل هذا بوضوحٍ، على حساب من تقاسم المرء معهم ما يمكن أن يُعتبر عادة، تجارب حميمة وخاصة، أو أن يسخر من مشاعر الآخرين.

لكن أياً كانت حدوده الشخصية، فليس هناك شك بأنٍ سارترٍ يقف كعملاق بين الفلاسفة. يمكنه أيضاً أن يكون ساحراً ومسلياً وجذاباً– مع قدرة عليٍ اكتسابِ الأصدقاء بمثلٍ قدرته على خسارتهم. كان مكروهاً ومحبوباً، محتقراً ومبجلاً، إلى درجة استثنائية. كان يمتلك القدرة أيضاً على الجذب بكل المستويات. بالنسبة إلى من ليس لديهم ميل للتأملات الفلسفية، فتحت مسرحياته ورواياته فكرة الحرية والخيار أمامهم. بالنسبة إلى المهتمين بمعرفة ملامح فلسفته الأساسية، فإنٍ أعمالاً مثل "الوجودية هي مذهب إنساني" توفر تعريفاً مباشراً لها. بالنسبة إلى المتحمسين الواسعي المعرفة والعروض الفصيحة للفلسفة، فإن أعماله الكبرى، توفرٍ فرصاً لا تنتهي لينغمسوا فيها. فوق كل هذا، كان فيلسوفاً، كحرفية ثقافية، يربط جدالاته المنطقية بالدراما والخيال، ويهتم بالحالة الإنسانية بأية طريقة مكنته من استكشاف القضايا التي رأى أنها أساسية من أجل الحرية والفهم الذاتي الإنساني.

فيلسوفات يسئن التصرف

لم ندرج أية نساء بين الفلاسفة المخطئين لسبب وجيه. رغم أنه ربما للنساء فلسفات مدروسة مطولاً بشكل خاص، إلا أنه لم يكن لديهن، حتى مؤخرا، ظهور عام في هذا المجال بسبب العوامل التاريخية والثقافية المعتادة: مكانة النساء المنخفضة في العالم القديم، لم يتعرضن لتحدّ جدي إلا من قبل الأبيقوريين، والتعصب الجنسي المستوطن للتقليد اليهودي المسيحي. (قَبلَ أفلاطون النساء أنداداً مساويات للرجال تقريباً في جمهوريته المثالية، لكن ليس في أكاديميته الفعلية). رغم أن أحد آخر الفلاسفة الوثنيين كانت امرأة، هيباتيا الأفلاطونية الحديثة، وقُتلت بسبب آرائها من قبل عصابةٍ مسيحية في اسكندرية القرن السادس، فإن الفلسفة بقيت طويلا كمعقل للغرور الذكوري، الذي يسيطر عليه كارهو النساء مثل أرسطو، وروسو، وشوبنهاور. بقيت هلواز التي كانت ذكية لكنها تعسة المصير، شخصية فريدة بعد العصور الوسطى بكثير.

مع ذلك، إن كانت الفيلسوفات النساء قد فشلن في مضاهاة نظرائهن الذكور في الآثام، فهذا لا يعني أنهن عشن في استقامة تقليدية. ماري ولستونكرافت، التي نشرت كتاب "دفاع عن حقوق المرأة" عام 1792 في أثناء الثورة الفرنسية، عبرت عن وجهات نظر راديكالية في التعليم والتحرر الأنثوي، وكان لعملها

تأثير كبير وإن كان متأخراً على الفكر المناصر للمرأة. مع ذلك أنكرت الأعراف الاجتماعية بعلاقاتها، بأن أنجبت أولاداً خارج الزواج، وبأن وصفت تلك المؤسسة على أنها شكل من العبودية. كانت واعية سياسياً ومقنعة ونشطة في تفكيرها، لكنها كانت أيضاً ضعيفة عاطفياً في علاقاتها، وكانت أحياناً انتحارية ودائماً غير تقليدية.

كانت آيريس موردوخ، تضاهيها ابتعاداً عن التقليدية، رغم أنها معروفة أساساً كروائية، فقد كانت فيلسوفة بشكلٍ رئيسي. حياتها العاطفية كانت متنوعة جداً، لكنها لم تؤذ أحداً، وكانت تفتقد غرور نظرائها الذكور الفكري.

ربما من بين فيلسوفات القرن العشرين، فإن المنافسة الجدية الوحيدة التي تندرج ضمن صفوف النهمين جنسياً والأنانيين والمستغلين هي سيمون دي بوفوار، المعروفة بكتابها "الجنس الآخر" المنشور عام 1949، وبكونها شريكة سارتر مدى الحياة. لقد شاركت سارتر وشجعته في استراق النظر الأدبي في أحاديثهما الصريحة المتبادلة عن شركائهما الجنسيين الآخرين، ولم تكن تترفع عن تجهيز علاقة ثلاثية لتعرفه بعشيقاتها (كانت ثنائية الجنس، وتفضل الطالبات الشابات). لقد نافست روسو في رغبتها بالفضائحية حيث نشرت مغامراتها الجنسية وفي عدم اهتمامها بمن تأذوا أثناء ذلك.

لذلك ليس لدينا سبب للاعتقاد أن الفيلسوفات، لو أن عددهن كان بمثل عدد الفلاسفة الذكور، لم يكن سيساهمن بالقدر نفسه بمجموع الحماقة البشرية.

8/ ميشيل فوكو (1926– 1984): الجنون والجنس والعقوبة

"بمعنى ما، لطالما رغبتُ أن تكون كتبي أجزاء من سيرتي الذاتية. لطالما كانت كتبي هي مشاكلي الشخصية المتعلقة بالجنون والسجون والجنس"

ميشيل فوكو، أيار 1981

بعد موته بقليل في باريس في 25 حزيران عام 1984، أصبحت الحقيقة معروفة. ميشيل فوكو، أستاذ تاريخ أنظمة الفكر في جامعة فرنسا المهيبة مات بسبب الإيدز. لم تكن مثليته سراً، لكن حتى شريكه لوقت طويل دانييل ديفيرت، لم يكن يعرف بمرضه. بإعادة التفكير بحياته، كانت العلامات موجودة بسُعاله

الشديد في الصيف الماضي، لكن هذا لم يمنعه من عيش الحياة لأقصاها في أثناء وجوده في الولايات المتحدة الأمريكية في الخريف السابق- حيث كان يقدم محاضرات في بيركلي، لكنه كان يتردد على صالات ممارسة السادية والمازوشية وحمامات سان فرانسيسكو العامة، حيث سمح له بإخفاء هويته بحرية استكشاف الجنس في أكثر أشكاله القاسية واللاشخصية.

كان فوكو شخصاً يحب الخصوصية بشدة في بعض الطرق، ولم يكتب سيرته الذاتية ولم يكن مستعداً لمشاركة كل مظاهر حياته، حتى مع أقرب الناس إليه. بموهبته في منح الانتباه التام لمن يتحدث معهم، ولكونه مضيافاً دوماً، حزن أصدقاؤه عليه كثيراً.

كان باحثاً شديد التدقيق، وماهراً بشدة في التركيب بين فروع المعرفة المختلفة، ومتعمقاً بالقدر نفسه في الفلسفة وعلم النفس والتاريخ، لذا حزن عليه العالم الأكاديمي. كان رأسه الحليق وكنزاته ذات الياقات العالية، معروفة في المشهد الفكري العالمي، كما يجب أن تكون أدواته الجلدية وسلاسله معروفة ضمن الدوائر الأكثر حصرية، في عالم السادية والمازوشية.

لكن، كما اعترف طوعاً، عكست كتاباته ببساطة، حياته وتفاصيله الجنسية، لأنه سكب كل نفسه فيها ككاتب. إنها تعكس انشغالاته الفكرية- بالجنون والنفوذ والانضباط والعقوبة والجنس. كان بالتأكيد مفكراً تطابقت حياته مع أفكاره، ورأى سلوكه على أنه "ما وراء الخير والشر" بالمعنى الذي قصده نيتشه.

ولد ميشيل فوكو في 15 تشرين الأول عام 1926 في بواتييه ونشأ في راحة برجوازية جيدة. كان لدى العائلة منزل ريفي يُسمى لو بيروار، الذي ورثته أمه، وفيلا إجازات على البحر في لابول، إضافة إلى منزل في بواتييه. وكان والده جرّاحاً، ويبدو أنه كان

صارماً، لكن عدا عن ذلك، حظي ميشيل بطفولة عادية وقانعة مع أخته الكبرى فرانسين وأخيه الأصغر دينيز. لكنه تمرّد في فترة المراهقة ضد افتراض يقوم على أنه سيدرس الطب. وأدرك بشكل حاسم أنه مثلي، ولم يكن هذا مناسباً لصورة العائلة المحترمة في بواتييه بالتأكيد. لقد انتهت راحة شبابه مع اندلاع الحرب، ووجد أفراد العائلة أنفسهم تحت الاحتلال الألماني. صودرت فيلا الشاطئ، وبدؤوا يقيسون مقدار الطعام الذي كان بوسعهم زراعته في أراضي منزلهم الريفي، وأصبحت تمضية الصيف هناك أمراً اعتيادياً لحياة عائلة فوكو لاحقاً.

بما أنه وُلِدَ في عائلة برجوازية في ريف فرنسا، فقد أمضى الكثير من حياته كراشد، متمردا ضد كل الأشياء الريفية والبرجوازية. وهذا غير مفاجئ. كما لم يكن مفاجئاً أن يثور ضد الأسلوب والمحتوى التقليدي للفلسفة، مفضلاً وصف أهمية الجنون والجنس والنفوذ، آخذين بعين الاعتبار، نزعاته المتطرفة. وبسبب كونه قصير النظر وذكياً وعنيفاً ونهماً جنسياً، امتد عمله إلى عدة فروع معرفية (وكان يحب هذه العبارة)، من الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، وأدخل نكهة جديدة تماماً إلى الفلسفة، التي ربما لم تتوافق مع ذوق الجميع، لكنها امتزجت بشكل مثالي مع صورته الذاتية التي أنشأها بعناية.

لقد حصل في عمر العشرين على موقع في مدرسة المعلمين العليا في باريس، مما جعله يتواصل مع أذكى المفكرين، وحرره من خلفيته الريفية. درس هناك تحت إشراف (ميرلو بونتي) و(جان هيبوليت) الهيغيلي الذائع الصيت. أذهلته في البداية فلسفة هيغل، ووجد نفسه يربط التغير التاريخي بالمنطقية الكامنة، وتمكن عبر قيامه بهذا، من دمج حبه الأول- التاريخ- مع

الفلسفة، واستكشف بُنى التفكير الكامنة تحت المواقف الاجتماعية المتغيرة.

وقد تأثر حينها أيضاً، مثل معظم الفلاسفة في باريس، بهيدجر وبسارتر، الذي كان يدخل في المرحلة التي بات له فيها التأثير الأعظم لمجتمع المقاهي الباريسي، وهو حضور لا يمكن التهرب منه. لقد أخذ فوكو من هيغل وهيدجر النظر إلى العملية التاريخية كطريقة لاستكشاف جذورِ الواقع الحالي. وتمكن من خلال سارتر الرائج، ومن نيتشه أيضاً، من إدراك الدرجة التي يتم فيها خلق واقع المرء عبر جوده وقراراته الخاصة. لقد بدا بالنسبة للهاربين من ضيق النشأة البرجوازية، أن مفهوم الخلق الذاتي (العِصامية) من خلال اتخاذ القرارات الأصلية، والتخلي عن التقليلدية في أعمال تأكيد الذات، أشبه بمرور نسمة هواء نقية.

شاب الاكتئاب أيام دراسة فوكو، وكان السبب يتعلق ربما بالذنب المتعلّق باحتياجاته الجنسية السادية المازوشية القهرية، وأمراضه الجسدية النفسية المتكررة بازدياد. لقد جرح مرة صدره بشفرة في عام 1948، وربما حاول الانتحار بجرعة زائدة. كما استسلم للشراب والمخدرات، وهذا ما كان رائجاً بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وكان من الممكن أن يصبح عنيفاً وكان تقييده ضرورياً. ويبدو أنه أصبح يناظر بطريقة حادة وعنيفة، مما جعل زملاءه الطلبة يتجنبونه. وقد استشار الوالد الطبيب النفسي جون ديلا، العامل في مستشفى سانت آن، ونتيجة لذلك، أُعطي فوكو غرفة خاصة به في المصحّة في مدرسة المعلمين العليا، مما سمح له بالهرب من الرفقة غير المرحّب بها والحصول على وقت أطول للقراءة.

كان في المصحّة أيضاً لويس ألثاسر أحد أساتذته وكان يعاني من الفصام والذهان. وقد نصح ألثاسر فوكو بعد مصادقته له، بعدم

الإقامة في المستشفى- لأنه اختبر منها أكثر مما يجب هو نفسه- لكنه شجعه أيضاً على الانضمام إلى الحزب الشيوعي الفرنسي. واستمر ألثاسر بالتدريس في مدرسة المعلمين العليا لثلاثين سنة أخرى، وروّج لمقاربته الخاصة للماركسية، إلى أن خنق زوجته هيلين في تشرين الثاني عام 1980. وقد أمضى العقد الأخير من حياته في وحدة مشددة الحراسة للمرضى العقليين- بسبب جريمة القتل، وليس بسبب مثابرته على الماركسية- وهو فيلسوف آخر سيطرت اللاعقلانية على سلوكه لسوء الحظ.

كانت مشكلة تلك الحقبة هي: كيف يمكن للمرء أن يستمرّ بممارسة الفلسفة. بالنسبة للكثير من العالم الفلسفي الأنغلو- أمريكاني- المتأثر بوتغنشتاين، وأي جي آير، وجيلبرت رايل وآخرين- كانت الفلسفة تخسر بسرعة أي إحساس بمحتواها المميز. كان يُنظر إليها بالأحرى على أنها عملية فرز اللغويات والأخطاء المنطقية في جميع فروع المعرفة الأخرى. وقد نشأ البديل الأكبر لتلك المقاربة- ما كان يُصطلح على تسميتها بالفلسفة "الأوروبية"- من أعمال هاسرل ومن خلاله هيدجر وسارتر. كان ذلك هو التقليد الذي تفحّص العلم المُختبر. حتى إن لم يكن بالإمكان معرفة العالم الخارجي كما كان بحد ذاته، ربما يوفر اختبارنا الخاص له على الأقل، أساساً أكيداً لفهمنا.

التمس فوكو، الذي تأثر على وجه الخصوص بهيدجر، طريقة لفهم التفسير الذي منحه أشخاص من حقب مختلفة من الزمن، لتجربة العالم الإنساني. كان يريد أن ينتج مزيجاً من الفلسفة والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، وكان يرفض أن يعرّف نفسه بالفيلسوف أو بالمؤرخ، لأن عمله قد ساقه إلى ما وراء الحدود التقليدية لهذه المعارف. لقد أخذ الوثائق التاريخية وتفحصها بدقة كي يكشف بُنى التفكير التي سمحت لمؤلفيها بأن يكتبوا ما كتبوه.

بهذه الطريقة، تمكن من تجميع الطرق المختلفة التي فهم الناس بها أنفسهم وعالمهم، في عملية استخدم لها لاحقاً مصطلح "علم الآثار". كان وتغنشتاين قد أشار إلى أن اللغة إستُخدمت دوما لغرض معين- ولفهم معناها، على المرء أن يأخذ استخدامها بعين الاعتبار. لقد تبع فوكو سياسة مشابهة، وتفحّص بُنى التفكير وكيف تم استخدامها في مجالات الاهتمام الإنساني بحد ذاته، خاصة في الجنون والعقوبة والنفوذ والجنس.

حصل فوكو على شهادة في علم النفس من المدرسة العليا للمعلمين عام 1949، وحضر بانتظام فحوصات المرضى النفسيين في مستشفى سانت آن، واستمر بالعمل هناك بشكل غير رسمي، بعد أن أنهى دراساته. كان كمدرّس خاص في علم النفس في المدرسة العليا للمدرسين، يستخدم الاختبارات النفسية على طلابه، كما تضمّن منصبه التدريسي الأول في "ليل" عام 1952 (حيث كان يمضي ليلتين أو ثلاث ليال فقط من كل أسبوع، مفضلاً الحياة في باريس)، تدريس علم النفس لطلاب قسم الفلسفة. وبدا في هذه المرحلة غير واثق من الاتجاه الذي ستسلكه حياته المهنية، وكان هناك احتمال كبير أن يتجه نحو الطب النفسي.

عام 1953 شاهد فوكو مسرحية صامويل بيكيت بانتظار غودو، وشعر أنها مكنته من التحرر من الروح الفلسفية الموجودة التي سيطرت عليها الماركسية ومذهب الظواهرية والوجودية. لقد انتظر المتشردون على المسرح، المفرغون من كل أهمية ميتافيزيقية وأخلاقية، شيئاً أو لا شيء أو الموت. لاحقاً في السنة نفسها، وأثناء وجوده في إجازة في إيطاليا، قرأ كتاب نيتشه "تأملات في غير أوانها". لم يكن هذا الكتاب أول قراءاته لنيتشه، لكنه كان بالنسبة إليه أشبه بالكشف حينها. لقد بدا وكأنه تأثر بشكل

خاص بإحساس نيتشه الذي نخلقه بأنفسنا، تلك القوة هي الأساس للعمل الإنساني وهذه البُنى تحت الأبولونية للمنطق تهيج رغبة ديونيسيسية[1]. لقد صعقته على وجه الخصوص، إحدى مقالات نيتشه الأولى "شوبنهاور كمعلم"، مع لغز أن السعي الإنساني هو أن يصبح المرء ما هو عليه، وليس شيئاً آخر، وهذا ما يحدد هدفه الخاص في الحياة. هذه المقالة المكتوبة على الخلفية العدمية لمسرحية بيكيت، بانتظار غودو، ألهمت فوكو السعي العظيم باتجاه نيتشه.

ربما أُعجِبَ فوكو أيضاً بمقالات أقل عمقاً لنيتشه بالقدر نفسه. يقول نيتشه إنه على المرء عند ذهابه إلى امرأة، ألا ينسى السوط، وهنا ليس من المحتمل أن يكون نيتشه نفسه قد استخدم سوطاً. أما بالنسبة لفوكو، فإن نصيحة نيتشه (رغم أنه يتحدث عن جنس مغاير)، لقيت الترحيب وتم تطبيقها. في الواقع، كانت ستكون مناسبة تماماً للمعنى الذي تحدث عنه نيتشه بقوله، إن كل إنسان تقوده روح حارسة. من كانت روحه الحارسة طيبة، فإن السعادة بانتظاره، أما من كانت لديه روح حارسة شريرة، فإن الكارثة بانتظاره – لكن على المرء أن يتبع تلك الروح الحارسة دوماً، وليكسب المرء أعظم سعادة، عليه أن "يعيش بخطر". نعرف أيضاً أنه في ذلك الوقت أصبح فوكو مبهوراً بالانتحار، ويحلم بالموت كتحقيق لوجوده. لقد ألهمته كتابات جورج باتاي، بانبهارها بالديونيسيسية التي لدى نيتشه، وبالمركيز دي ساد، وتجاوز حدود القيود الاجتماعية في السلوك الجنسي. لقد أثبت نيتشه وباتاي وساد أن لديهم مزيجاً مسكراً كان مناسباً تماماً لمزاج فوكو.

---

[1] الأبولونية والديونيسية هما مبدآن فلسفيان وأدبيان مبنيان على الأساطير الإغريقية القديمة حيث كان أبولو وديونيسوس ابنين لزيوس. أبولو هو إله المنطق والعقلانية، بينما ديونيسوس إله اللاعقلانية والفوضى. المترجم.

في ذلك الوقت دخل فوكو في علاقة جنسية قوية جداً مع المؤلف جان باراكيه الذي كان يحب الشراب ونيتشه للغاية. وساد حياتهما الجنس السادي المازوخي والشراب والنقاشات الحادة. ولكن لم تدم العلاقة أكثر من بضع سنوات، إذ أنهاها باراكيه، الذي انسحب مما وصفه كاتب سيرة فوكو جيمس ميلر، على أنه "مسرح إيروتيكي للقسوة"، ورفض تحمل ما أسماه "الإذلال"، وربما يقصد بذلك سلوك فوكو السادي المازوشي. لكن عندما انتهت العلاقة مع باراكيه، في عيد الميلاد عام 1954، كان فوكو قد بدأ التدريس في السويد.

علّم الفرنسية في أبسالا من 1954 إلى 1958، لكن مناهجه كانت مصوغة بشكل يناسب اهتماماته الخاصة، بما فيها "الحب في الأدب الفرنسي، من المركيز دي ساد، إلى جان جينيه". وبينما كان في أبسالا، عمل على العلاقة بين المجتمع والجنون، وهناك علامات مستمرّة على ولعه بالانتحار والموت، من حيث أن مفهوم الحياة التي تنزلق بعيداً في طرف أنشوطة،[1] هي متعة لا يمكن وصفها. لكنه كان ينغمس في متع صارخة. اشترى سيارة جاغوار واستمتع بالقيادة بسرعة، وهو ثمل أحياناً. وكان نادراً ما يخلو من العشاق، لكن في هذه المرحلة، لم تكن حياته المهنية الأكاديمية راسخة بعد، وقد أنفق جزئياً على حياته هذه، من مصروف خصصته له عائلته.

بعد أبسالا، عمل لسنة في وارسو، وكان مسؤولاً عن المركز الفرنسي في الجامعة، حيث علم دروس اللغة الفرنسية، ولاحقاً عمل كبديل للملحق الثقافي. لكن شاباً يافعاً، كان يشعر بجاذب نحوه، وتبين أنه مخبر شرطة، نُصح فوكو بالمغادرة بأقصى سرعة ممكنة. كان آخر منصب له خارج البلاد هو في المعهد الفرنسي في

---

[1] يقصد بطرف الأنشوطة، الانتحار شنقاً. المترجم.

هامبورغ، حيث أعطى أيضاً دروساً ومحاضرات عن اللغة الفرنسية، بينما كان يتعرف على إمكانيات التسلية المعروفة جداً في تلك المدينة.

مع عودته إلى فرنسا عام 1960 مارس التدريس لست سنوات في كيرمونت–فيراند، حيث كان رئيس قسم الفلسفة. لكنه كان يزور الجامعة ليوم واحد في الأسبوع، ويعيش بقية الوقت في باريس. وخلال هذه المرحلة ازدادت سمعته الأكاديمية، بمساعدة نشر كتابه الأكبر "الجنون والحضارة: تاريخ الجنون في عصر العقل" عام 1961. لقد حلل فيه كيف تغيّر فهم المجتمع للجنون بعد عام 1500. قبل ذلك التاريخ كان المجانين يُعاملون باحترام، ويُعتبر أن لديهم منظوراً روحيا، بينما أصبح الجنون يُعامل لاحقاً كمرض يتطلب السيطرة الاجتماعية والعلاج. وفي مقابلة معه عام 1982 قال: **"بعد دراسة الفلسفة أردتُ معرفة ما هو الجنون: كنت مجنوناً كفاية لأدرس العقل، وأصبحتُ الآن عاقلا كفاية لأدرس الجنون"**.

أظهر كتاب "الجنون والحضارة" اهتمامه المستمر بالعلاقة بين العقل والرغبات البشرية الأساسية العنيفة، التي رأى نيتشه أنها ممثلة بأبولو وديونيسوس. قال **"من خلال المركيز دي ساد وغويا، اكتشف العالم الغربي إمكانية تجاوز العقل من خلال العنف"**.
إن الفكرة المميزة لفوكو هي إمكانية تجاوز العقل، مما يكشف افتراض أن الواقع يكشف أسراره من خلال العنف بطريقة لا يمكن القيام بها من خلال العقل. وقد كان هذا بالطبع، عرضاً سيكولوجياً أساسياً في الرغبة السادية– المازوشية– للدخول إلى أعماق الشخص الآخر، والاختراق إلى واقع شخصي أعمق من خلال اختبار الألم. كانت خلاصة (ميلر) عن المضمون الأخلاقي لكتاب "الجنون والحضارة"، تقترح أنه بالنسبة إلى فوكو، فإن

الشخص الذي يوصف بأنه "مجنون" هو بريء، والمجتمع هو المذنب، والدوافع والأخيولات المشاهدة لدى المعتبرين "مجانين" هي نتيجة كبت المجتمع للدوافع الديونيسيسية الطبيعية.

كانت أعمال فوكو في الستينات، مكرسة بشكل رئيس لمنهج البحث التاريخي، الذي أعطاه مصطلح "علم الآثار"، الذي ينطوي على تفحّص مُضن للوثائق التاريخية. من هنا كان عمله مختلفاً عن معظم فلسفة القرنً العشرين، لأن فوكو أحب الحقائق، وكانت كتبه مليئة بها. كان يستخدم الحقائق لبناء صورة عامة عن القالب الفكري الذي يستخدمه كل جيل لتفسير تجربته. قال إنه لا يمكن أن تكون الشهادات ذات معنى، إلا ضمن إطار الأفكار. تبحث أعماله التاريخية في المستويات المختلفة من فهم التاريخ، والطرق المختلفة التي فهم التاريخ بها الجنون. كان يقول ضمناً إنه ليست هناك طريقة مفردة أو مطلقة لوصف الجنون، بل لكل شيء علاقة بما أسماه لاحقاً "الإبستيمية"[1]، أو بنية الفكر التي يوجد ضمنها. ومثل عالم الآثار المادي الذي يربط كل لقية صغيرة، بمستواها وموقعها، كذلك ربط فوكو كل الحقائق التي تم جمعها، بطبقتها الفكرية وموقعها. وكان المنتج النهائي، دراسة تُظهر كيف تشكل اللغة والمجتمع، الفهم- معطيةً له منطقاً تاريخياً.

إن هذه العملية، هي التي تعطي فلسفته نكهة مختلفة عن معظم الفلاسفة الآخرين، لأنها تبدو أشبه بتاريخ، لكن مع التأكيد على الإطار المفاهيمي الذي يعطي سياقاً لكل حدث وكل شهادة. وبهذه الطريقة، ينظر مثلاً إلى دور المستشفيات في القرن الثامن عشر، وتطوير عيادات الفقراء كي يعالجوا أنفسهم في المنزل. أو يتفحّص المعايير المستخدمة في تحديد أي من الفقراء يُعتبر "مستحقاً"، وما إن كان الشخص قادراً على العمل، وهكذا

---

1 الأبستيمية: هي نظام فهم مجموعة من الأفكار التي تشكل معرفة عصر ما. المترجم.

دواليك. بهذه الطريقة، كان يبني تدريجياً صورة لمفاهيم الصحة والمرض والفقر والعمل وغيرها، ضمن سياق تلك الحقبة تحديداً. إن طريقة فوكو في العمل- في الأبحاث التاريخية ولاحقاً في أبحاث السلالات- تنتج نظرة نسبية. إن عملية الفهم ليست مطلقة، بل تتطور مع الوقت، وتشكل جزءاً من مجموعة إجمالية من الآراء المبنيّة بشكل مصطنع. وبهذا، يمكن لكلا العلم والنظرة الإجمالية لطبيعة الواقع المادي كليهما أن يتطوروا بالطريقة نفسها التي يمكن لفهم المجتمع للجنون أن يتغير.

تنظر دراسة فوكو لخلفية الفكر، إلى أعمال مفكرَين أثرا به من أيام دراسته. لقد انتقد هيغل كانط لأنه بنى فلسفة أخلاقية لم تأخذ في الحسبان الخلفية العامة للفكر، التي شكلت سياق خيار أخلاقيٍ ما. كان هيغل أيضاً من استكشف فكرة أن هناك "geist" أو روحاً لعصر ما، توفر سياقاً لكل الأعمال الاجتماعية والثقافية. كما أكد هيدجر على أننا "نُرمى" في العالم، لذا فإن خياراتنا متعلقة بتلك الخلفية تحديداً. وبالفعل، استكشف هيدجر مشكلة وجود عدد غير محدود من حقائق الخلفية التي يجب أخذها بالحسبان، قبل أن يكون بالإمكان فهم أي شيء بشكل تام.

في أوائل الستينات التقى فوكو بدانييل ديفيرت الذي أصبح لاحقاً شريكه لبقية حياته، والذي كانت تجمعه به رابطة قوية، لكنها لا تتطلب الحصرية الجنسية. كان ديفيرت، الأصغر من فوكو، ناشطاً سياسياً، وقد أثر ذلك على التزامات فوكو السياسية وغذّاها.

عام 1963 نشر فوكو كتاب "ولادة عيادة"، حيث استكشف مشاكل الانتحار والسادية- المازوشية والمخدرات من خلال دراسة للكاتب ريموند راسل. وبعنوان فرعي "علم الآثار للنظرة الطبية"، استكشف مناطق من التجربة الإنسانية، التي أصبحت معالم هامة

لحياة فوكو الخاصة. وتبعه عام 1966 كتاب "نظام الأشياء: دراسة تاريخية للعلوم الإنسانية"، وهو استكشاف للطريقة التي تطور بها فهم الإنسان لنفسه على مر الزمن، من خلال تحليل التغيرات في العلم والاقتصاد والمعارف المرتبطة بهما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لقد طوّر فكرة الأبستيمية - وهي الإطار العام للفكر، الذي يتم من خلاله تفسير الحياة. يتم تطوير ابستيمية كهذه خلال فترة معينة، ويمكن أن تتغير حينها، وتفسح المجال لأبستيمية بديلة. هذا مشابه لأعمال (توماس) كان الذي رأى العلم يتطور بطريقة تغير النماذج، حيث يتم تنقيح طريقة كاملة للفهم، تتخللها فترات من العلم العادي، حيث هناك عمل منهجي ضمن النموذج الثابت.

ينتهي الكتاب بملاحظة تثير الفضول، تكاد تكون شاعرية، ويتنبأ فيها أنه ذات يوم سيختفي الإنسان "مثل وجه في الرمال على حافة البحر" - نهاية مفهوم، سيطر على التفكير الاجتماعي خلال القرون القليلة السابقة. يبدو أن هناك توازيا مشوقاً مع نيتشه هنا. بالنسبة لنيتشه كان هناك فرق جذري بين الإنسان الأخير الخاضع الذي يفتقد لأي إحساس بنفسه وبمصيره، والإنسان الخارق (السوبرمان)، الذي كان جوهره هو تجاوز أي شيء كان. في كتاب "الفجر" يقدم نيتشه هذا التباين بسؤال "هل نتمنى أن تنتهي البشرية في النار والضوء أو في الرمال؟" من الواضح أن الذروة الشعرية لكتاب فوكو، تبدو مثل هذا التحدي النيتشي تماماً. إن التفكير الاجتماعي الذي أدى إلى كبت الإنسان في القرون الماضية، أنتج الإنسان الأخير النيتشي، بينما فوكو، الذي يفضل الديونيسيسية على الأبولونية دوما، المستعر والخطير على العقلاني والمنظم، يتوق إلى السوبرمان.

كي يتجنب القيام بالخدمة الإلزامية التي تدوم لسنتين اختار دانييل ديفيرت الذهاب للتدريس في تونس. وقد تبعه فوكو عام 1966 ودرّس في جامعة تونس، واستمتع بمتع أفريقيا الشمالية التي كانت تصبح أكثر وعياً ونشاطاً سياسياً بازدياد.

بعد المظاهرات ضد الحكومة، وثورة الطلاب والمواجهات الدرامية بين الطلاب والشرطة عام 1968، في مناخ مليء بالسياسة الجذرية، عاد فوكو إلى باريس وقبل منصباً تدريسياً في جامعة فينسين الحديثة كرئيس قسم الفلسفة فيها. وتبعه ديفيرت وأصبح محاضراً في علم الاجتماع. كانت الجامعة مؤسسة يسارية متطرفة، وفي طليعة المزاج الطلابي الجديد. لاحقاً ادعى فوكو أن ثورة الطلاب عام 1968، هي ما أخرجه من شغفه بالحوار، وجعلته يصبح ناشطاً في القضايا السياسية والاجتماعية. نتيجة لذلك شارك في عدد من الحملات السياسية بما فيها العمل الإصلاحي في السجون بشكل خاص. وسرعان ما أصبحت فينسين مسرحاً للمظاهرات والمواجهات مع الشرطة- وهنا لعب رئيس قسم الفلسفة دوره، حيث أطلق القذائف ووزع الرجال على المتاريس. لكن المتظاهرين لم يكونوا بقوة رجال الشرطة، ووجد فوكو وديفيرت نفسيهما معتقلين مع بضع مئات من الآخرين، وعيونهما تدمع بسبب الغاز المسيل للدموع.

من الواضح أن مظهر فوكو كأكاديمي وبطل جذري للقضايا السياسية، قد تغير الآن. كان يبدو بمظهر مناسب لدوره: واجه الصلع المتزايد وهو في الثانية والأربعين من عمره، فأخذ المبادرة وحلق شعر رأسه. وقد ميزه مظهره وملابسه غير الرسمية عن الأكاديمي العادي. يدعي البعض أنه كان يبني واقعه الخاص بشكل واعٍ، ويؤكد نفسه بالطريقة النيتشية،

وربما يدعي آخرون أنه كان يتبع الموضة وحسب، ويستغل وضعه الجديد بالحد الأقصى.

لكن ما ميز فوكو عن فلاسفة عديدين آخرين هي الطريقة التي كان يراجع بها دوماً تجربته الثابتة في الحياة، ويقوم بعملية مستمرة من الاستبطان. وفي أيار 1984، قبل وفاته بمدة قصيرة، في مقابلة أجراها بول رابينو وصف فوكو هذه العملية:

"الفكر ليس ما يقطن في تصرّف معين ويعطيه معناه، بل هو ما يسمح للإنسان بالتراجع عن هذا الطريق من الفعل أو ردّ الفعل، وأن يقدمه لنفسه كهدف للتفكير، وأن يتساءل عنه وعن معناه وظروفه وأهدافه. التفكير هو حرية من العلاقة بالأمر الذي يفعله المرء، الحركة التي ينفصل المرء بها عنه، ويؤسسه كهدف ويفكر به كمشكلة".

ويعكس هذا تأكيده السابق على أن أعماله هي سيرة ذاتية، بما أنها تأملاته الموضوعية حول نفسه وحول تصرفاته.

لكن سيكون من الخطأ أن نرى أن فوكو في تلك المرحلة، كان يمنح نفسه كلياً للتدريس في فينسين أو يدعم القضايا السياسية المختلفة. لقد بقي هناك لب أكاديمي تقليدي في حياته، وسرعان ما بدأ بتمضية وقت أقل في فينسن ووقت أطول في المكتبة القومية، حيث يقوم بأبحاث دقيقة شكلت أساس منشوراته.

نُشر كتاب "تاريخ المعرفة" عام 1969. وهذا عمل آخر هام من أعماله، وفيه يستكشف طبقة تلو الأخرى من المفاهيم والإشكاليات، ويُخرجُ العملية التي يفهم فيها الفكر، التصرّفات وعناصر القوة والسيطرة التي تشكله، إلى النور.

بعد سنة انتُخب فيلسوف المتاريس المتطرف هذا ليصبح أستاذاً في جامعة فرنسا، وهي أكثر المؤسسات الأكاديمية الفرنسية

فخامة، واختار لقب أستاذ تاريخ أنظمة الفكر. هكذا، وبعد أن تحرر من عبء التدريس، أصبح قادراً على تطوير مجاله الخاص من العمل الذي قدم عنه محاضرات عامة. وأصبح راسخاً في قلب الفلسفة الفرنسية.

لكن مكانة فوكو الجديدة لم تجعله أقل تطرفاً. ففي مناظرة مع الفيلسوف السياسي الأمريكي والناشط نعوم تشومسكي في التلفزيون الهولندي عام 1971، أوضح أنه كان مستعدا للاستغناء عن أي مبدأ للعدالة. وقد جادل تشومسكي في أن الدولة تحتاج أحياناً للتحدي والمعارضة، لكن- للقيام بهذا- يحتاج المرء إلى مبدأ العدالة الخاص به. واستمر فوكو مؤكداً أنه في الصراع بين الطبقات، كان الفوز هو الهدف، بدلاً من تحقيق العدالة، وأنه عندما تتولى طبقة الكادحين السلطة، ربما تمارس السلطة على من هزمتهم بطرق عنيفة ودموية - ولا يرى أي اعتراض على هذا. لقد شعر تشومسكي أنه كان يناظر شخصاً لم يسكن الكون الأخلاقي نفسه. وفي السنة التالية بالغ فوكو في هذا أكثر، مناصراً "العدالة الشعبية" بدلاً من النظام القضائي، واستشهد بمجازر أيلول عام 1792، حيث- في واحدة من أكثر الأحداث دموية في الثورة الفرنسية، قُتل أكثر من ألف شخص- بمن فيهم كهنة وأرستقراطيون والمشتبهون بالخيانة- على يد الغوغاء في باريس. كان واضحا لفوكو أنه لم تكن هناك أية حدود للوحشية التي يمكن أن تكون مقبولة: كان يناصر إعطاء الناس المعلومات، والسماح للحاجة الشعبية للانتقام والثأر أن تحدث، بدلاً من اللجوء إلى المحاكم. لقد بدا أثناء الضغط عليه، وكأنه يُسرّ بصدم الناس، وربما يُشبع بالوقت نفسه، حاجته الجنسية للانتهاك.

وضع نصب عينيه أشياء أخرى غير التميّز الأكاديمي. سكن في الطابق الثامن من مبنى سكني، وساعده منظار على إشباع ميله للتلصص على شبان في شقق أخرى. لكن انحرافاته الجنسية وجدت نداً لها في الجهة الأخرى من الأطلسي، عام 1970 كان في سان فرانسيسكو، حيث اكتشف الحريات الجنسية للحمامات العامة. مقارنة بالإمكانيات المقيدة أكثر في باريس، فإن حفلات العربدة الجنسية التي وجدها في كاليفورنيا كانت تحرراً مسكراً، ومكنته من القيام بأشياء لم يكن بوسعه إلا أن يحلم بها في الماضي.

إن مقدمة كتابه "هذّب وعاقب" الذي صدر عام 1975، تتحدث بشكل مطول عن تفاصيل التعذيب في أواسط القرن الثامن عشر، ثم تحدث عن الطريقة التي اختُرعت كطريقة بديلة للتعامل مع أجساد المجرمين: تقيدهم بدل أن تَدمرهم. وقد رأى في هذا نموذجاً للسيطرة والقيود الاجتماعية. وأظهر، بتعقب تطور السجن العصري، أن ما يمكن أن يُعتبر لطفاً وإنسانية، خبأ درجة متزايدة من السيطرة الاجتماعية، وكانت هذه فرصة أخرى له كي يتفحص طبيعة القوة في المجتمع واستخدامها. في بعض الطرق، تُعتبر الروح سجناً للجسد (عكس نظرة أفلاطون)، وبهذا فإن المجتمع هو السجن الذي تُحتجز فيه أجساد البشر (المحرومة من الأسلوب الديونيسيسي). بالنسبة لطالب الفلسفة البريء، ربما تبدو كثير من تفاصيل العنف، غير ضرورية لإثبات وجهة النظر. لكن بالنسبة إلى من شاركوا فوكو اهتماماته، فإن فلسفته كانت مثيرة (جنسياً) بشكل كبير.

في السبعينات، تغيرت مقاربته من علم الآثار، حيث يبدو أن الحوار البشري يعرّف الواقع، إلى علم الأنساب، وهو مصطلح استخدمه نيتشه. كان فوكو الآن أكثر اهتماماً بالعملية التي تتغير

بها الأفكار والمفاهيم مع تغير البنية الاجتماعية. لكن من الواضح أن فوكو كان مهتماً بـ "نظم الفكر" (كما نرى من اللقب الذي اخترعه لمنصبه في جامعة فرنسا). كان الفرق الرئيس في هذين الطورين من أعماله، أن دراسته المُبكّرة الآثارية كانت تهتم بالبُنى – حيث كان نسيج الأفكار واللغة يعرّفان الواقع– بينما تظهر أعماله اللاحقة، الطريقة التي تتغير بها الأفكار مع المجتمع، حيث يؤدي أحد المفاهيم إلى ولادة الآخر. وفي أعماله اللاحقة، ركز ثانية على موضوع معين وهو: السلطة. فقد رأى نفسه كمؤرخ منتقد بدلاً من منظّر اجتماعي، ورأى السلطة والسيطرة الاجتماعية، سواء أكانت واضحة أم مخبأة، هي أساسية في فهم قضايا مثل العقوبة والسجون و–لاحقاً– الجنسانية. كما رأى أن السيطرة الاجتماعية، وتوصيف الناس بأنهم "طبيعيون" أو "غير طبيعيين" هو شكل من أشكال الانضباطية التي كان يعارضها بشدة.

في عام 1975 كان يحاضر في بيركلي في كاليفورنيا، ومرة أخرى يرتاد الحمامات العامة ومؤسسات السادية– المازوشية الأخرى في سان فرانسيسكو. منذ أواسط السبعينات، كانت كل النشاطات الجنسية بين بالغين موافقين، تُعتبر قانونية في كاليفورنيا، وكان مجتمع المثليين في سان فرانسيسكو يكبر. بدأت تتأسس حانات المثليين ونواديهم وحتى مجتمعاتهم. كانت بعض الحمامات العامة تحتوي على غرف للجنس الجماعي، من أجل اختبار العلاقات الجنسية المتعددة بين الغرباء. هنا استطاع فوكو اختبار جيل المتعة الجنسية مع الغرباء، مع الحرية التي يمنحها إخفاء الهوية. كان مهتماً بشكل خاص بالتعذيب، وشعر بالذهول لعثوره على ثقافة مكرّسة للجنس العرضي والمخدرات. وحول ما أطلق عليه مصطلح "استبعاد الجنس من المتعة"، شعر بالذهول من

امكانية الإثارة ومنح المتعة الجسدية عبر الجسم كاملاً، وليس الأعضاء الجنسية فقط. وبعد تحرره من القلق بشأن هوية الإنسان الذاتية الخاصة، رغب أيضاً باستكشاف الطرق التي يمكن للمرء بوساطتها منح المتعة الجنسية على المستوى الجسدي وتلقيها، بشكل مباشر وغير شخصي. كما وصف أنه حظي بتجربة عميقة وهو في حالة نشوة بمخدر (L.S.D)[1] وهو ينظر إلى وادي الموت في كاليفورنيا. في الواقع، كان فوكو منبهرا جداً بتأثير المخدر المهلوس بحيث أنه علّق قائلا "الشيء الوحيد الذي يمكنني مقارنته بهذه التجربة في حياتي، هو الجنس مع شخص غريب". وهو ليس تعليقاً يمكن توقعه من أستاذ في جامعة فرنسا!

لكن كان هناك جانب مختلف جداً في حياته. فبعد موت والده عام 1959، كان في كل صيف، يمضي الوقت في منزل العائلة الريفي لو بيروار، ويعمل في المكتب الذي أسسه من تحويل جناح الخدم السابق، ويتشارك الوقت مع أبناء أخوته وبناتهم، ويجمع الخضار والفاكهة ويساعد أمه في ري الحديقة، وكان يقوم بهذه الأعمال في صيف كل سنة حتى عام 1983، حيث منعته عنها صحّته المتردية.

كان عمله العظيم الأخير الذي نُشر منه ثلاثة مجلدات هو"تاريخ الجنس"- وهي دراسة يحبها كما هو واضح. ظهر المجلد الأول عام 1976، بعنوان "إرادة المعرفة"، ونُشر المجلدان الثاني والثالث قبل وفاته بأيام فقط. وفيه انتقل تركيزه باتجاه فهم الأخلاقيات في سياق تاريخي- كيف فهم الناس في أزمنة سابقة، أخلاقية تصرفاتهم؟ وبينما كان في المجلد الأول، يبحث في الجنسانية في العصر الحديث، فقد استكشف في المجلدين الثاني والثالث، الجنسانية في اليونان وروما القديمتين.

[1] (Lysergic Acid Diethylamide) أحد أنواع المخدرات المسببة للهلوسة. المترجم.

وكان المجلد الرابع الذي لم يُنشر، يكاد يكتمل عند وفاته. لقد عاد فيه إلى دراسة استخدام السلطة في المجتمع، لأنه آمن بأن القيود المطبّقة على الناس، تمنعهم من التعبير عن قواهم، مما يجعلهم يجدون مخرجاً لهم في التخيلات الجنسية. لكنه بدا في هذه المرحلة الأخيرة، وكأنه يُعطي فضلاً أكبر لدور الفرد – في كتاب "تاريخ الجنس" وفي محاضرات بيركلي في سنته الأخيرة. لقد استكشف فكرة أن يقوم رواقي أو كالبي بمبادرة ما، أو يهزأ عمداً بالأعراف، كي يوضح مقصده.

ذات يوم في تموز عام 1978، وتحت تأثير نشوة الأفيون، وفي أثناء عبوره لشارع فوغيرارد خارج شقته، صدمته سيارة. وبسبب اعتقاده أنه أوشك أن يموت، وصف هذه التجربة على أنها واحدة من أسعد تجارب حياته! وكما هو شائع لدى من يتعرضون لتجربة اقتراب الموت، شعر أنه يغادر جسده، ووجد التجربة ممتعة بشكل لا يمكن وصفه. من الواضح أنه رغب بحدّة التجربة أياً كان الألم الذي سببته له– بالتأكيد، بسبب الألم الذي عاناه منها. من الواضح أنه لم يكن يخشى الموت، بل أكدت التجربة ما كان قد استكشفه في وقت سابق في حياته. كان لإحساسه بالمتعة الكاملة، علاقة وثيقة بالموت.

طوال السبعينات، كان ناشطاً سياسياً مع دانييل ديفيرت، ويدعم الثورة في إيران ضد الشاه، وذهب إلى هناك عام 1978. في حزيران 1979 انضم إلى سارتر وآخرين في مناشدة الرئيس الفرنسي ليمنح المزيد من المساعدة لـ "شعب القارب" الفيتناميين. أصبح حينها قادراً على القيام بحملة على أساس إنساني من أجل اللاجئين وحقوق المنشقين السياسيين، دون حاجته السابقة للترويج لوجهات النظر اليسارية المتطرفة.

كانت مواقفه قد أصبحت ألطف، ولم يعد مستعداً لاعتبار كل قانون أو مبدأ، قامعاً ومقيداً.

تغيرت اهتماماته ثانية في نهاية السبعينات. منح اهتمامه هذه المرة للفلسفات الأكثر كلاسيكية– وخاصة للمدرسة الرواقية– في سعي لفهم الذات البشرية. حتى إنه نقل مكان أبحاثه المعتاد من المكتبة القومية (حيث تذمّر من البطء في تسليم الكتب) إلى مكتبة سولكوار، التي كان الرهبان الدومينيكيون يديرونها، والتي كان يستطيع فيها، دراسة النصوص المسيحية القديمة بشكل أسهل، لأنه كان قد بدأ بقراءة أعمال القديسين أوغسطين وأمبروز وجيروم وبينيديكت– ويبحث في الكنيسة القديمة في سياق الفكر السياسي لذلك العصر، ويبحث في أدبها الروحي أيضاً. كان يفكر حتى بالاستقالة من جامعة فرنسا والانتقال إلى الريف.

تم تسليم المجلدين الثاني والثالث من "تاريخ الجنس" للناشرين في أوائل 1984. في ذلك الوقت، كان فوكو على الأرجح يعاني من الإيدز منذ سنة على الأقل، إن لم يكن أكثر. لقد انهار في شقته في باريس، ودخل المستشفى ومات في 25 حزيران بعمر السابعة والخمسين.

في البداية، لم تقترح التقارير الطبية الإيدز، وتم التنديد بتخمينات الصحف. لم يكن مرض الإيدز قد أعطي هذا الاسم إلا قبل سنتين، وأي علاقة به كانت تعني الذنب أو العقاب الإلهي بين عدد كبير من الناس والصحافة. ومرّ شهران آخران قبل أن تجعل وفاة روك هادسون موضوع الحديث عن الإيدز ممكناً دون هذه الإيحاءات. وشعر البعض بالندم لاحقاً لأن وفاة فوكو لم تكن فرصة للبدء بالتغلب على هذه الأحكام المسبقة. في الواقع، وعلى شهادة الوفاة الأصلية، تم تحديد الإيدز بأنه سبب الوفاة، لكن العائلة أصرّت على إخفاء هذه المعلومة. ويبقى السؤال ما إن كان

فوكو قد عرف بإصابته بالإيدز، وانتُقد بعد وفاته من قبل البعض في مجتمع المثليين بسبب إخفائه الأمر إن كان قد عرف.

الأمر الواضح هو أنه في الصيف السابق، اختار بعض أصدقائه ممارسة الجنس الآمن ونصحوه بالقيامٍ بالمثل. لكنه تجاهل نصيحتهم وعرّض حياة آخرين للخطر عمداً. عاد بدون وقاية إلى الحمامات العامة– وهي أماكن أصبحت بعد سنة فقط تخضع للتدقيق الشديد أو الإغلاق. لكن في عام 1983 بدا أنه من الممكن حتى لمفكر عالمي، أن يبتعد عن الحكمة كفاية، ليغامر بحياته وبحياة الآخرين. كان منشغلاً منذ وقت طويل بالموت والانتحار. ربما في السنة اليائسة الأخيرة من تهوره، تمكن من اختبار أمر أمعن التفكير فيه في أكثر أفكاره كآبة. مع معرفته بالمخاطر، اختبر برغبة شديدة، التحول الدقيق للألم إلى متعة إيروتيكية.

ومع ذلك كان هناك جانب مختلف تماماً لدى فوكو في ذلك الخريف من عام 1983. كان يعطي سلسلة محاضرات في بيركلي عن (البارهيزيا)، وهو مصطلح يوناني يمكن ترجمته بشكل عام بحرية التعبير، لكن مع إضافة الصدق أو الكلام المباشر. كان سيتم تطويرها إلى سلسلة لجامعة فرنسا في الربيع التالي– وهي محاضراته الأخيرة. بتفصيل دقيق، يراجع لطلابه أمثلة من الأدب اليوناني الكلاسيكي والفلسفة اليونانية، مستكشفاً كيف أن قول الحقيقة بهذا الشكل له علاقة بأسلوب الحياة وبالمخاطر التي يجلبها الصدق. ثم يلتفت إلى الكلبيين[1]، وهم مجموعة مفكرين

---

[1] هم مجموعة فلسفية يونانية وُجِدَتْ بين عامَي 437 و370 ق م. أسّسها، على ما يقال، أنتيسثِينِس الذي كان أحد تلامذة سقراط، وكان أول من استخدم العصا والخِرْج الذي يحمله الشحاذون رمزًا لفلسفته. من أشهر فلاسفتهم الفيلسوف ديوجينيس الذي أطلق عليه أفلاطون لقب "سقراط المجنون"، تستند أخلاقيات الكلبيين بشكل عام، إلى رفض الأعراف الاجتماعية، التي يميّزون بدقة بينها وبين الطبيعة التي كانوا يدّعون الرغبة بالرجوع إليها.

أكثر سوءاً بكثير، لم يكونوا أرقى من القيام بالاستمناء على الملأ (ديوجين)، أو الانتحار العام (البيريجرينوس) ليظهروا احتقارهم للأعراف الاجتماعية وعزمهم على العيش بصدق وطبيعية. يقول عنهم في كتاب "الحديث والحقيقة": جَعلُ البارهيزيا مشكلة":

"القيمة الكبيرة التي ساهم بها الكلبيون بطريقة الإنسان في العيش، لا تعني أنهم لم يكونوا مهتمين بالفلسفة النظرية، لكنها تعكس وجهة نظرهم بأن طريقة عيش شخص ما لحياته، كانت محك علاقته أو علاقتها بالحقيقة- كما رأينا أيضاً في حالة التقليد السقراطي. لكنهم استنتجوا من هذه الفكرة السقراطية، أنهم كي يصرحوا بالحقائق المقبولة لديهم، بطريقة يمكن للجميع الوصول إليها، اعتقدوا أن تعاليمهم يجب أن تتمثل بطريقة حياة علنية ومرئية وواضحة ومستفزة وأحياناً فضائحية. لذا عَلِمَ الكلبيون بطريقة الأمثلة والشروحات التي تُربط بهم. أرادوا أن تكون حياتهم إعلاناً عنِ الحقائق الأساسية التي ستصبح بهذا مبدأ توجيهياً أو مثالا للآخرين ليتبعوه. لكن لا يوجد في هذا التأكيد الكلبي على الفلسفة كفن للحياة، ما هو غريب عن الفلسفة الإغريقية... الموقف الكلبي بشكله الرئيس، هو نسخة راديكالية متطرفة للمفهوم الإغريقي، عن العلاقة بين طريقة حياة الإنسان ومعرفة الحقيقة. الفكرة الكلبية القائلة أن الإنسان ليس إلا علاقته بالحقيقة، وأن هذه العلاقة بالحقيقة، تأخذ شكلها في حياته الخاصة- هي فكرة إغريقية بالكامل".

ومن هنا يمكن تفسير ازدراءهم الكبير بالعلم وتأكيدهم بأن الخير الوحيد هو الفضيلة. أثرت هذه الفلسفة فيما بعد على الفلسفة الرواقية.

وربما هنا، في قاعة المحاضرات الأكاديمية، مع كل الاهتمام بالتفاصيل الذي ميزه كأكاديمي من الدرجة الأولى، يوجد مفتاح السبب الذي جعله يستكشف البارهيزيا الخاصة به، في رقصة الموت التي كانت تحدث في الحمامات العامة- كان يخاطر بكل شيء عمدا، كي يعيش ما يصرّح عن حقيقته.

في تقصي سلوك فوكو بالعلاقة مع أعماله، هناك سؤال أساسي ينبغي الإجابة عنه: هل اتبع ما كان رائجاً أم أنه حدد اتجاهه ذاك؟ عندما حلق رأسه وظهر عند المتاريس في جامعة فينسين، هل كان يتصرّف بأصالة بدافع من قناعاته، أم أنه كان يتبع حركة رائجة جديدة ويبحث عن جمهور جديد؟ هل أغوته في العقد الأخير من حياته، روح المجتمع المثلي في كاليفورنيا أم أنه كان يتصرّف بدافع قناعته الشخصية كفرد؟ إن هذا أمر ضروري لفهم فلسفته. ربما تكون كاليفورنيا قد منحته الإذن بالقيام بالخيارات والتصرف بطرق ما كان بوسعه (حرفياً) سوى أن يحلم فيها، في (بواتييه) المحدودة.

لكن هل من غير الممكن فهم تصرفاته إلا من خلال أبستيمية ثقافة الحمامات العامة؟ أم هل يجب أن يكون الأفراد مسؤولين عن تصرفاتهم بأي معنى مطلق؟ لم تكن تلك هي المسألة التي سببت نقد هيغل لكانط وحسب، بل انعكست أيضا في أعمال فوكو الخاصة — في نهاية حياته- حيث يبدو أنه يستكشف قدرة الفرد على التميز والقيام بمبادرة تحدٍ ضد أعراف ثقافته أو ثقافتها. هل كان يطيع الأوامر الثقافية، أم يقوم بمبادرة تحدٍ تعرض حياته للخطر، تتناسب مع تقليد الكلبيين؟ ربما نحن نطلب أكثر مما ينبغي، إن توقعنا أن تكون أية حياة محدودة تماماً بهذه القضية.

لم يترك فوكو وصية عادية، بل رسالة أشارت بأن على (ديفيرت) أن يحصل على الشقة، وأن لا تُنشَر أية أعمال له بعد

وفاته. في الواقع، قام بجهدٍ كبير للتأكيد على أن يتم إتلاف رسائله وأبحاثه. وأياً كان الإرث المؤسف الذي خلفه في حمامات سان فرانسيسكو العامة، فلم يعرف (ديفيرت) إلا بعد وفاته، أنه كان كريماً جداً مع الرهبان الدومينيكانيين الذين أداروا مكتبة سولكوار، حيث عمل خلال سنواته الأخيرة. إنه مكان يحمل البساطة الرهبانية، وهو يحمل الآن أرشيفه. وكما أوحت سيرة حياته التي ألفها ديفيد ميسي "حياة ميشيل فوكو"، كان فوكو رجلاً ذا حيوات متعددة.

مهما تكن ميوله تجاه الانضباط الرهباني، فقد أذهله الموت والانتحار والخطر دوماً. لقد قال في السنة الأخيرة لحياته، في نقاش حول مخاطر الإيدز: "وأيضاً، الموت بسبب حبّ الصبيان: ماذا يمكنه أن يفوق هذا جمالاً؟"

"ديميتريوس"

ملك أثينا الفيلسوف

عندما يعيد التاريخ نفسه، فإنه يعيد نفسه على شكل مهزلة. بعد خمس وعشرين سنة من العثور على أفلاطون ميتاً في مكتبه وهو يعمل في كتاب "القانون"، كانت آخر تأملاته وأكثرها كآبة تتعلق بالمحنة الإنسانية. لقد دُمرت ديمقراطية أثينا أخيراً على يد جيوش الجنرالات الماسيدونيين، عندما غيّر خلفاء الإسكندر العظيم شكل العالم. كان المنتفع غير المتوقع، من هذه الإطاحة في أثينا، فيلسوف مارق اسمه ديميتريوس من فاليروم، وهو من أتباع أرسطو وليس من أتباع أفلاطون، رغم أنه يُفترض أنه عرف أعمال الاثنين.

في عام 317 قبل الميلاد، وضع كاساندر، الجنرال الذي كان يسيطر على اليونان في ذلك الوقت، ديميتريوس في منصب الإيبمثليتيس، أي المشرف أو الوصي على أثينا، التي كانت لا تزال أعظم مدن اليونان. كان ديميتريوس ملعوناً كعميل، أو حتى كفاشي، حيث إنه أخمد ديمقراطية أثينا التي دامت لمدة طويلة، لكنه كان شخصية متعددة المزايا، حيث أظهر نظامه أحياناً،

سمات تكاد تكون سيريالية. لا تُعرف الكثير من الحقائق المؤكدة عن وصايته، لكن بقيت الكثير من القصص عنه. خلال حكمه، أمر ديميتريوس بمواكب يقودها حلزون ميكانيكي يبصق اللعاب. قَبِلَ ألقاب الإطراء مثل هيليومورفوس أو شكل الشمس ولامبيتو أي المشع. وربما كان قد أصيب بالعمى لبعض الوقت قبل أن يعالجه سارابيس، إله العلاج الإغريقي- المصري. لقد فرض ديميتريوس قوانين تقشف صارمة على المواطنين الأثينيين (كانت أوقات عصيبة اقتصادياً)، بينما أقام حفلات جامحة هو نفسه. وفي هذه الحفلات، صبغ شعره بلون أرجواني، وزين وجهه بأحمر التجميل والكريمات- وهو سلوك غير معتاد بالنسبة إلى فيلسوف أو ديكتاتور. لكن ديميتريوس كان نهماً جداً جنسياً، وكان يجوب شارع ترايبودز كل يوم بعد الغداء، "حيث يجتمع أجمل الصبيان، آملين أن يلاحظ وجودهم". ولا يزال الشارع موجوداً، وله السمعة نفسها. لقد نصب أيضاً 1500 تمثال برونزي على شرفه. وبعد الإطاحة به تمت إذابتها لتصبح أوعية تبول في الغرف، ليعبر الأثينيون عن رأيهم الحقيقي به.

رغم أنه غالباً ما يُعتبر ملكاً- فيلسوفاً، فإن أعمال ديميتريوس التي بقيت تتحدث تقريباً عن كل شيء إلا فلسفته: الأدب، الطبخ الفاخر، تصفيف الشعر، الملابس... إلخ. وعندما خسر حاميه سلطته على اليونان عام 307 قبل الميلاد، نصح ديميتريوس بطليموس الأول ملك مصر بتأسيس مكتبة جديدة شاسعة في الإسكندرية. ولقد خسر صداقته مع مصر أيضاً، لكن المكتبة، بمجلداتها التي يبلغ عددها 600 ألف مجلد، وهي واحدة من عجائب العالم القديم السبع، حملت بصمته بدون شك. (إن أردت الزخم، انظر حولك)...

حاشية

هناك طبعاً جانب آخر للقصة. إن كنا قد قدمنا ثمانية فلاسفة يسيؤون التصرف بشكل يسيء إلى صورتهم، فقد فعلنا هذا فقط كي نوضح الفكرة العامة التي تفيد أن حياة المنطق لا تؤدي بالضرورة إلى حياة منطقية. لم تكن أخوية الفلسفة منيعة على الأخطاء البشرية، ولا يجب أن نتوقع أن من كانت أفكارهم جليلة، فإن عواطفهم وجنسانيتهم جليلة أيضاً.

مهما كانت الحماقات التي كُشفت في حياتهم، فإن مساهمتهم للفكر الإنساني والفهم الذاتي كانت هائلة.

لقد وضع روسو، عندما لم يكن مبالغاً في هوسه بنفسه، مبادئ تعليمية وديمقراطية وأفكاراً عن علاقتنا بالطبيعة غير البشرية، طورها آخرون، وكان لها تأثير عميق على الوعي العصري.

أما شوبنهاور، في تطويره لإدراك المدى الذي يساهم فيه وعينا الذاتي بتشكيل تجربتنا، بأخذ فلاسفة الشرق بعين الاعتبار، فقد كان قادراً– عندما لا يكون غارقاً في تشاؤمه الكئيب– أن يقدم تحليلاً مقنعاً ومؤثراً عن الطريقة التي نتواصل فيها .نحن كبشر مع عالمنا.

وأما بالنسبة إلى نيتشه... فلا يسعنا حتى البدء بوصف تأثيره، ما إن كان جيداً أو سيءاً أو يتجاوز الفئتين، على فكر المرحلة التالية له. ربما كان نيتشه مريضاً جسداً وروحاً، لكن أفكاره المتبصرة التي قدمها على شكل أمثال، ألهمت نظرتنا إلى مستقبل البشرية.

في عالم متحرر من قيود القيم المحددة مسبقاً، فإن قيمه عبارة عن تحدي لنقول "نعم" لمستقبل مختار بحرية.

أما راسل، إضافة إلى تحليله المنطقي الممتاز، فقد أخرج فلسفته من خزانتها الأكاديمية وبثها في جميع الأصقاع في ارتباط صحفي مع كل قضايا عصره. مهما كانت خلفيته الارستقراطية وفوضاه المنزلية، فقد كان ناشراً ممتازاً لعملية التفكير الفعلي.

بالنسبة إلى ويتغنشتاين، نشعر بإغراء القول إنه تمكن بواسطة ثقله الفكري وحده من أخذ الفلسفة في نزهة كما يفعل الإنسان مع كلب، وقادها في البداية في أحد الاتجاهات، ثم أعادها ثانية إلى حيث كانت. لقد كان الطريق الذي قادها فيه قصيراً، كما كان مزاجه عصبياً، لكن الفلسفة وجدت طريقها منذئذ خارج الزقاق الضيق الذي قادها إليه، ولم يعد مطلوباً من الطامحين للفكر الجاد أن يرتدوا قمصاناً بيضاً مفتوحة الياقة!

كان تحليل هيدجر لطريقة فهمنا لأنفسنا فيما يتعلق بالماضي والمستقبل، ذا تأثير عميق، ولفكره اللاحق عن التكنولوجيا وعلم البيئة علاقة كبيرة بالقرن الجديد. لا يمكن فصل فكره بالكامل عن حماقته السياسية، لكن يمكن تقديره على الرغم منها.

وسارتر، الذي أخذ الفلسفة من قاعة المحاضرات إلى المقاهي، وجعل الوجودية (حتى بالنسبة إلى من لا يفهمونها جيداً) موضة، يُحتفى بها بعد حلول الظلام وبين الملاءات، مُنْتِجاً جواهر أدبية

تسمو فوق حدود ما هو عقلاني وتوضحه - كتب بهوس كلٍ شيء عن نفسه في أعماله. إن أحببته أم كرهته، فهو يبقى عملاقاً.

وأخيراً فوكو، الذي يمكن انتقاده بسهولة على إسرافه، يجب أن يُحتفى به بالقدر نفسه لجرأته في أعماله، وعينه التي لا تغمض عن الحقائق المتجسدة في النماذج المتغيرة للفكر واللغة. ربما لا يكون الجنون والعقوبة والجنس هي المواضيع المعيارية للفلاسفة، لكن استكشافها أساسي في فهم الطبيعة البشرية المتعددة الوجوه.

وربما يشجعنا تقديرنا لقابليتهم للخطأ- مهما كنا واعين لحماقاتنا وحدودنا الخاصة- على الجرأة على التفكير بأشياء غير أنفسنا.

الفهرس:

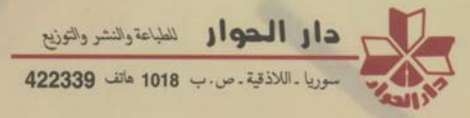
من يسعَ لإرشادٍ يخرجه من توهانه عبر الفلسفة، يجب تحذيره.

كما تستطيع الفلسفة أن تنير عقل الإنسان، تستطيع أيضاً أن تضلله وتخدعه. وكما يقول ديكارت: "تستطيع النفوس العظيمة القيام بأعظم الرذائل، كما تستطيع القيام بأعظم الفضائل".

يوضّح هذا الكتاب مخاطر الفلسفة. إنه يُظهِر التصرفات الخاصة للفلاسفة، من أمور محزنة حيناً وسيئة حيناً آخر، وجنون صريح واضح في بعض الأحيان، ومن النادر أن تكون تلك الأمور منفصلة عن تفكيرهم.

يبحث كتاب "جنون الفلاسفة" حياة ثمانية فلاسفة عظام هم: "جان جاك روسو"، الذي تبدو نظرته حول الثقافة والنظام الاجتماعي، على خلاف غريب جداً مع حياته الفاضحة الخاصة. "شوبنهاورونيتشه" من عمالقة القرن التاسع عشر اللذين تزداد كلماتهما أهمية في أيامنا هذه. إضافة إلى خمسة من فلاسفة القرن العشرين والذين كان لهم تأثير كبير، وهم: "بيرتراند راسل، لودفيغوتغنشتاين، مارتن هيدجر، جان بول سارتر، ميشال فوكو".

إن كلاً من هؤلاء العظام يُظهِر أن حياة العقل لا تقود بالضرورة إلى حياة عقلانية، ولذلك كتب مؤلف هذا الكتاب: «إننا لسنا بصدد تقييم أخلاقي للتصرفات، وجلّ اهتمامنا هو عرض لحماقات الحكماء، كي لا تُقدّس ذكراهم بشكل محرج».


دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339


9789933523299